د. فرج المبروك عمر عامر



قصص ومواعظ من الأدب والتاريخ

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

قصص ومواعظ من

الأدب والتاريخ

فرج المبروك عمر عامر

قصص ومواعظ من
الأدب والتاريخ

راجع مادته لغويا الدكتور: أبوبكر العربي المجدوب

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

فرج المبروك عمر عامر

قصص ومواعظ من الأدب والتاريخ

الطبعة الأولى : 2018 م

رقم الإيداع المحلي: 2018/546

رقم الإيداع الدولي: 9789959-25-966-0

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

المقدمة

عزيزي القارئ :

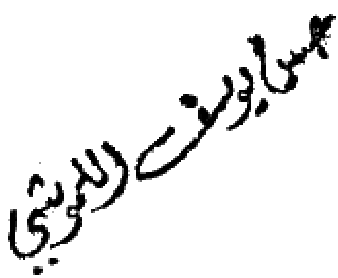
هذه مجموعة من القصص التاريخية اقتطفتها من بطون بعض أمهات الكتب، حيث رأيت من خلال قراءاتي لبغض المراجع التاريخية مثل مروج الذهب للمسعودي، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، والبداية والنهاية لابن كثير، وبعض مؤلفات ابن الجوزي، وغيرها من الكتب التاريخية القديمة الأخرى، أن أقوم باختيار بعض القصص منها، وإعادة صياغتها، واختصار ما يمكن اختصاره منها دون إخلال بالمعنى أو تغيير للنص الأصلي، وكلي حرص على الأمانة التاريخية، وكل ما نقوم به هو استخدام الكلمات والعبارات السهلة الفهم، والبعد عن الكلمات الغامضة والمعقدة، وأسعى جاهدا أن تكون القصة مشوقة وجذابة، ويستفيد منها القارئ الكريم، وأن يضيف إلى رصيده المعرفي معلومات جديدة، ويتعرف على أخبار الأولين من مشاهير وأبطال سطروا التاريخ ببطولاتهم، وحكماء استخدموا عقولهم وحكمتهم في حل أعقد المشكلات، كما يستخلص القارئ العديد من المواعظ والعبر من هذه القصص، ومقارنتها بواقعنا المعيش وكيف أصبحنا اليوم نحن إلى الماضي، وكيف كان يتصرف الأجداد رغم عدم دخولهم المدارس أو الجامعات التي نملكها اليوم، ولكنهم كانوا يملكون عقولا كبيرة جعلتهم ينطقون بالحكمة، ويتصرفون في المواقف الصعبة بعزائم قوية، وقلوب صلبة .

كما أن القارئ يعيش بوجدانه مع القصة لتلك الأيام الخوالي، ويستنبط منها الحكمة، ويجد فيها العظة والعبرة، حيث إن القصة كانت وما زالت تعتبر من أقدر الآثار الأدبية على تمثيل الأخلاق، وتصوير العادات، ورسم خلجات النفوس، وتُعدُ أسلوبا لتهذيب الطباع، ودفع الناس إلى المثل العليا: من الإيمان بالواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار.

وفي هذا الكتاب يجد القارئ صنوفا مختلفة من القصص القديمة التي حدثت عبر التاريخ، منها ما تروي بطولات الرجال وصبرهم وحكمتهم ودهائهم، ومنها ما يحكي عن العشق والغرام ودهاء النساء، ومنها ما يتناول شهامة العربي من نصرة المظلوم والثأر للشرف، بالإضافة إلى قصص أخرى تتحدث عن الإيثار، وكرامة الصدقة عن الفقراء والمساكين، ولم نغفل إضافة بعض القصص الطريفة، إلى غير ذلك من ألوان القصص التي سيجدها القارئ الكريم في هذا الكتاب الذي نتمنى أن يجد فيه المتعة والفائدة، سائلين الله أن نكون قد وفقنا إلى ما فيه الخير.

والسلام

■ د. فرج المبروك عمر

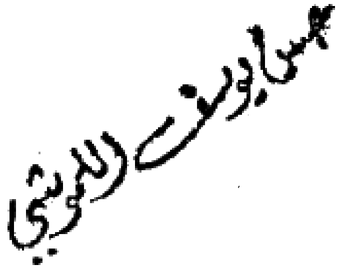


المحتويات

الموضــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة
25ـ فراسة الحجاج في ابن عمه	91
26ـ عمر بن عبد العزيز يطرب للصوت الجميل	93
27ـ الرشيد يقتل زوج أخته العباسة	95
28ـ طفيلي بين زنادقة	100
29ـ أمير يتطفل	102
30ـ نصر امرأة فنصره الله	106
31ـ دهاء وحمية معاوية	108
32ـ ابن المغازي يُضحك المعتضد	113
33ـ جبلة بن الأيهم يفر من عدل عمر بن الخطاب	116
34ـ عمرو بن العاص ينجو بأعجوبة	119
35ـ الهرمزان يتحايل على عمر بن الخطاب	121
36 كيف وصل الحجاج إلي الإمارة ؟	122
37ـ قصة حكم النجاشي للحبشة	125
38ـ قصة أحمد بن طولون	128

الموضـــوع الصفحة



الفَصْلُ الأَوَّلُ

قصص من التاريخ القديم، حدثت قبل ظهور الإسـلام. بعضها حـدث في بـلاد العـرب، وأخـرى خارجها، وتعبر عن مواقف مختلفة. بعضها حول الحكمة والشجاعة والصبر، وبعضها حول الطغيان والطغاة والاستبداد بالحكم إلى غير ذلك مما يجد فيها القارئ العظة والعبرة إن شاء الله تعالى.

حكمة وذكاء الاسكندر المقدوني

عندما استولى الاسكندر المقدوني على أرض الهند بعد أن انتصر على جميع ملوكها بلغهُ أن في أقاصي أرض الهند ملكا من ملوكهم ذو حكمة، وسياسة، وديانة، وإنصاف للرعية، وأنه قد بلغ من العمر أكثر من مائة سنة، وأنه ليس بأرض الهند عالم مثله في الفلسفة والحكمة يقال له (كند) وكان زاهدا، وذا خلق وأدب، وهذه هي أخلاق الملوك الكرام، وعندما علم به الاسكندر أرسل إليه كتابا يقول فيه: أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كنت قائما فلا تقعد، وإن كنت ماشيا فلا تلتفت، وإلا مزقت ملكك وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند. فلما ورد عليه الكتاب أجاب الاسكندر أحسن جواب، وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه أنه قد اجتمع له عنده أشياء لا توجد عند غيره منها، ومن هذه الأشياء: 1. إن له جارية لم تطلع الشمس على أحسن صورة منها 2. وفيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأله لحدة ذكائه واتساعه في علمه 3. وطبيب لا تخشى معها داء إلا ما يصيب الجسم من الفناء 4. وقدح عندي إذا أنا ملأته شرب منه جميع عسكرك ولا ينقص منه شيء، وأنا مُرسل جميع ذلك إلى الملك وصائر إليه ؛ فلما وصل ذلك الكتاب إلى الاسكندر وقرأ ما فيه، فكر بعقله الراجح، وحكمته المعهودة، وقال: تكون هذه الأشياء الأربعة عندي ونجاة هذا الحكيم من صولتي أحب من ألا تكون عندي ويهلك .

ثم أرسل إليه الاسكندر جماعة من حكماء اليونان والروم في

عدد من الرجال وأوصاهم قائلا: إن كان صادقا فيما كتب به فاحملوا ما ذكره إلي، واتركوا الرجل في موضعه، وإن كان غير ذلك فقيدوه واحملوه إلي، فمضى الوفد حتى انتهوا إلى الملك (كند) فاسقبلهم أحسن استقبال، وأنزلهم أحسن منزل، فلما كان اليوم الثالث، وهي عادة القدماء الكرماء؛ إذ كانوا ألا يسألوا الضيف إلا بعد ثلاثة أيام من الضيافة، جلس لهم مجلسا خاصا، وأجلس الحكماء منهم في الصف الأول ثم بقية الرجال الذين كانوا معهم في باقي الصفوف تقديرا للعلم والعلماء، فقال بعض الحكماء لبعض: إن صدقنا في الأولى صدقنا فيما بعدها مما ذكر، فلما أخذت الحكماء مراتبها، واستقرت بها مجالسها، أقبل عليهم يناقشهم في أصول الفلسفة، والكلام في الطبيعيات وغيرها من العلوم، وعلى شماله جماعة من حكمائه وفلاسفته، وطال الحوار والنقاش فيما بينهم حتى اقتنع فلاسفة الاسكندر بحكمته وعلمه، ثم أخرج إليهم الجارية؛ فلما ظهرت لأبصارهم رمقوها بأعينهم فلم يروا أجمل وأحسن من صورتها؛ فخاف القوم على عقولهم لِما رأوا من حسن جمالها، وإتقان صورتها، ثم أراهم بعد ذلك ما تقدم الوعد به، وجهزهم الملك (كند) مرسلا معهم الطبيب والفيلسوف والجارية والقدح، وشيعهم مسافة من أرضه، فلما وردوا على الاسكندر أمر بإنزال الطبيب والفيلسوف، ونظر إلى الجارية، فحار عند مشاهدتها، وبهرت عقله، وأمر كبيرة جواريه القيام بأمرها، والاهتمام بها، ثم توجه إلى الفيلسوف والطبيب في مناقشة كل منهما في علمه، وقص عليه الحكماء ما جرى لهم من المناقشة مع الملك الهندي، ومن أحضره من فلاسفته وحكمائه فأعجبه ذلك.

ثم أراد الاسكندر امتحان الفيلسوف الهندي الذي أرسله إليه

الملك واختبار معرفة ما أخبر عنه، فخلا بنفسه، وأجال فكره، وتوصل إلى طريقة ليختبر بها ذلك الفيلسوف ؛ فدعا بقدح فملأه سمنا إلى نهايته، ولم يجعل للزيادة عليه سبيلا، ودفعه إلى رسول له وقال له: امض به إلى الفيلسوف ولا تخبره بشيء، فلما ورد الرسول بالقدح ودفعه إلى الفيلسوف قال الفيلسوف في نفسه: لأمر ما بعث هذا الملك الحكيم بهذا السمن إلي، ثم أجال الفيلسوف فكره، وفهم مراد الاسكندر ؛ فدعا بنحو ألف إبرة فغرز أطرافها في السمن وأرسلها إلى الاسكندر، فأمر الاسكندر بسبكها على شكل كرة مدورة متساوية الأجزاء وأمر بردها إلى الفيلسوف، فلما نظر إليها الفيلسوف وتأمل فعل الاسكندر فيها أمر ببسطها، وبأن يتخذ منها مرآة بحضرته وصقلها فصارت جسما صقيلا تعكس صور من قابلها من الأشخاص لشدة صفائها، وأمر بردها إلى الاسكندر، فلما نظر إليها الاسكندر، وتأمل حسن صورته فيها، دعا بطست فجعل المرآة فيه وأمر بسكب الماء فيه عليها حتى رسبت فيه، وأمر بحمل ذلك إلى الفيلسوف، فلما نظر الفيلسوف إلى ذلك أمر بالمرآة فجعل منها مشربة أي قدح يشرب فيه الماء، وجعلها في الطست فوق الماء فطفت فوقه وأمر بردها إلى الاسكندر، فلما نظر الاسكندر إلى ذلك أمر بتراب ناعم فملئت منه وردها إلى الفيلسوف، فلما نظر الفيلسوف إلى ذلك تغير لونه، وجزع، وسالت دموعه على خده، وكثر شهيقه، وطال أنينه، وظهر حنينه، وأقام بقية يومه حزينا، ثم أفاق من تلك الحال، وزجر نفسه، وأقبل عليها كالمعاتب ويقول لها: ويحك يا نفس ! ما الذي صيرك إلى هذه الغمة؟ ووصلك بهذه الظلمة؟ أنسيت وأنت في النور تسرحين وفي العلوم تمرحين، وتنظرين في الضياء الصادق، وتتفسحين في العالم المشرق ؟... إلى أن قال: حللت يا نفس بين السباع القاتلة

والأفاعي المهلكة، والنيران المحرقة، والريح العاصفة... ثم رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر فقال بأعلى صوته: يا لك من نجوم سائرة، وأجسام زاهرة من عالم شريف طلعت، ولشيء ما وضعت.... الخ ثم أقبل على الرسول وقال خذه ورده إلى الملك يعني التراب ولم يحدث فيه شيئا ؛ فلما ورد الرسول على الاسكندر أخبره بجميع ما شاهده، فتعجب الاسكندر من ذلك وعلم مرامي الفيلسوف ومقاصده وغاية مراده.

وفي صباح اليوم التالي دعا الاسكندر الفيلسوف الهندي وجلس له جلوسا خاصا ولم يكن الاسكندر رآه من قبل، فلما أقبل ونظر إلى صورته وتأمل في قامته وخلقته، نظر إلى رجل طويل الجسم، رحب الجبين، معتدل البنية، فقال في نفسه: إذا اجتمع حسن الصورة وحسن الفهم كان أوحد زمانه، ولست أشك أن هذا الشخص قد اجتمع له الأمران جميعا، فإن كان قد علم كل ما راسلته به، وأجابني عليه فليس في وقته أحد يدانيه في حكمته وعلمه، وتأمل الفيلسوف الاسكندر فأدار أصبعه السبابة على وجهه، ووضعها على أرنبة أنفه، وأسرع نحو الاسكندر وهو جالس على غير سرير ملكه فحياه بتحية الملوك، فأشار إليه الاسكندر بالجلوس، فجلس حيث أمره، فقال له الاسكندر: ما بالك حين نظرت إلي أدرت أصبعك حول وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك؟ قال الفيلسوف: تأملتك أيها الملك بنورية عقلي وصفاء مزاجي فتبينت فكرتك في، وتأملك لصورتي، وأنها قلما تجتمع مع الحكمة، فإذا كان ذلك كان صاحبها أوحد أهل زمانه، فأدرت أصبعي مصدقا لما فكرت فيه، كما أنه ليس في الوجه إلا أنف واحد فكذلك ليس في دار مملكة الهند غيري في حكمتي وعلمي، فقال له الاسكندر: اخبرني ما بالك حين أرسلت إليك قدحا مملوءا

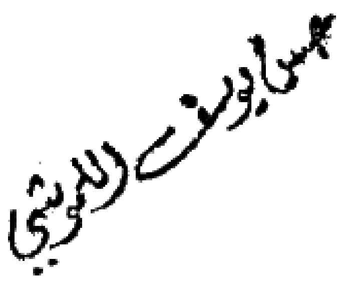
سمنا غرزت فيه إبرا ورددته إلي؟ قال الفيلسوف: علمت أيها الملك أنك تقول: إن قلبي قد امتلأ، وعلمي قد انتهى كامتلاء هذا الإناء من السمن، فليس لأحد من الحكماء فيه مستزاد، فأخبرت الملك أن علمي سيزيد في علمك، ويدخل فيه دخول هذه الإبر في هذا الإناء، قال: فأخبرني ما بالك حين عملت من الإبر كرة وأرسلتها إليك صيرتها مرآة ورددتها إلي مصقولة، قال: قد علمت أيها الملك أنك تريد أن قلبك قد قسا من سفك الدماء والشغل بسياسة هذا العالم كقسوة هذه الكرة، فلا يقبل العلم، ولا يرغب في فهم الغايات في العلوم والحكمة، فأخبرتك مجيبا متمثلا بسبك الكرة والحيلة في أمرها بجعلي منها مرآة صقيلة تعكس الأجسام لحسن صفائها، قال له الاسكندر: صدقت، قد أجبتني عن مرادي، فأخبرني أيها الفيلسوف حين جعلت المرآة في الطست ورسبت في الماء: لِمَ جعلتها قدحا فوق الماء طافية ثم رددتها إلي؟ قال الفيلسوف: علمت أنك تريد بذلك أن الأيام قد انقضت وقصرت، والأجل قد قرب، ولا يدرك العلم الكثير في المهل القليل، فأجبت الملك متمثلا أني سأعمل الحيلة في إيراد العلم الكثير في المهل القليل إلى قلبه وتقريبه من فهمه، كاحتيالي للمرآة من بعد كونها راسبة في الماء حتى جعلتها طافية عليه، قال الاسكندر: صدقت، فأخبرني ما بالك حين ملأت الإناء ترابا رددته إلي ولم تحدث فيه شيئا كفعلك فيما سلف؟ قال: علمت أنك تقول: ثم الموت وأنه لا بد منه، ثم لحوق هذا الجسم بهذا العنصر البارد اليابس الثقيل الذي هو الأرض، ومفارقة النفس الناطقة الصافية الشريفة اللطيفة لهذا الجسد المرئي، قال له الاسكندر: صدقت، ولأحسنن إلى الهند من أجلك، وأمر له بجوائز كثيرة، فقال له الفيلسوف: لو أحببت المال لما أردت العلم، ولست

أدخل على علمي ما يضاده وينافيه، واعلم أيها الملك أن الحكمة سبيل إلى العلو وسلم إليه، وأن العدل ميزان البارئ عز وجل، فاملك أيها الملك قلوب رعيتك بإحسانك إليهم، وإنصافك لهم، وعدلك فيهم، فهي خزانة سلطانك، والملك السعيد من دامت له رئاسة أيامه، والملك الشقي من انقطعت عنه.

انظروا إلى هذه الكلمات الخالدة التي ينبغي أن يكتبها حكام العرب اليوم بمداد من الذهب، وأن يسيروا عليها، إن أرادوا أن تُخلّد أسماؤهم في التاريخ.

قال المسعودي رحمه الله: وسمح الاسكندر للفيلسوف بالرحيل ؛ لأنه رفض المقام معه فلحق بأرضه، فالوطن والعلم أغلى من المال والملك عند ذوي الحكمة والعقول النيرة.

ويقال: أن القدح امتحنه الاسكندر حين ملأه بالماء وأورد عليه الناس فلم ينقص شربهم منه شيئا، وكان معمولا بضرب من خواص الهند، وقد قيل: إنه كان لآدم أبي البشر عليه السلام بأرض سرنديب من بلاد الهند، مبارك له فيه فورِثَ عنه، وتداولته الملوك إلى أن انتهى إلى (كند) هذا الملك العظيم سلطانه، وما كان عليه من الحكمة، وقد قيل غير ذلك، والله أعلم.



الملك والغراب

كان أحد ملوك الفرس ويدعى بهرام بن بهرام مقبلا في أول سنوات ملكه على اللهو واللذات والصيد والنزهة، ولا يعير ملكه اهتماما، ولا ينظر في أمور رعيته مما جعل من خاصته، ووزرائه، وحاشيته يستولون على ممتلكات الرعية من ضياع وبساتين وأملاك، وكان يقتطع لهم من ممتلكات الرعية كل ما يطلبونه منه عاملا على إرضائهم دون الاهتمام بمشاعر وأحاسيس شعبه أو الاكتراث بما سيؤول إليه أمر البلاد من بعد، وكان الملك (بهرام) قد فوض تدبير أمر الدولة لوزرائه يعملون ما يشاءون في المملكة، فهو مشغول بلهوه وملذاته فقط غير عابئ بأمور الدولة أو إصلاحها، فخربت البلاد، وقلت العمارة، ونقصت الأموال، وضعف الجند بسبب قلة الخراج، وعدم اكتراث من استولى على الضياع إلا بقطف ثمارها، وشيئا فشيئا حتى صارت الضياع خرابا.

وفي أحد الأيام بينما كان الملك كعادته في أحد متنزهاته وصيده، فجنه الليل وهو يسير نحو المدائن، وكانت ليلة قمراء فدعا إليه أحد الحكماء لأمر خطر بباله، ويسأله بعض الأسئلة عن سيرة أسلافه، وعن الأيام الخوالي، وبينما هما يسيران إذ توسطا في مسيرهما خربات كانت من أمهات الضياع قد خربت في مملكته، ولا أنيس بها إلا البوم ؛ وإذا بـ بوم يصيح وآخر يجاوبه من بعض تلك الخربات، فقال الملك للحكيم: أترى أحدا من الناس يفهم منطق هذا الطير المصوت في هذا الليل الهادي؟ فرأى الحكيم أنها فرصة لمواجهة الملك بالحقيقة فقال:

أنا أيها الملك، فقال له: فما يقول هذا الطائر ؟، وما الذي يقول الآخر؟ قال الحكيم: هذا بوم ذكر يخاطب بومة ويقول لها: أمتعيني من نفسك حتى يخرج منا أولاد يسبحون الله، ويبقى لنا في هذا العالم عقب يكثرون ذكرنا والترحم علينا ؛ فأجابته البومة: إن الذي دعوتني إليه هو الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر في العاجل والآجل، إلا أنني اشترط عليك خصالا إن أنت أعطيتنيها أجبتك إلى ما دعوتني إليه، فقال لها البوم الذكر: وما تلك الخصال؟ قالت: أولها إن أنا أبحتك نفسي وصرت على ما إليه دعوتني تضمن لي أن تعطيني من خربات أمهات الضياع عشرين قرية مما خربت في أيام هذا الملك السعيد، فقال له الملك؟ فما الذي قال لها البوم الذكر؟ قال الحكيم: كان من قوله لها: إن دامت أيام هذا الملك السعيد أعطيتك مما يخرب من الضياع ألف قرية، فما تصنعين بها؟ قالت: في اجتماعنا ظهور النسل، وكثرة الولد، فنقطع كل واحد من أولادنا قرية من هذه الخربات، قال لها الذكر: هذا أسهل أمر سألتنيه، وأيسر أمر طلبته مني، وقدمتُ لك الوعد وأنا ملئ بذلك، فهاتي ما بعد ذلك.

فلما سمع الملك هذا الكلام من الحكيم راجع نفسه، واستيقظ من نومه، وفكر في حوار البوم والبومة، فنزل من ساعته، وترجل للناس، ثم خلا بالحكيم وقال له: أيها القيم بالدين، والناصح الحكيم، والمنبه للملك على ما أغفله من أمور ملكه، وأضاعه من أمر بلاده ورعيته، ما هذا الكلام الذي خاطبتني به؟ فقد حركت مني ما كان ساكنا، وأعلمتني بعلم كان عني غائبا، قال الحكيم: صادفت من الملك السعيد فرصة ليسعد البلاد والعباد، فجعلت الكلام مثلا وموقظا على لسان الطائر عندما طلب الملك مني جواب ما سأل، ثم قال له الملك: أيها الحكيم الناصح، اكشف لي عن هذا الغرض الذي إليه

رميت؟ والمعنى الذي له قصدت؟ ما المراد منه؟ قال الحكيم: أيها الملك السعيد، إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة، والقيام بطاعة لله تعالى، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل هو الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك، قال الملك: أوضح ماذا تقصد؟ قال الحكيم: نعم أيها الملك، إنك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها، فأقطعتها لحاشيتك وخدمك وبطانتك وغيرهم، فعمدوا إلى ما تعجل من غلاتها، واستعجلوا المنفعة، وتركوا العمارة، والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك، ووقع الظلم على الرعية فتركوا ضياعهم، ورحلوا عن ديارهم، وقلت العمارة، وخربت الضياع، وقلت الأموال، وهلكت الرعية، وطمع في ملكك الملوك والأمم الأخرى لعلمهم ما وصلت إليه البلاد من انهيار وضعف، فلما سمع الملك هذا الكلام من الحكيم أقام في موضعه ذلك ثلاثة أيام، وأحضر الوزراء والكتاب، وأرباب الدواوين، وأمر بانتزاع الضياع من أيدي الخاصة والحاشية وردها إلى أصحابها، فعمرت الأرض، وأخصبت البلاد، وبنيت العمارة، وكثرت الأموال، وقويت الجنود، وأقبل الملك يباشر الأمر بنفسه في كل وقت، وينظر في أمر خواصه وعوامه، فحسنت أيامه، وانتظم ملكه، حتى كانت تدعى أيامه أعيادا لما عم الناس من الخصب والخيرات، وما شملهم من العدل.

وهذا يذكرنا بعدل الخليفة عمر بن عبد العزيز وحسن سياسته وازدهار الدولة الإسلامية في عهده، فما أحوجنا اليوم إلى مثل هؤلاء العظماء، والبطانة الصالحة لحكامنا العرب.

حكمة شيخ تنقذ قومه

في زمن ملك الفرس (سابور) قويت دولة فارس واجتاحت جيوشه بلاد البحرين وفيها يومئذ بنو تميم وشيخها يومئذ (عمرو بن تميم) ويقال أنه بلغ من العمر وقتها ثلاثمائة سنة وكان يعلق على عمود البيت وسط قفة قد اتخذت له، وفرّ بنو تميم عندما علموا بقدوم جيش سابور، فأرادوا حمل شيخهم عمرو بن تميم فأبى عليهم، وأمرهم بتركه في ديارهم وقال: أنا هالك اليوم أوغدا، وما بقى لي فسحة من العمر، ولعل الله ينجيكم بي من صولة هذا الملك المسلط على العرب، فخلوا عنه، وتركوه على ما كان عليه، ولما وصلت خيل سابور الديار، فنظروا إلى أهلها وقد ارتحلوا، ونظروا إلى قفة معلقة في شجرة وبها شيخ يصيح بصوت ضعيف، فأخذوه وجاءوا به إلى سابور، فلما وضع بين يديه نظر إلى دلائل الهرم ومرور الأيام عليه ظاهرة، فقال له سابور: من أنت أيها الشيخ الفاني؟ قال: أنا عمرو بن تميم ابن مرة، وقد بلغت من العمر ما ترى، وقد هرب الناس منك لإسرافك في القتل، وشدة عقوبتك إياهم، أما أنا فآثرتُ الفناء على يديك ليبقى من مضى من قومي، ولعل الله ملك السموات والأرض يجري على يديك فرجهم، ويصرفك عن قتلهم، وأنا سائلك عن أمر إن أنت أذنت لي فيه، فقال له سابور: قل يُسمع منك: فقال له عمرو: ما الذي يحملك على قتل رعيتك ورجال العرب؟ فقال سابور: أقتلهم لما ارتكبوا من أخذ بلادي وأهل مملكتي، فقال عمرو: فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم، فلما بلغت وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة

لك، قال سابور: أقتلهم لأننا ملوك الفرس نجد في مخزون علمنا من أخبار أوائلنا أن العرب ستُدال لهم مملكة الفرس، وتكون لهم الغلبة على ملكنا، قال عمرو: هذا أمر تتحققه أم تظنه؟ قال: بل أتحققه ولا بد أن يكون ذلك، قال له عمرو: فإن كنت تعلم ذلك فلِمَ تسيء إلى العرب؟ والله لئن تبقِ على العرب جميعا وتحسن إليهم فيكافئوا قومك عندما تدان دولتكم لهم بإحسانك، وإن طالت بك المدة كافؤك عند مصير الملك إليهم، فيبقوا عليك وعلى قومك، وإن كان باطلا فلم تستعجل الإثم وتسفك دماء رعيتك؟ فقال سابور: الأمر صحيح، وهوكائن لكم، والرأي ما قلت، ولقد صدقت في القول، ونصحت في الخطاب، فنادى منادي سابور بأمان الناس، ورفع السيف، والكف عن قتلهم، ويقال أن عمراً بقى حيا بعد هذا الوقت ثمانين سنة والله أعلم.

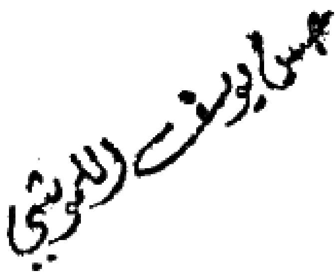
وهكذا نستخلص من ذلك أن الموعظة الحسنة، والحكمة السديدة من شيخ جليل قد تكون أفضل من استعمال القوة مهما بلغت سطوتها، وقديما يقال (الكلام الزين يندفع في الدين) و (عليكم بكباركم) لأن الإنسان كلما كبر في العمر يكون عادة أكثر حكمة.

سابور ملك الفرس أسير عند ملك الروم

قويت مملكة الفرس في عهد ملكها (سابور) ففتح العديد من مدن الشام، وقتل خلق كثير من الروم، ونظرا لما وصل إليه سابور من عظمة الملك وغرور بالسلطة تاقت نفسه يوما الدخول إلى مملكة الروم ليعرف أخبارهم وسيرهم بنفسه، فتنكر وسار إلى القسطنطينية فصادف وليمة لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام منهم، فدخل في جملتهم بين الناس، وجلس على بعض موائدهم، وقد كان قيصر أمر مصورا أتى عسكر سابور فصوره له، فلما جاء المصور إلى قيصر بالصورة أمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب والفضة، وصادف أن أتى من كان على المائدة التي عليها سابور بكأس، فنظر بعض الخدم إلى الصورة التي على الكأس وسابور مقابل له على المائدة، فعجب من اتفاق الصورتين، وتقارب الشكلين، فقام إلى الملك فأخبره، فأمر بإحضاره بين يديه، وسأله عن خبره، فأنكر سابور وقال أنا من عائلة سابور استحققت العقوبة لأمر كان مني، فدعاني ذلك إلى الدخول إلى أرضكم فرارا من سابور، فلم يقبل قيصر ذلك منه، وقدمه إلى السيف، فأقر سابور على نفسه، فجعله ملك الروم في جلد بقر وسار به غازيا مملكة الفرس واستولى على العديد من مدن العراق حتى وصل إلى مدينة جنديسابور وقد تحصن بها وجوه فارس، وقد صادف يوم عيد لهم في تلك الليلة التي أشرف فيها الروم على فتح المدينة، فأغفل الموكلون بحراسة سابور أمره، وأخذ الشراب منهم مأخذه، فانتهز سابور الفرصة، وكان بالقرب منه جماعة من

أسرى الفرس، فخاطبهم أن يحل بعضهم بعضا، وشجعهم وأمرهم أن يصبوا عليه زقاقا من الزيت كانت هناك، ففعلوا فلان عليه الجلد وتخلص منه، وأتى المدينة فخاطب حراسها فعرفوه ورفعوه بالحبال إليهم عبر أسوارها، ففتح أبواب خزائن السلاح، وخرج بجيشه، والروم قارون مطمئنون فوقع فيهم القتل وأسر سابور قيصر الروم فأبقى عليه حيا، وضم إليه من أفلت من القتل من رجاله، وأمر سابور قيصر الروم ورجاله بغرس شجر الزيتون، ولم يعهد بالعراق زيتونا قبل ذلك، وانصرف قيصر نحو الروم بعد أن استعمله سابور هو وجنده في غرس الزيتون بالعراق انتقاما لما فعله به عندما حبسه في جلد بقر .

وهكذا هي الأيام يوما لك ويوما عليك



بجمالها ملكت عرش مصر (كليوباترا)

كليوبترا هي ابنة بطليموس الثاني عشر، وكان بطليموس الأول أحد قادة الاسكندر المقدوني، وعندما مات الاسكندر تقاسم قواده الممالك التي استولى عليها الاسكندر وكانت مصر من نصيب بطليموس وكون فيها مملكة تدعى المملكة البطلمية تعاقب أحفاده على حكمها وكان آخرهم الملكة كليوبترا.

تولت كليوبترا الحكم كملكة على مصر سنة 51 ق م وعمرها 18 عاما، وقد وصفت بأنها كانت جميلة وساحرة، مما جعل الرجال يقعون في غرامها إعجابا بشخصيتها القوية، وذكائها ودهاءها، وبعد وفاة أبيها بطليموس الثاني عشر وقعت الحرب بينها وبين شقيقها الأصغر منها سنا حول المُلك، فاستنجدت بيوليوس قيصر ملك الروم الذي قَدِم إلى الإسكندرية، وكان يريد احتلالها، ولكن فضل الاستفادة من ثروات مصر دون قتال، وذلك من خلال تبعية حكامها إلى عرش الامبراطورية الرومانية، فأرسل إلى كليوبتر وشقيقها بطليموس الثالث عشر لحل مشكلة الحكم بينهما، وهنا استخدمت كليوبترا دهائها وجمالها كي تضمن وقوف قيصر إلى جانبها، فطلبت منه اللقاء به على انفراد، وعندما ظهرت له فجأة في أجمل حلة انبهر بجمالها وذكائها وثقافتها، ووقع في حبها مما جعله يقف إلى جانبها، وأجلسها على كرسي العرش بجانب أخيها الذي رفض تنصيب أخته كليوبترا معه على العرش، واعتبرها خيانة له من قيصر روما، ولكن القيصر فرض ذلك عليه بالقوة، ونشبت الحرب بين كليوبترا وشقيقها،

وكانت الغلبة لكليوبترا بمساعدة قيصر روما وأصبحت ملكة مصر بلا منازع بعد مقتل شقيقها، ولكن تحت الحماية الرومانية. ونظرا لحب يوليوس قيصر لكليوبترا أخضع جزيرة قبرص تحت حكمها وجعلها تابعة لمصر، واستقر يوليوس قيصر في الاسكندرية بعض الوقت، وتجوز من كليوبترا، وأنجبت منه ولدا سمته فرعون قيصر، وأطلق عليه الاسكندرانيون اسم التصغير (قيصرون).

وسافر يوليوس قيصر إلى روما، وعمل فيها احتفالا كبيرا بمناسبة انتصاراته في مصر وبعض الأماكن الأخرى، وعزم كليوبترا، ولكن وجود كليوبترا في روما لم يعجب بعض قادة الرومان ؛ ويرجع سبب ذلك إلى علاقة الحب والزواج الذي ربط كليوبترا بقيصر ؛ لذلك دُبرت حيلة للتخلص منه وقتله وتم اغتيال يوليوس قيصر.

بعد اغتيال قيصر في روما انقسمت المملكة بين أثنين من أعظم قواده، وهما اكتافيوس وانطونيوس فقرر اكتافيوس أن يضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية، لكن كان أمامه الكثير من العواقب، ومن أشدها ماركوس أنطونيوس «مارك أنتوني» الذي أراد أن ينفرد بحكم الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم فكرت كليوباترا أن تصبح زوجة لماركوس أنطونيوس الذي قد يحكم في يوم ما الإمبراطورية الرومانية. حيث جاء انطونيو إلي مصر وجاءت له كليوباترا خفية لخوفها من ثورات المصريين ضدها وكانت مختبئة في سجادة وخرجت منها أمام انطونيو كعروس البحر وهي في أبهى صورها ووقع انطونيو في حبها.

كان انطونيو متزوجا من اوكتافيا أخت أوكتافيوس(أغسطس) ويُمنع علي الرومان الزواج من غير رومانية وهنا ظهرت مشكله ارتباطه بكليوباترا، وأصبح حليفا لها بدل أن يضم مصر للإمبراطورية الرومانية،

وكان ذلك سببا في العداوة بين أكتافيوس، وأنطونيوس ؛ وذلك لأن أوكتافيا كانت أخت أكتافيوس، فطبيعي أن لا يرضى لأخته المهانة على يد مصرية.

ونتيجة لهذه العداوة بين القائدين تم تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى شرق وغرببم وكان الشرق بما فيه مصر من نصيب انطونيوس، وكان طبيعيا أن تصبح كليوباترا تحت سلطة السيد الجديد انطونيوس، فلتحاربه بسلاح الحب والجمال.

ولم تنتظر حتى يأتي إليها في الإسكندرية، ولكنها أبحرت على متن سفينة فرعونية ذهبية مترفة من الشواطئ المصرية، وكان أنطونيوس قد أرسل في طلبها عام 41 ق.م عندما وصل إلى مدينة أنطاكية، وذلك للتأكد من تأييدها له.

أُعجبت كليوبترا بأنطونيوس ليس فقط لشكله حيث كان وسيما (على حد قول المؤرخين) بل أيضا لذكائه لأن كل التوقعات في ذلك الوقت كانت تؤكد فوز انطونيوس، ووقع انطونيو في حب كليوبترا، ورجعت كليوبترا ملكة على مصر، ثم لحق بها انطونيو وقضى في ضيافتها فترة من الزمن وأنجبت منه تؤمين ولشدة حبه لها وسّع في مملكتها التي اصبحت تمتد من لبنان شرقا حتى برقة في ليبيا غربا هدية لمعشوقته الجميلة كليوبترا، ووصلت أخباره إلى روما، وقد كلفته علاقته الغرامية هذه فقدان حظوته في روما، وأغضبت من هناك، وخاصة اكتافيوس الذي كان انطونيو زوجا لأخته أكتافيا ؛ لذلك شن اكتافيوس حملة ضخمة ضد أنطونيو اتهمه فيها بالتفريط في الممتلكات الرومانية، وجوازه غير القانوني من كليوبترا، وكان اكتافيوس طامعا في حكم الامبراطورية الرومانية، فانتهى الأمر بنشوب حرب بينه وبين انطونيو.

وكانت معركة «أكتيوم» البحرية الفاصلة غربي اليونان عام 31 ق.م، وخسر أنطونيوس كثيرا من سفنه في محاولته كسر الحصار الذي ضُرب حوله بم وتسارعت الأحداث وعملت كليوباترا كل ما في وسعها لتفادي الكارثة بعد وصول أنباء الهزيمة إلى مصربم وقام أنطونيوس بمحاولة يائسة للتصدي لقوات أوكتافيانوس، الذي أصبح اسمه فيما بعد «أغسطس» إمبراطور روما الجديد، الذي وصلت قواته إلى مشارف الإسكندرية في صيف عام 30 ق.م بم وهزمت قواته جيش انطونيو، وعندما بلغ انطونيو نبأ كاذب بموت كليوباترا فضّل الموت منتحرا على الحياة.

استولى اكتافيوس على الاسكندرية، وعندما خسر انطونيو الحرب حاولت كليوبترا الهروب، ولكنها لم تقدر، ورأت أن ترسل إلى اكتافيوس «أعسطس» لتهدئته ومهادنته والعفو عنها، ولكن أكتافيوس يبدو أنه يختلف عن سابقيه، واستفاد مما حصل لقيصر، وانطونيو بسبب لعنة كليوبترا، ولذلك قرر القبض عليها والذهاب بها إلى روما ثم قتلها بعد ذلك ، وعلمت كليوبترا مراده فيها، وما حصل منه من قتل زوجها وجنودها، فطلبت نوعا من الحيات إذا رأت عضوا من الإنسان تقفز أذرعا كثيرة كالرمح وتضع فيه سمها، فيموت الإنسان فجأة، ولما علمت كليوبترا اليوم الذي سيدخل فيه أكتافيوس «أغسطس» قصرها أمرت إحدى جواريها ومن أحبت موتها قبلها، وأن لا يلحقها العذاب بعدها فسمتها في إنائها أي الإناء الذي وضعت فيه كليوبترا الحية، فماتت من فورها، ثم جلست كليوبترا الملكة على سرير ملكها، ووضعت تاجها على رأسها، وعليها ثيابها وزينة ملكها، وجعلت أنواع الرياحين والزهر والفاكهة والطيب وما يجتمع بمصر من عجائب الرياحين وغيرها مبسوطة في مجلسها، وأمام سريرها،

ثم فرقت خدمها من حولها، وبقيت لوحدها، فأدخلت يدها في الإناء الزجاجي الذي كانت فيه الحية، وقربت يدها منها فوضعت الحية سمها فيها، فماتت من فورها، وانسابت الحية وخرجت من الإناء ولم تجد جحرا تختبئ فيه لإتقان المجلس بالرخام والمرمر، فدخلت في تلك الرياحين، ودخل أغسطس حتى انتهى إلى المجلس ؛ فنظر إلى كليوبترا وهي جالسة والتاج على رأسها، فلم يشك في أنها تنطق، فدنا منها فتبين له أنها ميتة، وأعجب بتلك الرياحين، فمد يده إلى كل نوع منها يلمسه ويتشممه، ويعجب خواص من كان معه، ولم يدر سبب موتها، وهو يتأسف على ما فاته منها، فبينما هو كذلك من تناول الرياحين وشمها إذ قفزت عليه تلك الحية فرمته بسمها، فيبس شقه الأيمن من ساعته، وذهب بصره الأيمن وسمعه، فتعجب من فعلها وقتلها لنفسها، وإثارها للموت على الحياة مع الذل، ويقال: إنه أقام يوما بعد ما أفرغت الحية فيه سمها ثم مات، ولولا أن الحية كانت قد أفرغت سمها على الجارية ثم على كليوبترا لكان أغسطس أو أكتافيوس قد هلك من ساعته ولم تمهله هذه المدة .

وهكذا هي المرأة الحرة تؤثر الموت على حياة الذل والمهانة، وتستخدم كل ما في وسعها من دهاء وحيلة لتنفيذ مآربها، وتحقيق مصالحها.

قصة منارة الإسكندرية

منارة الإسكندرية يقول عنها أكثر المصريون إن الذي بناها هو الاسكندر بن فليبس المقدوني، ويقال: أيضا إن الذي بنى مدينة روما هو الذي بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر ؛ لشهرته بالاستيلاء على الأكثر من ممالك العالم فشُهرت به ، والأرجح أن الذي بنى منارة الاسكندرية هو المعماري اليوناني سوسترانوس في عهد بطليموس الثاني عام 270 ق م، ومنارة الاسكندرية بُنيت لتكون برج مراقبة تحمي المدينة من السفن الغازية لها، حيث جعل الذي بناها في أعلاها تماثيل من النحاس، وفيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس يشير إليها ويدور معها أينما كانت، ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر، فإذا صار العدو منه على نحو من ليلة، ودنى وأصبح يُرى سُمِع لذلك التمثال صوت هائل يُسمع من ميلين أو ثلاثة، فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم، حتى يستعدوا للقائه، ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف صوت الساعة التي قبلها، وصوته مُطرب.

وعندما توسعت الدولة الإسلامية، وأصبح لها أسطول بحري ينافس أسطول الدولة الرومانية، واستطاع أن يلحق بها الهزائم، كما انتصرت جيوش الإسلام عليها برا من قبل، أرادت روما أن تحقق انتصارا ولو رمزيا على المسلمين، يقول (المسعودي في كتابه مروج

الذهب ج1 : فأرسل ملك الروم في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك خادما من خواصه ذا رأي ودهاء سراً، ومعه آلة حسنة ودخل على الوليد بن عبد الملك طالبا الأمان، وأخبره أنه من خواص الملك، وأنه أراد قتله بسبب وشاية بلغته لم يكن لها أصل، فخاف على نفسه وفر هاربا يطلب الأمان في ارض المسلمين، وأنه يرغب في دخول الإسلام، فأسلم على يد الوليد، وتقرب من قلبه، وكانت معه كتب استخرج بها بعض النفائس المدفونة بأرض الشام من كنوز الرومان، فلما رأى الوليد تلك الكنوز والجواهر شرهت نفسه، وزاد طمعه، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين إن ههنا أموالا وجواهر، ودفائن للملوك، فسأله الوليد عن الخبر، فقال: تحت منارة الاسكندرية أموال الأرض، وذلك أن الاسكندر احتوى على الأموال والجواهر التي كانت لشداد بن عاد، وملوك العرب بمصر والشام، فبنى لها الأبراج تحت الأرض، وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب وأودع تحتها تلك الذخائر، وبنى فوق ذلك هذه المنارة، وكان طولها في الهواء ألف ذراع، أي ما يعادل حوالي 120 مترا، والمرآة على علوها، والتماثيل جلوس حولها، فإذا نظروا إلى العدو في البحر في ضوء تلك المرآة أصدروا صوتا يحذر الناس بقرب العدو منهم، فلا يكون للعدو عليم سبيل، فبعث الوليد مع ذلك الخادم جيشا وأناسا من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها، وأزيلت المرآة ؛ فضج الناس من أهل الاسكندرية وغيرها، وعلموا أنها مكيدة وحيلة في أمرها، ولما خاف الخادم اكتشاف أمره، وأن الخبر سوف يصل إلى الوليد فينتقم منه، وأنه قد بلغ الأمر الذي جاء من أجله، هرب في الليل في مركب كان قد أعده قاصدا إلى بلاده روما.

وهكذا هو الطمع لا يصل بصاحبه إلى خير أبدا، ونرى في

تاريخنا الحاضر بعض حكامنا العرب كيف استبد بهم الطمع، وكيف كانت نهايتهم بم ولنا في التاريخ عبرة، وموعظة.

وتعتبر منارة الإسكندرية من عجائب الدنيا السبع، وهي آخر ما بُني من عجائب الدنيا، وآخر مت أهدم أيضا، طبعا باستثناء أهرامات الجيزة التي ستبقى عجيبة العجائب في الماضي والحاضر والمستقبل.

ويقال: إن للمنارة فنارا كان يرى من على بعد 7 سبعة أميال في البحر لإرشاد السفن، وقد اخُتلف في كيفية توصيل الوقود إليه سواءٌ كان من الحطب أم غيره لعلو المنارة على الأرض، أما المرآة التي كانت في أعلى المنارة فهي تتيح رؤية السفن القادمة قبل أن تتمكن العين المجردة من رصدها.

ومنارة الإسكندرية تعرضت للعديد من الزلازل على مر التاريخ، وقد صمدت بفضل قوة بنائها، ولكن الزلزالين المدمرين اللذين وقعا في عامي 1303 م و 1323م دمرا منارة الإسكندرية، وفي عام 1480م اختفت المنارة كليا باستخدام السلطان (قايتباي) الأحجار المتناثرة في بناء قلعته المعروفة باسمه.

كسرى يطلب الزواج من أخت النعمان بن المنذر

النعمان بن المنذر أحد ملوك العرب في الجاهلية، وكان ملكا على الحيرة، ونظرا لقربها من بلاد فارس ؛ لذلك تخضع مملكته لهيمنة الفرس كغيرها من ممالك العراق وبعض القبائل في أرض الجزيرة العربية، وكعادة الملوك وطغيانهم فإنهم لا يتورعون عن القتل لأتفه الأسباب أحيانا، ولإنصافهم كانوا أيضا يوزعون العطايا والهبات لمن يأتيهم مادحا بشعر أو نثر، وقصة النعمان أنه قتل يوما رجلا يقال له (عدي بن زيد العبادي)، وكان عدي هذا يكتب لكسرى ملك الفرس بالعربية، ويترجم له إذا وفد عليه زعماء العرب، فلما قُتل عدي كلف كسرى (زيدا) ابنه كاتبا ومترجما مكان أبيه، وكعادة الحاشية تحاول أن تتقرب من الملوك بشتى الوسائل، فذُكر لملك الفرس الذي يدعى (ابرويز) يوما جمال نساء آل المنذر، وبالغوا في وصفهن حتى اشتاق الملك إليهن، فكتب إلى النعمان يأمره أن يبعث إليه بأخته، فلما قرأ النعمان كتاب كسرى قال للرسول: وهو (زيد بن عادي) يا زيد، أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات؟ فقال زيد: إنما أراد الملك إكرامك - أبيت اللعن ! - بصهرك، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله، وسأحسن ذلك عنده، وسأقدم له العذر عنك بما يقبله، فقال له النعمان: أفعل، فقد تعرف ما على العرب في تزويج العجم من الفضاحة والشناعة، فلما انصرف زيد إلى كسرى أخبره أن النعمان لا يريد تزويجه من أخته، وقلب إليه تفسير قوله في مها السواد على أقبح الوجوه، وأوغل صدره عليه ؛ لأنه وجدها فرصة

للانتقام من النعمان لقتله أبيه، فسأل كسرى زيدا وقال: ما المها؟ فقال: البقر، فغضب عليه، وقال: رُبَ عبدٍ قد صار في الطغيان إلى أكثر من هذا، فلما بلغت كلمته إلى النعمان تخوف منه، فخرج هاربا حتى صار إلى طئ لصهر كا له فيهم، ثم رحل إلى بني رواحة بن ربيعة بن مازن فقالوا له أقم معنا فإنا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا، فجزاهم الخير، ورحل عنهم يريد كسرى ليرى فيه رأيه ؛ لأنه يعلم سطوة كسرى ولا مفر له منه إلا بتسليم نفسه والذهاب إليه. وأقبل النعمان حتى أتى المدائن، فصف له كسرى ثمانية ألاف جارية من أجمل نساء الفرس، وصفهن صفين، فلما صار النعمان بينهن قلن له: أما فينا للملك غنى عن بقر السواد !؟ فعلم النعمان أنه غير ناج من بطش كسرى، ولقيه صاحبه زيد بن عدي فقال له النعمان: أنت فعلت هذا بي ! لئن تخلصت لأسقينك بكأس أبيك، فقال له زيد: أمضِ نعيم (تصغير للنعمان) (لقد وضعت لك شدا لا يقطعه المهر الأرنُ) وأمر كسرى بالنعمان فحبس، ثم أمر به فرمي تحت أرجل الفيلة حتى مات.

وكما يقول المثل العامي عندنا (كل سيد عنه سيده) فكم من طغاة كانوا يحسبون أنهم ربما لا يموتون أبدا، أو أنه لن يقدر عليهم أحد، ولكن الله قادر على الانتقام من كل جبار ظالم، وأضيف مثلا عاميا آخر يقول: (اللي يدير الرجال في ظهره لا يأتيه النوم) فلا تغرنك قوتك أو سلطانك اليوم فمن يدري ربما يأتي يوم لن تجد من ذلك شيئا، وقد يكون أحقر الرجال أو أضعفهم في نظرك قادر على الانتقام منك يوما ما، فاعمل خيرا تحصد خيرا.

جذيمه يقتل زوج أخته

كان جذيمة بن مالك الأبرش ملكا على قُضاعة، فقال لندمائه يوما: لقد ذُكر لي عن غلام من لخم في أخواله من أياد، له ظرف وأدب فلو بعثت إليه فوليته كأسي، وخدمة مجلسي لكان الرأي، فقال جلساؤه: الرأي ما رأى الملك، فبعث جذيمة إليه فلما قدم عليه الغلام قال له جذيمة: من أنت؟ قال: أنا عادي بن نصر بن ربيعة، فولاه مجلسه، وكانت للملك جذيمة أخت اسمها رقاش، وحدث أن عشقت رقاش الغلام الذي يدعى (عدي) خادم الملك، وصارحته بحبها، ولكن كانت رقاش تعرف أنه لا سبيل للزواج من عدي بالطرائق الطبيعية، وأن أخاها جذيمة لن يوافق على ذلك أبدا إلا باستخدام الحيلة والدهاء الذي تتميز به المرأة عادة، فـ (عادي) هو عبارة عن خادم الملك، ولن يرضى الملك جذيمة بتزويج أخته من أحد خدمه، وجاءت الفكرة من رقاش فقالت يا عادي، إذا سقيت القوم خمرا فامزج لهم أي خلّطه بالماء حتى يكون خفيفا فلا يسكرون منه، وأعطي للملك شرابا مركزا، وأكثر له حتى يسكر جيدا، فإذا رأيت أن الخمر أخذت منه فاخطبني منه فإنه يزوجك، ثم اشهد عليه القوم إن فعل، ونفذ الغلام عادي الخطة كما رسمتها رقاش، وخطبها، وزوجها له الملك وهو في حالة سكر لا يعي ما يقول، فأشهد عادي عليه الحاضرين، وانصرف عدي إليها فأنبأها، فقالت: عرّس بأهلك، ففعل، فلما أصبح من الغد وإذا تفوح منه رائحة العطر والطيب، وهو في أحسن حال باعتباره عريسا، فسأله جذيمة: ما هذه الآثار يا عادي؟ قال:

آثار العرس، قال: وأي عرس؟ قال عرس رقاش، فصاح جذيمة، وأكب على الأرض، ولما رأى عادي ذلك أطلق ساقيه للريح وهرب، وأسرع جذيمة في طلبه، ثم قتله، وكان من ثمرة ذلك الزواج أن حملت رقاش من عادي، وولدت غلاما فسمته عمرا، حتى إذا ترعرع ألبسته كسوة فاخرة وعطرته، ثم زارت به خاله الملك جذيمة، فأعجب به، ووقعت محبته في قلبه، وأصبح يلاعبه، ويحمله معه في سفره أينما ذهب حتى حدث أمر غريب لذلك الغلام عمرو ! إذ اختفى فجأة، يقال: إن الجن خطفته، وبحث عنه خاله كثيرا في الآفاق فلم يعثر له على أثر، ولم يسمع له بخبر، فكف عن البحث، وفي أحد الأيام أقبل رجلان يقال لأحدهما: مالك، والآخر عقيل، وهما يريدان الملك بهدية، فنزلا على ماء ومعهما خادمة يقال لها أم عمرو، فلما تعبا من السفر أرادا الراحة لتناول طعام الغداء، فنصبت لهما قدرا، وأصلحت لهما طعاما، فبينما هما يأكلان إذ أقبل رجل أغبر أشعث الرأس وقد طالت أظفاره، وساءت حاله، حتى جلس أمامهما، ومد يده، فناولته الخادمة طعاما، فأكل فلم يغن عنه شيئا، فمد يده مرة أخرى، فقالت الخادمة (إن تعط العبد كراعا طلب ذراعا)، فأرسلتها مثلا، ثم سأل الرجلان الرجل: من أنت؟ فقال إن تنكراني فلن تنكرا نسبي، أنا عمرو بن عادي، فقاما إليه، وأشبعاه أكلا، وغسلا رأسه، وقلما أظفاره، وقصرا من شعره، وألبساه من أحسن ثيابهما، وقالا: ما كنا لنهدي إلى الملك هدية هي أنفس عنده، ولا أحسن عطاءً له من ابن أخته، ثم ذهبا به حتى إذا وقفا على باب الملك بشراه بعثورهما على بن أخته، ففرح به كثيرا وصرفه إلى أمه، وقال لهما: حكمكما، أي أطلبا ما شئتما، فقالا: طلبنا منادمتك ما حييت وحيينا، قال ذلك لكما، وأصبحا من ندمائه.

وفي أحد الأيام بعد ما خرج عمرو من الحمام ألبسته أمه من نفائس ثياب الملوك، وجعلت في عنقه طوقا من ذهب لنذر كان عليها، ثم أمرته بزيارة خاله، فلما رأى خاله جذيمة لحيته والطوق في عنقه قال: (شب عمرو عن الطوق) فذهبت مثلا، وأقام عمرو مع خاله جذيمة يساعده في شؤون ملكه.

وهكذا نستخلص مجموعة من العبر من هذه الحكاية من بينها ينبغي علينا ألا نحقّر أي أحد أبدا، فكما نعلم هو مَنهيٌّ عنه شرعا وبنص القرآن الكريم إذ يقول سبحانه وتعالى في سورة الحجرات الآية (11) (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم)، ومن يدري ربما يكون من نحقره هو أفضل منزلة منا .

كذلك عجبا للملوك فهم يتزوجون ممن يشاؤون خدما أو موالي أو من عامة الناس أو حتى من العجم، ولكنهم يحّرمون ذلك على نسائهم كما لاحظنا في قصة جذيمة هذه، ومع غيره كثير كما سيمر بنا.

وأخيرا آه من النساء ومكرهن إن أردن فعل شيء لا يفكرن في العواقب أبدا، ويفكرن بعواطفهن أكثر من عقولهن، مع عدم التعميم طبعا .

بين جذيمة والزباء

الزباء هي ابنة عمرو بن ظرب بن حسان وقد اختلف المؤرخون حولها هل هي نفسها الملكة زنوبيا ملكة تدمر أو أنهما شخصيتان مختلفتان؟ ولكن بعد اطلاع وتدقيق وجدتُ بحثا لأحد المؤرخين يبين فيه بالأدلة والبراهين أنهما شخصيتان مختلفتان، فزنوبيا ليست الزباء، ولكل واحدة منهما قصة تختلف عن الأخرى ، والقصة الموالية نتناول فيها حكاية الزباء مع جذيمة الأبرش:

كانت الزباء جميلة، وكان اسمها فارعة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها وإذا نشرته جللها فسُميت الزباء، وما زالت بكرا لم تتزوج من قبل، وكان جذيمة بن مالك ملكا على الحيرة وما حولها من السواد، وكان به برص، وكان شديد السلطان يخافه القريب ويهابه البعيد فتهيبت العرب أن يقولوا الأبرص فقالوا: الأبرش، ثم إن الأبرش غزا مملكة أبيها وتسمى (الحُضر) فقتله جذيمة وطرد الزباء إلى الشام فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة، قال ابن الكلبي: ولم يكن في عصرها أجمل منها، فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها وملكتها، فأزالت جذيمة الأبرش عنها، وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرق الفرات ومن غربه وجعلت بينهما نفقا تحت الفرات، وكانت إذا خافت الأعداء أوت إليه وتحصنت به، وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء، وكان بينها وبين جذيمة بعد

الحرب مهادنة، فحدث جذيمة نفسه بخطبتها، وطمع في الزواج منها، فكتب إليها راغبا في ذلك، فردت عليه: أنها موافقة، ومثلك من يُرغب فيه، فإن شئت فأشخص إلي، فجمع عند ذلك جذيمة أصحابه واستشارهم في الأمر، فأشاروا عليه بالمضي، وخالفهم قصير بن سعد في الأمر، وكان أحد أتباعه، وأمره ألا يفعل، خوفا عليه من غدرها بسبب العداوة القديمة بينهما، وأن يكتب إليها طالبا منها المجيء إليه، وقال له: إن كانت صادقة أقبلت إليك ؛ فعصى جذيمة رأي قصير، وسار إليها حتى كان بموضع يقال له (بقة) فجمع جذيمة أصحابه وشاورهم مرة أخرى، فأمروه بالذهاب إليها لما علموا من رغبته في ذلك، وقال قصير كلمته المشهورة حين رأى عزمه على ذلك: (لا يطاع لقصير أمر) فأرسلها مثلا، ولما وصل جذيمة إلى مدينتها، ونظر إلى الكتائب من دونها، فهاله ما رأى، فقال: يا قصير، ما الرأي؟ فقال قصير: إني تركت الرأي ببقة، فقال عند ذلك: أشر علي، فقال: إن لقيتك الكتائب فحيتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة، وإن هم أخذوا بجنبيك ووقف دونك جنودها، فالقوم يريدون سوءًا بك، فاركب العصا (وهي فرس سريعة كانت معه) فإنها لا تُدرك ولا تُسبق، فاستقبله القوم وأحاطوا به، فلم يركب العصا فعمد إليها قصير فركبها وانطلق، فالتفت جذيمة فإذا بالعصا عليها قصير أمام خيلهم حتى توارت به، فقال جذيمة: ما ضل من تجري به العصا، ثم أدخل على الزباء في قصرها وليس فيه إلا الجواري، وهي على سريرها وقد تجملت، ولبست أحسن ثيابها، فقالت للإماء: خذن بيد سيدكن، ثم دعت بنطع فأجلسته عليه فعرف الشر، ودعت له بطست من ذهب، وأمرت بقطع وريده وصار دمه يشخب في النطع، حتى إذا ضعفت قواه ضرب بيده فقطرت قطرة من دمه على دعامة

من دعائم الرخام، وقد قيل لها: إنه إذا وقع من دمه قطرة خارج الطست طُلب بدمه، فقالت: أي جذيمة، لا تضيعن من دمك شيئا، فإني إنما بعثت إليك لأنه بلغني أن دمك شفاء من الخبل، فقال جذيمة: وما يغنيك من دم أضاعه أهله !؟ ثم صفّت دمه وجعلته في إناء من الخزف.

ونجا قصير، وقص الخبر على عمرو بن عادي، وطلب منه الأخذ بثأر خاله من الزباء، فقال عمرو: وكيف لنا بها وهي أمنع من عقاب الجو؟ فقال: إني جادع أنفي وأذني، وسأحتال في قتلها ما استطعت، فقال عمرو: أنت أبصر وعليّ معونتك، فجدع قصير أنفه فقيل: (لأمر ما جدع قصير أنفه) ثم انطلق حتى دخل على الزباء، فقالت من أنت؟ فقال: أنا قصير، قالت: ما الذي جاء بك إلينا وبننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام لقد أتيت فيما يؤتى مثلك في مثله، فقد جئتك مستجيرا بك من عمرو بن عدي، فإنه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه بالمسير إليك، فجدع أنفي وأخذ مالي وحال بيني وبين عيالي وتهددني بالقتل، وإني خشيت على نفسي فهربت منه إليك مستجيرا بك، فقالت: أهلا وسهلا لك حق الجوار وذمة المستجير، وأمرت به فأنزل ووصلته وكسته وزادت في إكرامه وأقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه حتى حانت الفرصة وقال لها يوما: إن لي بالعراق مالا كثيرا وذخائر نفيسة مما يصلح للملوك، وإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيتني شيئا أتعلل به في التجارة وأجعله سببا في الوصول إلى مالي أتيتك بما قدرت عليه من ذلك، فأذنت له، وقالت: أي قصير، نقبل منزلتك ونصرفك في بضائعنا، فأعطته مالا للتجارة، فأتى بيت مال الحيرة حيث مملكة جذيمة التي صارت من بعده إلى عمرو بن عادي، وأخذ منه مالا كثيرا بأمر عمرو، وقدم العراق وبلاد كسرى فأطرفها

من طرائفه وزادها مالا كثيرا إلى مالها، وانصرف به إليها، فلما رأت ما جاء به إليها من مال فرحت بذلك وزادته مالا، وجاءها بأكثر من الأول، ثم أراد أن يعرف أسرارها فقال لها إنه ليس من ملك إلا ويتخذ في مدينته أنفاقا تكون له عونا، فقالت له: إني قد فعلت ذلك، قد نقبت نفقا وبنيته من تحت سريري هذا حتى أخرج من تحت الفرات إلى سرير أختي رحيلة، ففرح بذلك قصير، وخزّنها في قلبه، ثم خرج من عندها كالعادة يريد التجارة، حتى أتى عمرا، واتفق معه على كيفية الانتقام من الزباء، فركب عمرو في ألفي رجل على ألف بعير في الصناديق حتى صار إليها، فتقدم قصير وسبق الأبعرة فقال لها: اصعدي حائط مدينتك، وانظري إلى مالك الذي جئت به من تجارتك، وتقدمي إلى بوابك وآمريه ألا يتعرض لشيء من أموالنا، فإني جئت بمال صامت، وكانت الزباء قد أمِنت قصيرا فلم تكن تخافه أو تشك فيه، وصعدت وفعلت ما أمرها، فلما نظرت إلى ثقل مشي الجمال قالت:

ما الجمال مشيها وئيدا   أجندلا يحملن أم حديدا ؟

أم صرفانا بارا شديدا   أم الرجال جُثّما قعودا؟

ودخلت الإبل المدينة، حتى إذا بقى آخرها جملا نفد صبر البواب، فطعن بمنخسة كانت في يده خاصرة رجل، فقال الرجل متألما: أي، فصاح البواب إن في الصناديق لشرا، وخرج الرجال من الصناديق ضربا بأسيافهم، فلما رأت الزباء ذلك خرجت هاربة إلى نفقها الذي أعدته، فأبصرت قصيرا عنده مصلتا سيفه، فانصرفت راجعة، وتلقاها عمرو بن عادي فضربها، وقال بعضهم: مصت خاتمها وكان فيه سم، وقالت: (بيدي لا بيد عمر).

وماتت الزباء بيدها، واستطاع قصير خداعها رغم حرص المرأة

فراسة العرب

ومكرها، ولكن أحيانا مكر الرجال أشد.

ورد في أخبار العرب أن نزار بن معد كان له أربعة أولاد وهم إياد، وانمار، وربيعة، ومضر، فلما حضرت نزاراً الوفاة دعا بنيه ودعا بجارية شمطاء، فقال لإياد: هذه الجارية وما أشبهها من مالي فهي لك، ثم أخذ بيد مضر فأدخله قبة له حمراء من أدم (أي من جلد) ثم قال: هذه القبة وما أشبهها من مالي فهي لك، ثم أخذ بيد ربيعة وقال له: هذا الفرس الأدهم والخباء الأسود وما أشبههما من مالي فهو لك، ثم أخذ بيد أنمار وقال له: هذه البدرة (ورد في مختار القاموس أن البدرة عشرة آلاف درهم) والمجلس وما أشبههما من مالي فهي لك، فإن أشكلت عليكم هذه القسمة فأتوا الأفعى بن الأفعى الجرهمي، وكان ملكا على نجران حتى يقسم بينكم وتراضوا بقسمته، وعندما مات أبوهم نزار أشكلت القسمة على ولده فركبوا رواحلهم ثم قصدوا الأفعى، وفي طريقهم إذا هم بأثر بعير، فقال أياد: إن هذا البعير الذي ترون أثره أعور، فقال أنمار: وإنه لأبتر، وقال ربيعة: وإنه لأزور، وقال مضر: وإنه لشرود، وهم في الطريق التقى بهم رجل وسألهم: هل رأيتم بعيرا ضالا في طريقكم؟ قال أياد: أكان بعيرك أعور؟ قال: إنه لأعور، قال أنمار: أكان بعيرك أبتر؟ قال: فإنه لأبتر، قال ربيعة: أكان بعيرك أزور؟ قال: إنه لأزور، قال مضر: أكان بعيرك شرودا، قال: إنه لشرود، ثم قال لهم: فأين بعيري؟ دلوني عليه، قالوا، والله ما أحسسنا لك بعيرا ولا رأيناه، قال: أنتم أصحاب

بعيري وما أخطأتم من نعته شيئا، قالوا: ما رأينا لك بعيرا، فتبعهم حتى قدموا على الأفعى، فلما وقفوا بابه استأذنوا عليه، فإذن لهم، فدخلوا وصاح الرجل من وراء الباب: أيها الملك، هؤلاء أخذوا بعيري ثم حلفوا ما رأوه، فدعاه الأفعى فقال: ما تقول؟ فقال: أيها الملك هؤلاء ذهبوا ببعيري وهم أصحابه، فقال لهم الأفعى: ما تقولون؟ قالو: رأينا في سفرنا هذا إليك أثر بعير فقال أياد: إنه لأعور، قال وما يدريك أنه أعور؟ قال: رأيته مجتهدا في رعي الكلأ من شق قد أكله والشق الآخر واف كثير الالتفاف لم يمسه فعلمت إنه لأعور، وقال أنمار: رأيته يرمي ببعره مجتمعا ولو كان له ذيل لتفرق بعره فعلمت أنه أبتر، وقال ربيعة: رأيت أثر أحدى رجليه ثابتا والآخر فاسدا فعلمت أنه أزور، وقال مضر: رأيته يرعى الجهة من الأرض ثم يتعداها فيمر بالكلأ الكثيف الغض فلا يأكل منه حتى يأتي ما أرق منه فيرعى فيه فعلمت أنه شرود، فقال الأفعى: صدقوا، قد أصابوا أثر بعيرك وليسوا بأصحابه، التمس بعيرك عند غيرهم، ثم قال الأفعى للقوم: من أنتم؟ فأخبروه بحالهم، وانتسبوا إليه فرحب بهم ثم قال لهم: ما خطبكم؟ فقصوا عليه قصة أبيهم، قال الأفعى: وكيف تحتاجون إليّ، وأنتم على ما أرى؟ قالوا: أمرنا بذلك أبونا، ثم أمر بهم الأفعى، فأنزلوا، وأمر خادما له على دار الضيافة أن يحسن إليهم، ويكرم مثواهم ويلاطفهم بأفضل ما يقدر عليه، ثم أمر وصيفا له من بعض خدمه ظريفا أديبا، فقال له: انظر كل كلمة تخرج من أفواههم فأتيني بها، فلما نزلوا بيت الضيافة أتاهم الخادم بقرص من شهد فأكلوا وقالوا: ما راينا شهدا أعذب ولا أحسن ولا أشد حلاوة منه، فقال أياد: صدقتم لولا أن نحلهُ ألقاه في جمجمة رأس جبار، فوعاها الغلام، فلما حضر غذاؤهم وجئ بالشواء فأكلوا وقالوا: ما رأينا

شواءً أجود ولا أسمن منه، فقال أنمار: صدقتم لولا أنه غُذي بلبن كلبة، ثم جاءهم الشراب فلما شربوا قالوا: ما رأينا خمرا أرق ولا أعذب ولا أصفى ولا أطيب رائحة منه، فقال ربيعة: صدقتم لولا أن كرمها نبت على قبر، ثم قالوا: ما رأينا منزلا أكرم للضيف من هذا الملك، قال مضر: صدقتم لولا أنه لغير أبيه، فذهب الغلام إلى الأفعى فأخبره بما كان منهم، فدخل الأفعى على أمه فقال: أقسمت عليك إلا ما أخبرتني من أنا ومن أبي، فقالت يا بني وما دعاك إلى هذا؟ أنت أبن الأفعى الملك الأكبر، فلما ألح عليها قالت: يا بني إن أباك الأفعى الذي تدعى له كان شيخا قد أثقل، فخشيت أن يخرج هذا الملك عنا أهل البيت، وقد كان قدم إلينا شاب من أبناء الملوك فدعوته إلى نفسي، فحملت بك منه، ثم بعث إلى الخادم فقال: أخبرني عن الشهد الذي بعثت به إلى هؤلاء النفر ما خطبه، فقال: إنا أُخبرنا بنحل فبعثت إليه فأخبروني أن النحل قد وضعت عسلا في جمجمة، فأتوني بعسل لم أر مثله فقدمته إلى الضيوف لجودته، ثم بعث إلى صاحب مائدته فقال: ما هذه الشاة التي شويتها لهؤلاء القوم؟ فقال: إني بعثت إلى الراعي أن أبعث إليّ بأحسن شاة عندك، فبعث إليّ بها، وما سألته عنها، فبعث إلى الراعي أن أعلمني عن هذه الشاة، قال: إنها أول ما ولدت من غنمي فماتت أمها، وكانت كلبة لي قد وضعت فأرضعتها مع جراء الكلبة، فلم أجد في غنمي مثلها فبعثت بها إليك، ثم بعث إلى صاحب الشراب فقال: ما هذه الخمر التي سقيت لهؤلاء القوم؟ قال: من حبة كرم نبتت غرستها على قبر أبيك فليس في العرب مثل شرابها، فقال الأفعى: ما هؤلاء القوم؟ إن هم إلا شياطين، ثم أحضرهم، فقال: ما خطبكم؟ قصوا عليّ قصتكم، فقال أياد: إن أبي جعل لي خادما شمطاء وما أشبهها من مال، فقال

إن أباك ترك غنما فهي لك ورعاؤها مع الخادم، قال أنمار: إن أبي جعل لي بدرة ومجلسه وما أشبههما من مال، قال: لك ما ترك أبوك من الفضة والحرث والأرض، فقال ربيعة: إن أبي جعل لي فرسا أدهم وبيتا أسود وما أشبههما من ماله، قال: فإن أباك ترك خيلا دُهما وسلاحا فهي لك وما فيها من عبيد، ثم قال مضر: إن أبي جعل لي قبة حمراء من جلد وما أشبهها من ماله، فقال: إن أباك ترك إبلا حمرا فهي لك وما أشبهها من ماله وهو الذهب.

وهكذا هم العرب كانوا أصحاب فراسة وقد منحهم ذلك طبيعة العيش، والبيئة البدوية الصحراوية التي يعيشون فيها، وتنقلهم وترحالهم، وصفاء الطبيعة.

يدخل على العروس قبل زوجها

كان (عملوق) ملك طسم ملكا ظالما، لا ينهاه شيء عن هواه، وكانت بلاده أفضل البلاد، وأكثرها خيرا، فيها من صنوف الشجر والأعناب، والحدائق الملتفة، والقصور المصطفة، ولكن رغم ذلك فقد انتهك الحرمة، ولم يحمد النعمة، فتعدى على قبيلة (جديس) وأذل أهلها وكان سبب ذلك أن امرأة من جديس يقال لها (هُزيلة بنت مازن) أتت مع زوج لها قد فارقها، ويريد أخذ ولده منها فأبت عليه، فشكته إلى الملك عملوق ليحكم بينهما، فقالت: أيها الملك، هذا الذي حملته تسعا، ووضعته دفعا، وأرضعته شفعا، ولم أنل منه نفعا، حتى إذا تمت أوصاله، واستوفت خصاله، أراد أن يأخذه مني قسرا، ويسلبنيه قهرا، ويتركني منه صفرا، (انظروا إلى بلاغة هذه المرأة العربية لا أظن أن هناك مثلها اليوم) ثم قال زوجها: قد أخذت المهر كاملا، ولم أنل منه نائلا، فافعل ما كنت فاعلا، فأمر الملك أن يؤخذ الولد منهما ويجعله في غلمانه، فقالت (هُزيلة) في ذلك شعرا :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا فأبرم حكما في هُزيلة ظالما

لعمري لقد حكمت لا متورعا ولا فهما عند الحكومة عالما

ندمت فلم أقدر على متزحزح وأصبح زوجي حائر الرأي نادما

فبلغ الملك عملوق شعر هُزيلة، فغضب، وأمر ألا تتزوج امرأة من قبيلة جديس فتزف إلى زوجها حتى تُحمل إليه فيدخل بها قبل زوجها، فلقت قبيلة جديس من ذلك ذلا طويلا، ولم تزل تلك حالهم

حتى تزوجت امرأة يقال لها (الشموس) فلما كانت ليلة دخلتها على زوجها انطلق بها إلى عملوق ليطأها كعادته قبل زوجها، فلما دخلت الشموس على عملوق ووطئها، وخلى سبيلها خرجت على قومها في دمائها شاقة ثيابها وهي تقول: لا أحد أذل من جديس ! أهكذا يفعل بالعروس ؟

وأبت أن تمضي إلى زوجها ، وقالت شعرا تحرّض فيه قومها جديس على عملوق، تقول فيه :

أيصلح ما يؤتى على فتياتكمو   أنتم رجال فيكم عدد الرمل
أيصلح تمشي في الدماء بناتكم   صبيحة زفت في النساء على البعل
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه   فكونوا نساء لا تغضبوا من الكحل
ودونكم طيب العروس ؛ فإنما   خلفتم لأثواب العروس وللغسل
فقبحا وشيكا للذي ليس دافعا   ويختال يمشي بيننا مشية الفحل
فلو أننا كنا الرجال وكنتم   نساء لكنا لا نقر على الذل

فلما سمعت جديس بذلك وغيره من قولها، اجتمعت غضبا لذلك، فقال لهم الأسود بن غفار وكان فيهم سيدا مطاعا: يا جديس، أطيعوني فيما آمركم به، وأدعوكم إليه ففي ذلك عز الدهر، وذهاب الذل، قالوا: وما ذلك؟ قال: قد علمتم أن عملوقا وقومه ليس بأعز منكم، ولكن مُلك عليكم وعليهم، وهو الذي جعلنا نطيعه، ولولا ذلك ما كان له علينا من فضل، ولو امتنعنا منه لكان لنا النصف، فقالوا: لقد قبلنا قولك، ولكن القوم أكثر منا عددا وعدة، فنخاف إن ظفروا بنا ألا يرحمونا، فقال: والله يا جديس لتطيعنني فيما آمركم به وأدعوكم إليه أو لأتكئن على سيفي هذا فأقتل به نفسي، قالوا: فإن نطعك فيما عزمت عليه، قال: إني صانع لعملوق وقومه طعاما،

وداعيهم إليه، فإذا جاءوا إليه وجلسوا إلى الطعام نهضنا إليهم بسيوفنا، فانفردت أنا بالملك، وينفرد كل رجل منكم برجل منهم، قالوا فافعل ما بدا لك، واجتمع رأيهم عليه.

ثم إن الأسود صنع طعاما كثيرا، وأمر قومه بدفن سيوفهم في الرمل حيث أعدوا الطعام، ثم دعا الأسود بعملوق الطسمي ومن معه من رؤساء طسم، فأسرعوا إجابة دعوة الأسود، فلما جلسوا على الطعام وثب رجال جديس على عملوق وأصحابه فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم، ومضوا إلى ديار طسم فانتهبوها.

وهرب أحد رجال عملوق ويقال له رباح بن مرة فأتى إلى حسان بن تبع الحميري ملك اليمن فاستغاث به، وقال له أنا رباح بن مرة الطسمي دعتنا جديس إلى وليمة فغدروا بنا، فدونك أبيت اللعن ! قوما قطعوا أرحامنا وسفكوا دماءنا، فوعده الملك حسان بالنصرة، ثم نادى في حمير بالمسير، وأعلمهم بما فُعل بطسم، فقالوا: الأمر أمرك أيها الملك فأمرنا بما أحببت، فامرهم بالمسير، فساروا وسار بهم رباح حتى إذا صاروا على بعد ثلاثة أيام من جديس قال رباح للملك حسان: أبيت اللعن إن لي أختا متزوجة في جديس ليس في الأرض أبصر منها ؛ إنها لتبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليال، وأنا أخاف أن تنذر القوم بك، فأرى أن تأمر كل واحد من أصحابك ان يقتلع شجرة من الأرض فيجعلها أمامه ثم يسير، فأمرهم حسان بذلك ففعلوا، وكان اسم أخت رباح (يمامة) بنت مرة، ونظرت يمامة فرأت شيئا غريبا فقالت: يا جديس، لقد سارت إليكم الشجر، قالوا لها: وما ذاك؟ قالت: أرى أشجارا تسير وراءها شيء، وإني لأرى رجلا من وراء شجرة فكذبوها، ولم يستعدوا للحرب.

وأقبل الملك حسان برجاله مجهزا جيشه، وأتى جديس مصبحا فاستباح أهلها قتلا وسبى نساءهم وصبيانهم، ودعا حسان اليمامة بنت مرة، وكانت امرأة زرقاء ؛ لذلك تدعى (زرقاء اليمامة) فأمر بنزع عينيها فإذا بداخلها عروق سود، فسألها عن ذلك، فقالت: إن حجرا أسود اسمه (الإثمد) كنت اكتحل به فعلق إلى بصري، وكانت هي أول من اكتحل به، فاتخذوه بعد ذلك كحلا.

وهكذا لكل ظالم نهاية، وقد تكون نهايته قتلا بسبب ظلمه، ولقد رأينا ذلك عبر التاريخ الماضي والحاضر ولنا في التاريخ موعظة وعبرة، ولكن وللأسف حكامنا العرب لا يتعظون من التاريخ رغم علمهم به.

أيضا الثأر عن طريق الغدر ليس من شيم العرب، ومقولة (الحرب خدعة) ليست كما فعلت جديس، لذلك انتقم الله منهم على يد الملك حسان بن تبع ملك حمير.

كما أن الظلم وإن طال فلا بد وأن تثور الشعوب يوما، كما ثارت جديس قديما، واليوم تثور الشعوب العربية على حكامها حديثا.

أيضا ليس أذل ولا أحقر للرجل العربي من أن يغتصب عرضة وينتهك شرفه ؛ فإن صبر فلن يدوم صبره طويلا ، وسيأتي يوم وينتقم لشرفه كما فعلت جديس ولو باستعمال الحيلة.

مملكة سبأ وسيل العرم

عاشت مملكة سبأ في بلاد اليمن بفضل سد مأرب في نعمة من العيش سنين طويلة، ولكن كما يقول المثل (دوام الحال من المحال) والإنسان قليلا ما يشكر الله على النعم التي رزقه إياها، وقد ورد في سورة سبأ من القرآن الكريم كيف أن قوم سبأ قد أعرضوا عن شكر الله وطاعته فأرسل عليهم سيل العرم عقابا لهم عن كفرهم بعدم طاعة الله، وبعد أن كانوا في رغد من العيش آمنين مطمئنين، وفي أسفارهم يسيرون بين القرى العامرة بالخيرات بفضل الله ونعمته، ولكنهم ملوا هذه العيشة السعيدة الهانئة، وطلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم كي يمشوا في الصحاري بدلا من الأرض الخصبة، انظروا إلى الإنسان (سبحان الله) لا يعجبه حال (وقليل من عبادي الشكور) صدق الله العظيم (الآية 13 من سورة سبأ) فأجابهم سبحانه وتعالى إلى ما طلبوا وجزاهم بما كفروا فمزقهم كل ممزق حتى ضُرِب بهم المثل بفرقتهم قيل (تفرقوا أيدي سبأ).

وكان (عمرو بن عامر) ملكا على مملكة سبأ، وكان لعمرو كاهنة، ويقال أيضا إنها زوجته رأت في المنام يوما حُلما فسرته بأن السد وشيك الهلاك، وأخبرت بذلك عمرا، ولقد رأى عمرو هو الآخر بعد ذلك في النوم سيل العرم، وقيل له: أن آية ذلك أن ترى الحصباء (أي الحصا الصغيرة) قد ظهرت في سعف النخيل فذهب ليتأكد من ذلك فوجد الحصباء قد ظهرت فيها، فعلم أن ذلك واقع بهم، وأن بلادهم ستخرب، فكتم عمرو ذلك وأخفاه، وأجمع أن يبيع كل شيء له بأرض

سبأ ويخرج منها هو وولده، ثم خشي أن يستنكر الناس ذلك، فصنع طعاما واسعا ثم بعث إلى أهل مأرب يدعوهم مبررا دعوته إليهم أن عمرا صنع يوم مجد، وذِكر فأحضروا طعامه، ثن دعا أبنا له يقال له مالك، فقال: إذا جلست أطعم الناس فأجلس عندي ونازعني الحديث، وأردده علي، وافعل بي مثل ما أفعله بك، وجاء أهل مأرب، فلما جلسوا للطعام فجعل ابنه ينازعه الحديث ويرد عليه، فضرب عمرو وجهه وشتمه، فصنع الصبي بعمرو مثل ما صُنِع به، فقام عمرو وصاح: وأذلاه ! يوم فخر عمرو ومجده يضرب وجهه صبي ويشتمه، وحلف ليقتلنه، فلم يزالوا بعمرو حتى تركه، ثم قال والله لا أقيم ببلد صُنع هذا بي فيه، ولأبيعن عقاري وأموالي، فقال الناس بعضهم لبعض: اغتنموا غضبة عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى، فابتاع الناس منه جميع ماله بأرض مأرب، وفشا بعض حديثه حول سيل العرم، فابتاع بعض الناس أموالهم، فلما أكثروا البيع استنكر ذلك الناس، فأمسكوا بأيديهم عن الشراء، فلما اجتمعت لعمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم.

ثم خرجت قبائل سبأ فتفرقت بين الحجاز والعراق والشام وسار عمرو ومن معه إلى أرض الحجاز، ونزل على ماء يقال له غسان بين واديين يقال لهما زبيد ورمح

إعرابي يضرب رقبة الملك

كان في ملوك الحيرة ملك له نديمان يُحبهما محبة كبيرة، وكانا لا يفارقانه في لهوه وأنسه ومنامه ويقظته، ومقامه وسفره، وكان لا يقطع أمرا دونهما، ولا يعمل إلا برأيهما، وبقي على ذلك دهرا طويلا، فبينما هو ذات ليلة في شربه ولهوه إذ غلب عليه الشراب فأزال عقله، فدعا بسيفه ثم شد عليهما فقتلهما، وغلبته عيناه فنام، فلما أصبح سأل عنهما فأخبر بما كان منه، فأكب على الأرض غاضا لهما تأسفا عليهما وجزعا لفراقهما، وامتنع من الطعام والشراب، ثم حلف ألا يشرب شرابا يذهب عقله ما عاش، وواراهما التراب وبنى على قبريهما قبة، وسماهما (الغريّين) وسن ألا يمر بهما أحد من الملوك فمن دونه إلا سجد لهما، وكان إذا سن الملك منهم سنة توارثوها وأحيوا ذكراها، ولا يميتونها، وجعلوها عليهم حكما واجبا، وفرضا لازما، وأوصى بها الآباء أبناءهم، واستمر الناس على هذه العادة دهرا طويلا ، فلا يمر بقبريهما أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما، فصار ذلك سُنةً لازمةً وأمراً كالشريعة والفريضة، وحكم فيمن لا يسجد لهما بالقتل، ولكن لا ينفذ فيه أمر القتل ألا بعد أن يطلب من الملك طلبين يجاب إليهما مهما كانا، وبينما هو على هذه الحال مر يوما أعرابي ومعه قطعة ثوب وضع فيها مدقّته (أي ما يدق به) فقال الحراس الموكلون بالغريين للأعرابي: اسجد، فأبى أن يفعل، فقالوا له: إنك مقتول إن لم تفعل، فأبى، فرفعوه إلى الملك، وأخبروه بقصته، فقال: ما منعك أن تسجد؟ قال: سجدت ولكن كذبوا

علي، قال الملك: أنت كاذب وهؤلاء الحراس لا يكذبون، ولك أن تطلب طلبين فإنك مجاب إليهما، وإني قاتلك بعد ذلك، قال الأعرابي: لا بد من قتلي بقول هؤلاء علي؟ قال الملك: لا بد من قتلك، قال الأعرابي: أطلب أن أضرب رقبة الملك بمدقتي هذه، قال له الملك: يا جاهل، لو طلبت مني أن أهبك ما يصلح عيالك الذين خلفتهم وراءك لكان خيرا لك ولهم، قال الأعرابي: لا أطلب إلا بضربة رقبة الملك، فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيما طلب هذا الجاهل، قالوا: نرى أن هذه سنة أنت سننتها وأنت أعلم بما في نقض السنن من العار والنار ؟، وعظيم الإثم، وأيضا انك متى نقضت سنة نقضت أخرى، ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك، فتبطل السنن، قال الملك: قولوا للأعرابي أن يطلب ما يشاء ويعفيني من هذه، فإني أجيبه إلى ما يشاء ولو بلغ حكمه شطر ملكي، فحاولوا معه كثيرا فأبى إلا أن يضرب رقبة الملك، فلما رأى الملك ذلك وما عزم عليه الأعرابي قعد له مقعدا عاما، وأحضر الأعرابي فأمسك مدقته وضرب بها عنق الملك فأوجعه وخر مغشيا عليه، وبقى الملك عليلا من أثر تلك الضربة ستة أشهر، وبلغ من أثر تلك العلة إلى أن كان يُسقى الماء بالقطر، فلما أفاق وتكلم وأكل وشرب وتعافى سأل عن الأعرابي فقيل: إنه محبوس، فأمر بإحضاره، فحضر، فقال: لقد بقي لك طلب واحد، فاطلب ما تشاء فإني قاتلك لا محالة إقامة للسنة، قال الأعرابي: أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى، فلما سمع ذلك خر الملك على وجهه من الجزع ، وقال: ذهبت نفسي والله إذًا، ثم قال للأعرابي ويلك ! دع عنك ما لا ينفعك، فماذا استفدت من ضربتك الأولى؟ اطلب غير هذا وأنفذه لك كائنا ما كان، قال: ما أرى حقي إلا في ضربة أخرى، فقال الملك لوزرائه: ما ترون؟ قالوا: تموت على السنة أصلح لك،

قال: ويلكم !! إن ضرب الجانب الآخر ما شربت الماء البارد أبدا، وقد أموت منها ؛ لأني أعلم ما قد نالني في الضربة الأولى، قالوا: فما عندنا حيلة، فلما رأى الملك ما قد أشرف عليه، قال للأعرابي: أخبرني، ألم أكن سمعتك تقول يوم أتى بك هؤلاء الحراس إنك قد سجدت وإنهم كذبوا عليك، قال: قد كنت قلت ذلك فلم تصدقني، قال الملك: أفكنت سجدت؟ قال: نعم، فوثب الملك من مجلسه وقبل رأسه وقال: أشهد أنك صادق وأنهم كذبوا عليك، وقد وليتك موضعهم، وجعلت إليك أن تحكم في أمرهم وتأديبهم.

وهكذا نرى أن بعض الملوك يسنون سننا حسنة والبعض الآخر عكس ذلك، وقد تصل هذه السنة بصاحبها إلى حد القتل، وهنا يأتي دور البطانة الصالحة للملك عندما تلوح لهم فرصة إنقاذ الناس من ظلمه وفساده ونقض سننه الظالمة بطريقة لا يشعر بها كما فعل وزراء هذا الملك.

أيضا الرجل الأعرابي والذي كان يدعى (قصّارا) لا بد وأنه أدرك بذكائه وفطنته أنه لا يمكن إنقاذ الناس ونفسه من ظلم هذا الملك إلا بهذه الطريقة، وقد نجح فعلا في ذلك، وهذه هي فراسة العرب البدو وحكمتهم.

أيضا رغم أن قصارا لم يدرك الإسلام، وأنه لا سجود إلا لله، ولكن بأنفة وكبرياء الأعراب رفض أن يسجد لقبر حتى وإن كان رفضه قد يكون سببا في قتله، فما أحوجنا اليوم إلى شجاعة قصار، وبطانة ملك الحيرة.

الطبيعة تغلب الأدب

يُحكى أن ملكا من ملوك فارس كان له وزير حازم مجرب حكيم، فكان يشاوره في كل أموره، ويعمل برأيه، ثم إن ذلك الملك قد مات، وتولى الحكم من بعده ولد له معجب بنفسه مستبد برأيه، فأصبح الوزير كما مهملا، ولم يعُد يستشيره الملك الجديد في شيء، ولا يهتم حتى بمعرفة رأيه في أي أمر، فقيل له: إن أباك كان لا يقطع أمرا دونه، فقال: كان أبي مخطئا فيه، وسأمتحنه بنفسي ٬ فأرسل الملك إلى الوزير، وقال له: أيهما أغلب على الرجل: الأدب أم الطبيعة؟ فقال له الوزير: الطبيعة أغلب، لأنها أصل، والأدب فرع، وكل فرع يرجع إلى أصله. فدعا الملك بسفرة الأكل فلما وضعت أقبلت قطط بأيديها الشمع، فوقفت حول السفرة، قال الملك: لقد تبين خطأك وضعف مذهبك، متى كان أبو هذه القطط شماعا؟ فسكت عنه الوزير وقال: أمهلني في الجواب إلى الليلة المقبلة ؛ فقال الملك: لك ذلك. فخرج الوزير، فدع بغلام له وأمره أن يحضر له فأرا، وأن يربطه بخيط ويأتيه به، فأتاه به الغلام، فعقده في ثياب وخبأه في كمه ثم راح من الغد إلى الملك، فلما حضرت سفرته أقبلت القطط بالشمع كالعادة، فحل الوزير الفأر من مخبأه في ثيابه ثم ألقاه إليها، فجرت القطط إلى الفأر، ورمت الشمع حتى كادت أن تشتعل النار في البيت، فقال الوزير: كيف رأيت غلبة الطبيعة على الأدب، ورجوع الفرع إلى أصله؟ قال الملك: صدقت، ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه.

والعبرة من هذه الحكاية أن التكلف مذموم قال تعالى في كتابه

العزيز لنبيه محمد (ﷺ): قل يا محمد: (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) الآية 86 من سورة ص. وقالوا من تطبع بغير طبعه نزعته العادة حتى ترده إلى طبعه، كما أن الماء إذا سخنته ثم تركته ساعة عاد إلى طبعه من البرود، والشجرة المرة لو طليتها بالعسل لا تثمر إلا مرا.

أيضا يقال: لا خاب من استشار، والإنسان ينبغي ألا يستبد برأيه حتى لا يقع في الخطأ، وبخاصة عندما يكون صاحب مسؤولية على مستوى دولة أو حتى على مستوى الأسرة، ففي هذه الحالة قد يجر الرأي الخاطئ إلى مشاكل يقع ضحيتها أناس أبرياء لا علاقة لهم بالموضوع، قال تعالى (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون) «الآية 38 من سورة الشورى» .

من أخبار كرم حاتم الطائي

قيل لنوار امرأة حاتم: حدثينا عن حاتم قالت: كل أمره كان عجبا، أصابتنا سنة حصدت كل شيء فاقشعرت لها الأرض، وأغبرت لها السماء وضنت المراضع على أولادها، وراحت الإبل حدبا لا تحلب قطرة، ونقص المال، وبينما أنا في ليلة صابرة ؛ إذ اشتد بكى الصبية من الجوع: عبد الله وعدي وسفانة، فوالله ما وجدنا شيئا نعطيه لهم، فقام حاتم لأحد الصبيان فحمله، وقمت أنا إلى الصبية فعللتها فوالله ما سكتا إلا بعد هدأة الليل، ثم عدنا إلى الصبي الآخر فعللناه حتى سكت وما كاد، ثم افترشنا قطيفة لنا شامية فأضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو في حجرة والصبيان بيننا، ثم أقبل علي يعللني لأنام، وعرفت ما يريد، فتناومت فقال: ما لك نمت؟ فسكت، فقال: ما أراها إلا قد نامت وما بي نوم.

فلما ادلهم الليل وصفت النجوم وهدأت الأصوات وسكنت الرِّجل، إذ جانب البيت قد رُفع، فقال: من هذا؟ قالت: جارتك فلانة يا أبا عدي، ما وجدت على أحد معولا غيرك، أتيتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع، قال: أعجليهم عليّ قالت النوار: فوثب، فقلت: ماذا صنعت اضطجع؟ والله لقد بكى صبيتك فما وجدت ما تعللهم فكيف بهذه وولدها؟ فقال: اسكتي، فوالله لأشبعنك إن شاء الله، قالت: فأقبلت تحمل اثنين وتمشي جنبتيها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها، فقام إلى فرسه فذبحها، وأوقد نارا، ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ثم دفع المدية إلى المرأة ثم قال: دونك،

ثم قال: ابعثي صبيانك، فبعثتهم ثم قال: سوءة أتأكلون دون أهل الحي؟ فجعل يطوف فيهم حتى هبوا وأقبلوا عليه، والتف في ثوبه ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا، والله ما ذاق مضغة وإنه لأحوجهم إليه، فأصبحنا وما على الأرض منه إلا عظم وحافر.

- وفد حاتم الطائي يوما على النعمان بن المنذر فأكرمه وأدناه، ثم زوده عند انصرافه بجملين ذهبا وورقا غير ما أعطاه من طرائف بلده، فرحل ولما أشرف على أهله تلقته أعاريب طيىء فقالت: يا حاتم أتيت من عند الملك وأتينا من عند أهالينا بالفقر، فقال حاتم: هلم فخذوا ما بين يدي، فتوزعوه فوثبوا إلى ما بين يديه مما جاء به من النعمان فاقتسموه، فخرجت إلى حاتم طريفة جاريته فقالت له: اتق الله وابق على نفسك، فما يدع هؤلاء دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا، فأنشأ يقول:

قالت طريفة ما تبقى درهمنا وما بنا سرف فيها ولا خرق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ممن سوانا ولسنا نحن نرتزق
ما يألف الدرهم الكاري خرقتنا ألا يمر عليها ثم ينطلق
إنا إذا اجتمعت يوما دراهمنا ظلت إلى سبل المعروف تستبق

- وقيل لحاتم: هل في العرب أجود منك؟ فقال: كل العرب أجود مني، ثم أنشأ يحدث قال: نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة وكانت له مائة من الغنم، فذبح لي شاة منها وأتاني بها، فلما قرب إلى دماغها قلت: ما أطيب هذا الدماغ! قال: فلم يزل يأتيني منه حتى قلت: قد اكتفيت، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة ولم يبقى

شيء له، فقيل: فما صنعت به؟ فقال: ومتى أبلغ شكره ولو صنعت به كل شيء، قال: على كل حال أعطيته مائة ناقة من خيار أبلي.

ـ مر نفر من عبد القيس بقبر حاتم طيىء، فنزلوا قريبا منه، فقام إليه بعضهم يقال له: أبو الخبيري، فجعل يركض قبره برجله ويقول: يا أبا جعد أقرنا فقال له بعض أصحابه: أتخاطب عظاما وقد بليت؟ وأجنهم الليل فناموا، فقام صاحب القول فزعا يقول: يا قوم عليكم بمطيكم فإن حاتما أتاني في النوم وأنشدني شعرا وقد حفظته يقول :

أبـا الخيبـري وأنت امـرؤ ظلـوم العشيـرة شتـامهـا
أتيت بصحبـك تبغـي القـرى لـدى حفـرة قـد صدت هامها
أتبعني إلـى الذنب عند المبيت وحـولك طيىء وأنعـامهـا
وإنـا لنشبـع أضيافنـاوتأتـي المطـي فنعتـامهـا

قـال: وإذا ناقة صاحب القول وقد عُقرت، فنحروها، وقاموا يشتوون ويأكلون وقالوا: لقد أضافنا حاتم حيا وميتا، قال: وأصبح القوم وأردفوا صاحبهم وساروا فإذا رجل يدنو منهم راكبا جملا ويقوده آخر، فقال: أيكم أبو الخيبري ؟ فقام أحدهم وقال: أنا أبو الخيبري، قال: إن حاتما أتاني في النوم فأخبرني أنه ضيّف أصحابك بناقتك، وأمرني أن أحملك وهذا بعير فخذه، ودفعه إليه.

وافق شن طبقة

كان شن من دهاةَ العرب فقال: واللّٰه لأطوفن حتى أجد امرأةً مثلي فأتزوجها، فسار حتى لقيّ رجلا يريد قرية يريدها شن فصحبه، فلما انطلقا قال له شن: أتحملني أم أحملك؟ فقال الرجل: يا جاهل كيف يحمل الراكب الراكب؟ فسار حتى رأيا زرعا لم يتم حصاده بعد، فقال شن: أترى هذا الزرع قد أكل أم لا؟ فقال: يا جاهل أما تراه قائما؟ فمر بجنازة فقال: أترى صاحبها ميتا أو حيا؟ فقال: ما رأيت أجهل منك، أتراهم حملوا إلى القبور حيا؟ ثم سار به الرجل إلى منزله وكانت له ابنه تسمى (طبقة) فقص عليها القصة فقالت: أما قوله أتحملني أو أحملك؟ أراد تحدثني أم أحدثك حتى نقطع طريقنا، وأما قوله أترى هذا الزرع أكل أم لا؟ فأراد باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا، وأما قوله في الميت، فإنه أراد أترك عقبا يحيا به ذكره أم لا؟ .

فخرج الرجل فحادثه ثم أخبره بقول ابنته فخطبها إليه فزوجه إياها، فحملها إلى أهله فلما عرفوا عقلها ودهاءها قالوا: (وافق شن طبقة).

جوع كلبك يتبعك

كان أحد ملوك حمير ويدعى (حسان) عنيفا ودكتورا على أهل مملكته، يغصبهم أموالهم ويسلبهم ما في أيديهم، وكانت الكهنة تخبره أنهم سيقتلونه فلا يحفل بذلك.

وسمعت امرأته أصوات السؤال، فقالت: إني لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ونحن في العيش الرغد، وإني أخاف عليك أن يصيروا سباعا وقد كانوا لنا أتباعا، فرد عليها وقال: جوع كلبك يتبعك.

فلبث بذلك زمانا ثم أغزاهم فغنموا ولم يقسم فيهم شيئا، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه (عمرو): وهو أميرهم: قد ترى ما نحن فيه من الجهد، ونحن نكره خروج الملك منكم أهل البيت إلى غيركم، فساعدنا على قتل أخيك واجلس مكانه.

وكان قد عرف بغيه واعتداءه عليهم، فأجابهم إلى ذلك، فوثبوا عليه فقتلوه !

فمر به عامر بن جذيمة وهو مقتول، وقد سمع بقوله: جوع كلبك يتبعك فقال: ربما أكل الكلب مؤدبه إذا لم ينل شبعه.

وهذه القصة تنطبق على كثير من حكام العرب اليوم الذين ثارت عليهم شعوبهم، وفي القصص التاريخية عبر ومواعظ لمن يعتبر.

ما قتل رجل أخاه إلا أصابه السهر

ذكرنا في القصة السابقة (جوع كلبك يتبعك) كيف ثارت حمير على ملكها حسان لسوء سيرته فيهم ومالوا إلى أخيه عمرو، وحملوه على قتل حسان، وأشاروا عليه بذلك، ورغبوا له الأمر، ووعدوه حسن الطاعة والمؤازرة، وقد خالفهم في ذلك الرأي ونهاه عن قتل أخيه رجل منهم يدعى (ذورُعين) من بين حمير، وعلم أنه إن قتل أخاه ندم ونفر عنه النوم، وانتقضت عليه أموره، وأنه سيعاقب الذي أشار عليه بذلك، ويعرف غشهم له.

فلما رأى (ذورُعين) أنه لا يقبل ذلك منه وخشى العواقب قال :

ألا من يشتري سهرا بنومسعيدٌ من يبيت قرير عين

فإما حميرٌ غدرت وخانتفمعذرة الإله لـذي رُعين

ثم كتب البيتين في صحيفة، وختم عليها بخاتم عمرو وقال: هذه وديعة لي عندك إلى أن أطلبها منك ؛ فأخذها عمرو ودفعها إلى خازنه وأمره برفعها إلى الخزانة، والاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها :

فلما قتل أخاه، وجلس مكانه في المُلك مُنِع منه النوم، وسلط عليه السهر ؛ فلما اشتد ذلك عليه لم يدع باليمن طبيبا ولا كاهنا ولا منجما ولا عرّافا إلا جمعهم ثم أخبرهم بقصته، وشكا إليهم ما به، فقالوا له: ما قتل رجل أخاه أو ذا رحم منه على نحو ما قتلت أخاك إلا أصابه السهر ومُنِع منه النوم !

فلما قالوا له ذلك أقبل على من كان أشار عليه بقتل أخيه

وساعده عليه من أهل حمير، فقتلهم وأفناهم.

فلما وصل إلى ذي رُعين قال له: أيها الملك ؛ إن لي عندك براءة مما تريد أن تصنع بي. قال: وما براءتك وأمانتك؟ قال: مُرّ خازنك أن يخرج الصحيفة التي استودعتها عندك يوم كذا وكذا.

فأمر خازنه فأخرجها، فنظر إلى خاتمه عليها ثم فضها فإذا فيها البيتان:

* ألا من يشتري سهرا بنوم *

ثم قال له: أيها الملك، قد نهيتك عن قتل أخيك، وعلمت أنك إن فعلت ذلك أصابك الذي قد أصابك، فكتبت هذين البيتين براءة لي عنك مما علمت أنك تصنع بمن أشار عليك بقتل أخيك !

فقبل ذلك منه وعفا عنه وأحسن جائزته.

وفي القصة عبرة لمن يعتبر

الهجرس بن كليب يثأر من قاتل أبيه

ولدت جليلة زوج كليب غلاما فسمته الهجرس، ورباه خاله جساس، فكان لا يعرف أبا غيره، وزوجّه ابنته، فوقع بين الهجرس ورجل من بني بكر بن وائل كلام، فقال له البكري: ما أنت بمنته حتى نُلحقك بأبيك ! فأمسك عنه ودخل على أمه كئيبا فسألته عما به فأخبرها الخبر.

فلما أوى إلى فراشه ونام إلى جنب امرأته وضع أنفه بين ثدييها، فتنفس تنفسة قرح منها ما بين ثدييها من حرارتها، فقامت زوجته فزعة قد أقلتها رعدة حتى دخلت على أبيها، وقصت عليه قصة الهجرس، فقال جساس :ثائرٌ ورب الكعبة !

وبات جساس على أحر من النار حتى أصبح، فأرسل إلى الهجرس فأتاه فقال له: إنما أنت ولدي ومني بالمكان الذي قد علمت، وقد زوجتك ابنتي، وأنت معي، وقد كانت الحرب في أبيك زمانا طويلا حتى كدنا نتفانى، وقد اصطلحنا، وقد رأيت أن تدخل فيما دخل الناس فيه من الصلح، وأن تنطلق معي حتى نأخذ عليك مثل ما أُخِذَ علينا وعلى قومنا.

فقال الهجرس: أنا فاعل، ولكن مثلي لا يأتي قومه إلا بسلاحه وفرسه، فحمله جساس على فرسه، وأعطاه سلاحا ودرعا، فخرجا حتى أتيا جماعة من قومهما، فقص عليهم جساس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا إليه من العافية، ثم قال: وهذا الفتى ابن أختي قد

جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ويعقد ما عقدتم، فلما قربوا (1[1]) الدم، وقاموا إلى العقد أخذ الهجرس بوسط رمحه ثم قال: وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وحديه، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه، ثم طعن جساسا فقتله، ولحق بقومه، فكان جساس آخر قتيل في بكر بن وائل.

وهذه كانت من عادة العرب الأخذ بالثأر، فالعربي لا ينام على ثأره مهما كانت درجة القرابة، وعندما جاء الإسلام حرّم ذلك، وترك لولي الأمر القصاص.

1 – كان من عادة العرب أن يحضروا في جفنة طيبا أو دما أو رمادا فيدخلوا فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم باشتراكهم في شيء واحد.

الإمبراطور المستبد

ورث عرش الإمبراطورية الرومانية (كاليغولا) سنة 37 ميلادية بعد أن ظن سكان روما أنه كابوسا رهيبا قد انزاح عن صدورهم بخلاصهم من طغيان الإمبراطور (تيباريوس) فرحبوا بالإمبراطور الشاب كاليغولا أشد الترحيب.

وحاول كاليغولا في بداية عهده التظاهر بأنه جدير بهذا الترحيب الذي لقيه من الرعية، فباشر حكمه بإنجاز بعض الإصلاحات الإدارية والاقتصادية التي ساعدت على التفاف المزيد من الجماهير حوله، مما حمل مجلس الشيوخ على تزويده بالصلاحيات المطلقة، وحصر جميع مسؤوليات الحكم في شخصه، ويعتبر هذا التفويض بالصلاحيات خطأ فادحا ارتكبه مجلس الشيوخ، وتشجيعا للإمبراطور على الاستبداد والتسلط، وقد استفاد كاليغولا أول الأمر من هذه الصلاحيات المطلقة، فأصدر عفوا، وخفض الضرائب، وأبدى رغبة صادقة في التعاون في جميع شؤون الإمبراطورية مع مجلس الشيوخ مما زاد من تعلق الجميع به.

وبعد ثمانية أو تسعة أشهر فقط من هذه البداية الرائعة لحكمه انقلب الوضع دفعة واحدة رأسا على عقب فإذا بكاليغولا الإمبراطور العادل والحاكم المحبوب يتحول بين ليلة وضحاها إلى ذئب متعطش للدم، وطاغية عاتيا، ومجرما مجنونا.

ويرى المؤرخون أن سبب ذلك يعود إلى أمراض الأسرة الإمبراطورية المتفشية من سفك للدماء، والمؤامرات والدسائس التي

تحاك في القصر، ومن بينها أن كاليغولا نفسه أغروه بدس السم لولي نعمته الإمبراطور (تيباريوس) وبذلك زرعوا في نفسه بذور الجريمة، بالإضافة إلى أن هناك من يقول: إنه أصيب بلوثة في عقله.

ويروي هؤلاء المؤرخون حكايات غريبة عن بوادر مرضه منها حكاية حصانه الذي بنى له أسطبلا من المرمر وأطعمه الشعير المذهب، وأطلق عليه لقب القنصل

ثم انتقل كاليغولا من هذه الهوايات المرضية إلى سفك الدماء على نطاق واسع، حيث سيطرت عليه رغبة غريزية ومسعورة في قطع الرؤوس لأتفه الأسباب مع تمنياته العلنية بوقوع الكوارث على البشر، وزوال كل أثر للحياة على سطح الأرض

وقد استهدفت جرائمه جميع من يحيط به بالإضافة إلى رجال السياسة والقادة العسكريين، وصب غضبه على أغنياء روما ؛ لأن حاجته الملحة والدائمة إلى المال كانت تدفعه بين الحين والآخر إلى قتلهم والاستيلاء على ثرواتهم.

وظهر ميل كاليغولا وهو في غمرة طغيانه وجنونه إلى التشبه بفراعنة مصر، وربما كان هذا الميل نتيجة لما تركه الخدم المصريون من تأثير مباشر عليه في مرحلة الطفولة ؛ لذلك أحاط نفسه بعدما أصبح إمبراطورا بالمصريين، ومنحهم ثقته، ودعا إلى عبادة إيزيس، وبنى لها معبدا خاصا في الكابيتول.

ويتهمه بعض المؤرخين بأنه كان ينتهك حرمة شقيقته كما كان يفعل بعض الفراعنة، كما أطلق على نفسه كالفراعنة لقب «الملك - الإله».

وانطلاقا من هذا الادعاء بالألوهية أعطى كاليغولا لنفسه حق

التصرف بحياة العباد، وبالثروات الخاصة والعامة، وفرض قراراته الشخصية دون التقيد بأي من قوانين روما المعمول بها في ذلك الوقت، ولم يستطع مجلس الشيوخ بالرغم مما يتمتع به من نفوذ أن يجرؤ على معارضة قرارات الطاغية وتصرفاته الرعناء بل أصبح هذا المجلس بعدما تخلى عن صلاحياته بمحض إرادته مجرد وسيلة لتنفيذ رغبات كاليغولا ونزواته مهما كانت منافية للقوانين والأعراف والأخلاق.

ولم يقتصر طغيان كاليغولا الأسود على روما، وعلى شبه الجزيرة الرومانية (الإيطالية حاليا) وإنما امتدت جرائمه لتصيب بشرها سكان المناطق البعيدة الخاضعة للحكم الروماني، فأخضع أولئك السكان إلى أبشع عمليات النهب والتقتيل والتجويع، وكثيرا ما كان يقتل حكام المناطق ليوزع الولايات التي يحكمونها على أصدقائه ومناصريه بعد تجزئتها، فكان لا بد هذا الظلم المستشري من اندلاع الثورات والانتفاضات سواء في الشرق الأوسط (سورية وفلسطين) أو في شمال إفريقيا وفي موريتانيا وغيرها.

ثم ما لبثت موجة الغضب الشعبي أن اجتاحت روما نفسها ؛ لأن طغيان كاليغولا بلغ حدا مخيفا من الإجرام والاستهتار والشذوذ، وقد اندلعت الثورة الأولى في عاصمة الإمبراطورية سنة 37 ميلادية، ثم أعقبها ثورة ثانية سنة 40 ميلادية ولكن هاتين الثورتين انتهتا إلى الفشل، فأعقبتهما حملة من الانتقام الجنوني ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء. الأمر الذي أدى إلى ازدياد النقمة، والإصرار على التخلص من الطاغية، فاندلعت سنة 41 ميلادية ثورة ثالثة بقيادة أحد ضباط الحرس الإمبراطوري، فكتب لها النجاح، وتمكنت من القضاء على كاليغولا، وإنقاذ روما وسائر الشعوب التابعة لها من

جنونه وتعطشه للدم.

وطويت بموت كاليغولا صفحة سوداء من الطغيان الإمبراطوري المسعور، وهكذا قد يطول الطغيان ولكن لا بد له من نهاية، والشعب ينتفض ولن يصبر على الظلم، ولكن ما لمسناه من التاريخ القديم والحديث أن الطغاة لا يستفيدون من التاريخ، ويبدو أنهم يظنون أنهم باقون إلى الأبد، ولن يقدر أحد على زحزحتهم من على عروشهم، ولن يتنازلوا عنها إلا إما مقتولين أو مطرودين....

وتاريخ الحكام العرب الحديث خير شاهد على ذلك...

الإمبراطور الروماني نيرون (72.86) ميلادية

في السنة التي تم فيها القضاء على الطاغية كاليغولا أنجبت (أغريبين) الصغرى شقيقة كاليغولا طفلا ذكرا كان أبوه ضابطا في الحرس الإمبراطوري، وهذا الطفل هو الذي أصبح بعد مرور سبع عشرة سنة على مولده إمبراطور روما الذي عرف باسم نيرون.

وقد أحاطت بنيرون منذ طفولته جميع مظاهر الفساد وشتى أنواع الجرائم المنكرة، فوالدته أغريبين الصغرى التي كان زوجها يكبرها بخمس وعشرين سنة انصرفت إلى نزواتها متسلحة بجمال باهر، وذكاء حاد، وطموح جامح ، فشاركت مشاركة فعالة في جميع الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك باستمرار داخل القصر الإمبراطوري، وفي مجلس الشيوخ، وفي القيادات العسكرية، فتآمرت مع الثوار ضد شقيقها كاليغولا مستغلة نقمة الجميع عليه، وعندما ولي الأمر عمها (كلوديوس) خلفا للطاغية الراحل، توددت إليه وعملت بشتى الوسائل على اكتساب ثقته ومحبته.

وبعد وفاة زوجها الأول سارعت إلى الزواج ثانية من أحد خطباء روما وأغنيائها الكبار مستعينة بأمواله، إضافة إلى جمالها واستهتارها على تدبير الدسائس، وشراء الضمائر، وصادف أن توفى زوجها الثاني في الفترة ذاتها التي قُتلت فيها (ميسالينا) زوجة الإمبراطور (كلوديوس) فنجحت اغرايبين الصغرى في تحقيق حلمها الأول، وهو الزواج من كلوديوس واعتلاء عرش الإمبراطورية.

أما ابنها نيرون فقد عهدت بأمر تربيته إلى خدم القصر فنشأ

فاسد الأخلاق، سيء السيرة، يعيش على هواه دون أي رقيب أو حسيب، وعندما تزوجت والدته من كلوديوس كان نيرون في الثالثة عشرة من عمره تبناه الإمبراطور، وعهد بأمر تعليمه وتثقيفه إلى الفيلسوف الروماني الكبير (سينيك)، ولكن هذا الأخير عجز تماما من تقويم أخلاق الفتى نيرون الشاذة برغم ما بذله من جهد على هذا الصعيد، فكان نيرون يفضل الانصراف إلى اللهو والملذات على الجلوس إلى أستاذه.

وفي سنة 53 ميلادية نجحت أغريبين في تحقيق حلمها الثاني، وهو تزويج ابنها نيرون البالغ عمره ست عشرة سنة من (اوكتافيا) ابنة كلوديوس من زوجته الأولى (ميسالينا) وكان هدف أغريبين من وراء صفقة الزواج هذه أن يصبح نيرون وليا للعهد بدلا من (بريتانيكوس) ابن كلوديوس الشرعي، وحرصا منها على تحقيق هذا الهدف لم تتورع عن قتل زوجها الإمبراطور لكي لا يفاجئها يوما بتعيين ابنه بريتانيكوس وليا للعهد فيخيب أملها.

وبعد إعلان موت كلوديوس عملت أغريبين على استمالة أعضاء مجلس الشيوخ، وقادة الحرس الإمبراطوري للحصول على موافقتهم على تنصيب نيرون امبراطورا وهو في السابعة عشرة من عمره، فكان لها ما أرادت.

وقد أرادت أغريبين الصغرى بسعيها المحموم لتنصيب ابنها امبراطورا أن تستفيد من صغر سنه لكي تستأثر بجميع الصلاحيات المهمة، فكان أول ما قامت به هو قتل أو عزل أو نفي كل من شارك في عرقلة مخططاتها الإجرامية، وكل من حاول معارضة ما كانت توحي به من تدابير جائرة إلى زوجها الراحل الامبراطور كلوديوس، كما

كانت تستقبل السفراء بنفسها، وتسهم في جلسات مجلس الشيوخ.

ومن اللافت للنظر أن نيرون على الرغم من حداثة سنه، بدأ عهده بكثير من الاستعداد الصادق لتحسين أحوال الرعية، شأنه في ذلك شأن الامبراطور الأسبق كاليغولا، وكان ينصت باهتمام إلى نصائح أستاذيه (سينيك وبوروس) الشهيرين في تاريخ الفكر الروماني، فبعد تدابيره وقراراته الأولى الهادفة إلى تحقيق الوفاق السياسي، تقرب من جلس الشيوخ لاكتساب ثقته، وعاد على التقيد بدقة بالقوانين الرومانية التي سنها الامبراطور الكبير (أوغست)، كما حقق بعض الإصلاحات الأساسية، كتخفيض الضرائب، وتنظيم المحاكم، وحماية أرواح الناس وممتلكاتهم من تعسف حكام الأقاليم، وتحسين أوضاع العبيد الأرقاء.

وبدا لسكان الامبراطورية الرومانية أن عهدا ذهبيا قد بدأ في روما، وانتقل منها إلى سائر الأقاليم والمناطق القريبة والبعيدة ؛ حيث تم الاستيلاء على أرمينيا، وهدأت الثورات والانتفاضات التي كانت تنشب بين الحين والآخر في بعض المناطق الخاضعة لسلطة روما.

ونتيجة لهذا الشعور بالطمأنينة والرخاء المادي، والانصراف إلى اللهو والملذات. أغمض سكان روما عيونهم عن بعض التصرفات الشاذة التي كانت تبدو من امبراطورهم الشاب، فلم ينم عنهم أي استهجان إذا ما رأوه ليلا متنكرا برداء عبد ليتردد على الأماكن المشبوهة بروما، أو يتعارك في الطرق والأزقة مع المارة. وعندما أقدم على قتل (بريتانيكوس) بن كلوديوس بواسطة السم لم تثر هذه الجريمة النكراء أي رد فعل داخل روما أو خارجها، فكأنما أراد نيرون بواسطة ما تظاهر بتحقيقه من إصلاحات مختلفة، أن يضع

ستارا بينه وبين الرعية عما يقوم به ، فينصرف إلى ممارسة شذوذه منحدرا نحو بؤرة الطغيان دون أي اعتراض أو استنكار. ومثل هذه المواقف السلبية من الرعية تجاه انحراف الحكام تعتبر من أقوى العوامل المؤدية إلى تكوين الطغاة.

وبدأ نيرون أمام هذه اللامبالاة العامة من سكان روما تجاه جرائمه وتصرفاته الشاذة يتكشف تدريجيا عن وحش خطير بثوب إنسان، بخاصة بعد وفاة أستاذه بوروس، ونفيه أستاذه الثاني سينيك، حيث فقدت الامبراطورية الرومانية بغيابهما مستشارين مخلصين، ووزيرين لا معين كانا يحسنان إدارة شؤون الامبراطورية الرومانية ويكبحان قدر الإمكان جموح غرائز الطاغية وإمعانه في الاستبداد والظلم، وهكذا خلا الجو بغيابهما للطاغية نيرون، فانغمس في الجريمة والشذوذ والفحش حتى أذنيه. فلم يتردد بعد تعلقه بامرأة ساقطة من عامة الشعب في قتل زوجته أوكتافيا ابنة حاضنه ومربيه الامبراطور كلوديوس، ثم ما لبث أن تخاصم مع أمه أغريبين الصغرى ؛ إذ أبى أن يستمر راضخا لسطوتها التي لا تعرف حدودا مع أنها هي التي أوصلته بدهائها إلى عرش الامبراطورية، وفي إحدى الليالي الحمراء إثر حفلة صاخبة من حفلاته الفاحشة لم يتورع عن ضرب أمه بسيفه حتى هوت جثة هامدة عند قدميه والدماء تنزف من جراحها. ويروى أن أغريبين عندما رأت ابنها نيرون هاجما باتجاهها والسيف بيده والجريمة تطل من عينيه صرخت قائلة له: «هيا ابقر هذه البطن التي حملت هذا الوحش » وهكذا دفعت أغريبين حياتها ثمن ما قدمت عليه من جرائم، وما ارتكبته من موبقات، وذلك على يد ثمرة أحشائها.

وانطلق الطاغية يمارس جرائمه واستبداده على جميع الجبهات

من قتل الأبرياء، والاستيلاء على أموالهم، وفرض جو من الإرهاب الأسود على جميع أفراد الحاشية، وتنفيذ الاغتيالات السياسية، وتحويل حدائق القصر ليلا إلى مبغى كبير. كل ذلك والرعية منغمسة في مستنقع الرفاهية المزيفة، غير عابئة بما يحدث وراء أسوار القصر.

ولكن سكوت جماهير روما عن جرائم نيرون، ورضوخها الذليل لجبروته كلف تلك الجماهير ثمنا باهظا جدا، ففي ليلة 17 ـ 18 يوليو سنة 64 ميلادية، اجتاح روما حريق هائل التهم الأحياء الشعبية الواقعة في وسط المدينة، وحوَّل عاصمة الامبراطورية إلى جحيم رهيب، وفي الوقت الذي كان صراخ الأطفال والنساء يملأ الأجواء الغارقة في اللهب والدخان، والمنازل المحترقة تهوى على رؤوس ساكنيها ، والناجون من الحريق يهيمون على وجوههم في أطراف المدينة هربا من هول الكارثة، كان نيرون كما يروي بعض المؤرخين يتأمل الحريق من على شرفة قصره المطل على روما يستوحي من الجحيم المستعر بعض الأبيات الشعرية، ويتغنى بها عازفا على قيثارة لحنا ينسجم مع «روعة» هذا المشهد الإجرامي الفظيع، ويؤكد هؤلاء المؤرخون أن الطاغية نيرون هو الذي أمر بإحراق المدينة الخالدة استجابة لدافع «فني».

وإذا كانت بعض المصادر التاريخية لا تؤكد مسؤولية نيرون المباشرة في هذه الجريمة، ولا تنفيها ؛ وإذا كانت بعض المصادر الأخرى تميل إلى اعتبار هذا الحريق حادثا عرضيا ، وإذا كان نيرون قد سارع إلى مقاومة الحريق ونجدة السكان، وإسعاف المصابين ؛ فإن الإشاعات قد انتشرت بسرعة بين سكان المدينة متهمة الطاغية بأنه هو السبب المباشر وراء الكارثة.

ولكي يقطع دابر الإشاعات، ويبعد التهمة عن نفسه لجأ طاغية روما إلى تبرئة نفسه بإلقائه تبعية الحريق على المسيحيين الجدد، وكان عددهم يتراوح في روما يومئذ بين ألفين وثلاثة آلاف شخص، فتم القبض عليهم جميعا وتعرضوا لأبشع أنواع التعذيب الفردي والجماعي، فكان يلقى بهم أحياء إلى الوحوش المفترسة وسط الحلبات الرومانية الشهيرة المعروفة باسم « كوليزيه» وذلك أمام سكان روما الذين كانوا يستقبلون هذه المشاهد الإجرامية المخيفة بموجة عارمة من الصخب الهستيري والهتاف لإمبراطورهم العظيم.

وبحجة إعادة بناء الأحياء المحترقة لجأ الطاغية إلى فرض المزيد من الضرائب الباهظة، والاستيلاء على الأموال، والنهب العلني داخل إيطاليا، وفي البلدان التابعة أو الحليفة، وخص نفسه ببناء قصر مذهب مكان أحد قصوره التي آتى عليها الحريق.

وفي سنة 65 ميلادية عَزَمَ عددٌ من أعضاء مجلس الشيوخ، وبعض كبار أغنياء روما الذين أفقرهم استبداد نيرون على التخلص من الطاغية، ووضع حد لمظالمه واستهتاره، ولكن أمر هؤلاء افتضح بسبب خيانة أحد المشتركين معهم، فأمر نيرون بإعدامهم جميعا، ومن بينهم أستاذه السابق سيتيك.

وسيطر على نيرون بعد اكتشاف المؤامرة خوف دائم من حدوث مؤامرات أخرى، ولازمه الشعور بأنه عرضة للاغتيال ؛ لذلك فرض جوا من الإرهاب الدموي المستمر أستهدف أعضاء مجلس الشيوخ، كما استهدف أفراد الحاشية، وأقرباء الإمبراطور، وكل من تجرأ ورفع صوته بمعارضة جنون الطاغية واستبداده.

وعلى الرغم من كل ذلك استمرت شعبيته قوية بين جماهير

روما، حيث نجح باستمالتها بواسطة توزيع الحنطة عليها، وإقامة الحفلات والاستعراضات الصاخبة، وبخاصة الألعاب الرياضية التي كان يشارك شخصيا فيها، فيقابل بالتصفيق والهتاف على الرغم من ترهل جسمه، وتهالك قواه بسبب تهافته على الفسق والفجور، وبينما كان يشارك في الألعاب الأولمبية في اليونان بدأت ترد الأنباء السيئة من روما: ثورة في فلسطين - انتفاضة في بلاد الغال (فرنسا) فعاد الطاغية إلى روما مسرعا، ولكن حاكم أسبانيا الروماني ترأس الجماعات الثائرة وبدأ الزحف باتجاه روما.

وحاول نيرون تنظيم قواته، والقضاء على الثائرين إلا أنه فوجئ بتخلي سابينوس قائد الحرس الامبراطوري عنه، فأسقط في يده، ثم أصدر مجلس الشيوخ قرارا يعتبر فيه نيرون «عدو المجتمع».

وهكذا وجد الطاغية نفسه وحيدا دون أي مناصر أو مدافع. حتى جماهير روما التي تملقها لم تبال بأمره، ولم تتحرك لنجدته، فاضطر إلى الهرب من روما هائما على وجهه. وفي 9 يونيو سنة 68 ميلادية وضع طاغية روما حدا لحياته بأن غرز خنجرا في نحره بمساعدة أحد مرافقيه.

وبموت نيرون دخلت الامبراطورية الرومانية فترة من الفوضى السياسية، والأزمات الاجتماعية والعسكرية كانت بداية مرحلة الاحتضار لإحدى أعظم الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ.

وهكذا على نحو مشابه لما حدث للطاغية السابق كاليغولا كانت نهاية الطاغية نيرون، ولنا في التاريخ القديم، والحديث عظة وعبرة لمن يعتبر.

الفصل الثاني

قصص من تاريخ العرب حدثت بعد ظهور الإسلام تتحدث عن البطولات العربية، وشجاعة العرب، وحكمتهم وصبرهم ، وذكائهم، ودهائهم، وما تحمل من عظات وعبر ...

فطنة عبد الملك بن مروان

أرسل عبد الملك بن مروان الشعبي إلى ملك الروم، فقال الشعبي لما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة عنده، فحبسني أياما كثيرة، حتى مللت الإقامة، واستحببت خروجي، فلما أردت الانصراف قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت: لا، ولكني رجل من عامة العرب، فهمس بشيء، ثم دفعت إليّ رقعة، وقيل لي: إذا أديت الرسائل عند وصولك إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة، قال: فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك، ونسيت الرقعة، فلما بدأت بالخروج تذكرتها فرجعت فأوصلتها إلى عبد الملك، فلما قرأها قال لي: أقال لك ملك الروم شيئا قبل أن يعطيها لك؟ قلت: نعم، قال لي من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت: لا ولكني رجل من عامة العرب، يقول الشعبي: ثم خرجت من عند عبد الملك، فلما بلغت الباب رُددت إليه، فلما مثلت بين يديه قال لي: أتدري ما في الرقعة؟ قلت: لا، قال: اقرأها، فلما قرأتها فإذا فيها: عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره، فقلت له: والله لو علمت ما فيها ما حملتها، وإنما قال هذا لأنه لم يرك، قال عبد الملك: أفتدري لم كتبها؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك وأراد أن يغريني بقتلك، فلما وصل الخبر إلى ملك الروم قال: ما أردت إلا ما قال.

انظروا إلى فطنة عبد الملك وذكائه، وكيف أنه فهم مقصد ملك الروم، وفوت الفرصة عليه.

أيضا كانت الملوك لا ترسل إلا من هو أهل لذلك، وله علم بالسياسة ومختلف الأمور ، وفصيح اللسان وذو حكمة وأدب لأن الرسول يدل على المُرسل منه.

عبد الملك بن مروان وزوجته عاتكة

غضبت عاتكة بنت يزيد بن معاوية يوما من زوجها عبد الملك بن مروان فطلب رضاها بكل شيء فأبت عليه، وكانت أحب الناس إليه، فشكا ذلك إلى خاصته، فقال له أحد خاصته ويدعى عمرو بن بلال: ماذا تعطيني يا أمير المؤمنين إن أرضيتها عنك؟ قال: ما تحكم به فهو لك، فخرج وجلس بباب عاتكة يبكي فقالت له إحدى خاصتها: مالك تبكي يا أبا حفص؟ قال: جئت شاكيا إلى ابنة عمي فاستأذنوا لي عليها، فأذنت له وبينهما ستر، فقال: قد عرفت حالي مع أمراء المؤمنين معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، ولم يكن لي غير ابنين فعدا أحدهما على الآخر فقتله، فقال أمير المؤمنين عبد الملك: أنا قاتل المعتدي، قلت له: أنا ولي الدم وقد عفوت عنه، فأبى علي، وقال: لا بد من القصاص حتى لا تتعود رعيتي على هذا مني، وهو قاتله غدا، فأنشدك الله والرحم أن تتدخلي وتنقذي ابني من القتل، فقالت: لا أكلمه، قال: ما أظنك تكسبين شيئا هو أفضل من إحياء نفس، ولم يزل بها خواصها وحاشيتها حتى قالت: علي بثيابي، فلبست، وكان بينها وبين عبد الملك باب، وكانت قد ردمته بعد الخصومة معه، فأمرت بفتحه، ثم دخلت فلما رآها أحد الخدم أقبل مسرعا إلى عبد الملك يبشره، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه مولاتي عاتكة قادمة، قال ويلك ! ورأيتها؟ قال: نعم، فجلس عبد الملك على سريره، فسلمت، فسكت، فقالت: أما والله لولا مكانة عمرو بن بلال ما أتيتك، ثم قالت: أعزمت على قتل ابنه بعد أن عدا أحد ابنيه على

الآخر وهو ولي الدم وقد عفا عنه، ولم يبق له ابن غيره ! قال: إي والله لا بد من قتله، فأخذت بيده، فأعرض عنها، فأخذت برجله فقبلتها تستعطفه، وعندما تأكد عبد الملك من رجوعها، وقد انتهت الخصومة معها، قال لها: هو لك، وتراضيا بعد الخصومة بينهما.

وراح عبد الملك فجلس مجلسه للخاصة، وهو في أحسن حال، فدخل عمرو بن رباح، فقال له: يا أبا حفص لقد نجحت حيلتك ولك الحكم كما وعدتك، فقال: يا أمير المؤمنين ألف دينار ومزرعة بما فيها من معدات ورقيق، قال: هي لك، قال: وعطايا لولدي وأهل بيتي، قال: وذلك كله أيضا، وبلغ عاتكة الخبر، فقالت: ويلي على الكذاب إنما خدعني.

يقولون الحرب خدعة، ولكي تكسب قلب المرأة قد تلجأ أحيانا إلى الخدعة كما فعل عبد الملك بن مروان، فالمرأة عاطفية بطبعها ورقيقة المشاعر، ومن السهل خداعها، ولكن حذاري من غضبها عليك؛ لأنك ربما لا تجد من له أفكارٌ مثل أفكار عمرو بن رباح ليصالحك معها.

من حمّال إلى أمير المؤمنين

أسس العرب على يد عبد الرحمن الداخل الملقب بـ (صقر قريش) دولة أموية ثانية في الأندلس (أسبانيا اليوم) بعد سقوطها في الشام على يد العباسيين، وازدهرت هذه الدولة، واتسع نفوذها، وشهدت تقدما كبيرا في العمارة والفنون والآداب ومختلف صنوف المعرفة، وتوالى على حكمها خلفاء بني أمية في الأندلس، وكالعادة في كل عصر تحدث طرائف غريبة، وخاصة في طريقة الوصول إلى الحكم، وهم عادة المغامرون ؛ إذ ليس لطموحاتهم حدود، وهو ما حدث في هذه القصة.

إذ كان في قرطبة ثلاثة أصدقاء لا يملك كل واحد منهما سوى حما ر (أعزكم الله) يسترزق منه في حمل البضائع والناس، وفي آخر اليوم يرجعون إلى دار يسكنون فيها بالإيجار ليرتاحوا فيها بعد عناء يوم كامل من المسير في شوارع قرطبة يحملون البضائع والناس مقابل دراهم معدودة قد لا تكفي أحيانا حتى لتشبع الحمار المسكين.. وذات يوم، يبدو أن أحدهم ملَّ هذه الخدمة أو الحرفة المهينة، بالرغم من أنها وسيلة عيش يعتمد فيها الإنسان على نفسه، وتغنيه عن ذل السؤال، وراح يفكر بخياله بعيدا ويتساءل في نفسه : بماذا الخليفة أحسن مني؟ ولماذا لا نكون يوما ما أنا الخليفة؟ طرد في بداية الأمر هذه الأفكار عن نفسه، واعتبرها ضربا من الجنون، ولكن الفكرة سيطرت عليه، واختمرت في عقله، وقال: لماذا لا نخبر صاحبيَّ بها لنرى رأيهما فيها؟ وبعد عودته وصاحبيه من عناء العمل، وهم

يتناولون طعام العشاء قال لصاحباه: ماذا لو كنت يوماً خليفة للدولة الأموية ! ماذا ستطلبان مني؟؟..اخذ صاحباه بالتندر عليه، واعتبراه مجنونا، إذ كيف لحمّال أن يكون يوما خليفة؟ هذا من غير المعقول من وجهة نظرهما، ونسيا أن الله قادر على ما يشاء،

فقال الأول والله لو أصبحت خليفة لأركب حماري بالمقلوب..وامشي به في شوارع المدينة كلها..وآمر منادي يمشي معي، وينادي أيها الناس ! أيها الناس ! هذا دجال محتال من يمشي معه أو يحدثه أودعته السجن. أما الثاني فكان أذكى من صاحبه الأول، وحدثته نفسه ربما فعلا يكون كما قال خليفة للمسلمين في دولة الأندلس، أو ربما أراد أن يسايره في أحلامه، فقال له: أريد حدائق غنّاء، و إسطبلاً من الخيل، وأريد مائة جارية، ومائة ألف دينار ذهب و يكفي ذلك يا أمير المؤمنين .

وفي صبيحة اليوم التالي ترك ذلك الحمّال حماره لصاحبيه، وتقدم إلى صاحب الشرطة في المدينة طالبا منه أن يضمه إلى شرطة الخليفة، وكان له ما أراد، وأصبح في شرطة الخليفة، وكان مجتهدا ومخلصا في عمله حتى نال ثقة مرؤوسيه، وارتقى في المناصب حتى أصبح رئيس الشرطة، والمسؤول الأول عن حرس الخليفة نفسه، وبعد ثلاثين عاما من الجهد المتواصل، والعمل المستمر، والثقة وحسن الظن برب العباد، وأن الله قادر على كل شيء، مات الخليفة وترك ابنا صغيرا غير مؤهل لتسيير أمور الدولة فتولى ذلك الحمّال الوصاية عليه، وأصبح هو الخليفة الفعلي للدولة الأموية في الأندلس، وهو المعروف بالحاجب المنصور محمد ابن أبي عامر، وعندما تحقق حلمه، وجلس على كرسي الخلافة، أرسل أحد الجند وقال له: اذهب إلى مكان كذا، ووصف له الدار التي كان يسكنها وصاحباه، فإذا وجدت بها رجلين صفتهما كذا وكذا فآتني بهما.

ووصل الجندي، ووجد الرجلين بنفس الصفة، وفي نفس المكان... العمل هو هو.. المقر هو هو.. المهارات هي هي.. بنفس العقلية حمّالين منذ ثلاثين سنه، لم يتطوروا ،ولم يتغير فيهما شيء... قال الجندي: إن أمير المؤمنين يطلبكما، قالا باستغراب: أمير المؤمنين ! إننا لم نقترف ذنبا، ولم نفعل شيئا، ما جرمنا ؟ قال الجندي: لا أعلم، قد أمرني أمير المؤمنين أن آتي بكما وكفى. ووصلا إلى القصر بم وعندما دخلا على الخليفة كانت المفاجأة ! نظرا باستغراب إلى الجالس على كرسي أمير المؤمنين، وقالا في دهشة من أمرهما !: إنه صاحبنا محمد !... قال الحاجب المنصور: أعرفتماني ؟

قالا نعم يا أمير المؤمنين بم ولكن خشينا أنك لم تعرفنا. بم قال: بل عرفتكما ثم نظر إلى الحاشية وقال: كنت أنا وهذين الرجلين سويا قبل ثلاثين عاما، وكنا نعمل حمّالين، وطلبت منهما ماذا يتمنيا لو كنت يوماً أنا الخليفة؟ ثم نظر إلى أحدهما وقال: ماذا تمنيت يا فلان؟ قال الرجل: حدائق غناء، فقال الخليفة: لك حديقة كذا وكذا، وماذا بعد؟ قال الرجل: اسطبلا من الخيل، قال الخليفة: ولك ذلك، ثم ماذا بعد، قال: مائة جارية، قال الخليفة: لك مائة من الجواري، ثم ماذا بعد، قال الرجل: مائة ألف دينار ذهب، قال الخليفة: هو لك، وماذا بعد؟ قال الرجل: كفى يا أمير المؤمنين، قال الحاجب المنصور: ولك راتب مقطوع دون عمل، وأن تدخل عليّ بغير حجاب. ثم التفت إلى الآخر وقال له: ماذا تمنيت؟ قال الرجل أعفني يا أمير المؤمنين قال: لا و الله حتى تخبرهم، قال الرجل: الصحبة يا أمير المؤمنين، قال الحاجب المنصور: لا بد من ذلك، قال الرجل: قلت يا أمير المؤمنين إن أصبحت خليفة فاجعلني على حمار، واجعل وجهي إلى

الوراء، وآمر منادي ينادي في الناس ويقول: أيها الناس: هذا محتال دجال من يمشي معه أو يحدثه أودعته السجن.

قال الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر: افعلوا به ما تمنى حتى يعلم أن الله على كل شيء قدير.

وهكذا نستخلص الموعظة من هذه القصة، وهي أن يكون للإنسان طموح في هذه الحياة، وصبر، وعدم اليأس، والثقة في الله، والسعي وراء الهدف حتى يحقق الإنسان ما تمناه. وهو ما يحث عليه ديننا الإسلامي الحنيف، ولنا في قصص التاريخ عبر ومواعظ.

فراسة الحجاج في ابن عمه

قَدِمَ على الحجاج يوما ابن عم له أعرابي من البادية طالبا منه أن يوليه إمارة إحدى الولايات، قائلا: أيها الأمير لم لا توليني بعض هذا الحضر؟ فقال له الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبون، وأنت لا تكتب ولا تحسب، فغضب الأعرابي وقال: بلى إني والله لأحسب منهم حسبا، وأكتب منهم يدا، فقال له الحجاج، فإن كان كما تزعم فأقسم ثلاثة دراهم بين أربعة نفر، فما زال يقول: ثلاثة دراهم بين أربعة، ثلاثة بين أربعة، لكل واحد منهم درهما ويبقى الرابع بلا شيء، ثم قال: كم هم أيها الأمير؟ قال: هم أربعة، قال: نعم أيها الأمير، قد عرفت الحساب، لكل واحد منهم درهم، وأنا أعطي الرابع منهم درهما من عندي، وأدخل يده إلى جيبه فاستخرج منه درهما، وقال: أيكم الرابع أعطيه الدرهم، فلا والله ما رأيت كاليوم زورا مثل حساب هؤلاء الحضريين، فضحك الحجاج ومن معه، وذهب بهم الضحك كل مذهب، ثم قال الحجاج: إن أهل إصبهان لم يدفعوا خراجهم منذ ثلاث سنين، وكلما آتاهم وال اعتذروا له عن الدفع فلأرمينهم ببدوية هذا الأعرابي، وعنجهيته، فكتب له بولاية إصبهان، وأرسله إليها، فلما وصل استقبله أهل إصبهان واستبشروا به، وأقبلوا عليه يقبلون يده، وغمروه بحفاوتهم، وقالوا: أعرابي بدوي ماذا يكون منه، فلما أكثروا عليه قال: كفى تقبيلكم أطرافي، وانشغلوا بما أخرجني له الأمير. فلما استقر في داره باصبهان جمع أهلها فقال لهم: ما لكم تعصون واليكم، وتغضبون أميركم، وتنقصون خراجكم؟ فقال قائلهم:

جور من كان قبلك، وظلمهم، قال: ما الأمر الذي فيه صلاحكم؟ فقالوا: تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر ونجمعه لك، قال: لكم عشرة أشهر وتأتوني بعشرة ضمناء يضمنون، فأتوه بهم، فلما توثق منهم، أمهلهم، فلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين لما يدنو من الأجل، فأنذرهم فلم يهتموا بقوله، فلما طال به ذلك جمع الضمناء وقال لهم: أين المال؟ قالوا: أصاب المحصول آفة، ولم نقدر على جمعه لك، فلما رأى عدم اكتراثهم قرر ألا يفطر - وكان في شهر رمضان - حتى يجمع ماله أو يضرب أعناقهم، ثم قدّم أحدهم فضرب عنقه وكتب عليه فلان بن فلان أدى ما عليه، وجعل رأسه في صرة وختم عليها، ثم قدم الثاني ففعل به مثل الأول، فلما رأى القوم الرؤوس تقطع وتجعل في أكياس، بدلا من المال المطلوب منهم، قالوا: أيها الأمير، توقف علينا حتى نُحضر لك المال، فأوقف القتل، فأحضروه في أسرع وقت، فبلغ ذلك الحجاج، فقال: إنا معشر آل محمد – يعني جدّه – ولدُنا نُجب، فكيف رأيتم فراستي في الأعرابي؟ ولم يزل عليها واليا حتى مات.

وهكذا الحاكم إن لم يكن قويا جبارا في الحق لا يقدر على بسط سلطانه، وقد يكون ضعفه سببا في زوال ملكه، وفساد حاشيته.

عمر بن عبد العزيز يطرب للصوت الجميل

أتى رجل من أهل العراق إلى المدينة يطلب جارية وصفت له بأنها تجيد الغناء، فسأل عنها فوجدها عند قاض المدينة، فأتاه وسأله أن يعرضها عليه وألح عليه في ذلك، فقال القاضي عندما رأى شدة إعجابه بها : يا عبد الله لقد طلبت شيئا بعيدا في هذه الجارية، فما رغبتك بها؟ قال الرجل: إنها تغني فتجيد الغناء، فقال القاضي: ما علمت بهذا، فألح عليه في عرضها وسماع غنائها بحضرته، فعرضت بحضرة مولاها القاضي، فقال لها الفتى: هات فغنت :

إلى خالد حتى أنخن بخالد فنعم الفتى يرجى ونعم المؤمل

ففرح القاضي بجاريته وسر بغنائها، وغشيه من الطرب أمر عظيم حتى أقعدها على فخضه وقال لها: هات شيئا بأبي أنت، فغنت :

أروح إلى القصاص كل عشية أرجي ثواب الله في عدد الخطا

فزاد طرب القاضي، ولم يدر ما يصنع، فأخذ نعليه فعلقهما في أذنه، وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف أذنه والنعل معلقة فيها، وهو يقول: أهدوني إلى البيت الحرام فإني بدنة ! حتى أدمى أذنه وهو لا يدري بنفسه، فلما أمسكت على الغناء أقبل على الفتى فقال له: يا حبيبي انصرف، قد كنا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول الغناء، ونحن الآن فيها أرغب، فانصرف الفتى، وبلغ ذلك إلى عمر بن عبد العزيز فقال: قاتله الله ! لقد استرقه الطرب، وأمر بصرفه عن عمل القضاء، فلما صُرف قال: نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال

اركبوني فإني مطية، فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه والجارية أيضا، فلما دخلا على عمر قال له: أعد ما قلت، قال: نعم، فأعاد ما قاله، فقال للجارية قولي، فغنت :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طربا بينا، وأقبل يستعيدها ثلاثا، وقد بلغت دموعه لحيته، ثم أقبل على القاضي فقال: قد قاربت في يمينك، ارجع إلى عملك راشدا.

فالإنسان الذي لا تتحرك مشاعره للصوت الجميل ليس له إحساس ولا ذوق، خالٍ من المشاعر، وله قلب قاس غليظ وقد يكون قليل الرحمة.

هارون الرشيد يقتل زوج أخته العباسة

بلغ آل برمك من الملك والرياسة والغنى في الأموال، واستقامت الأمور في زمن الرشيد مبلغا حتى قيل: إن أيامهم عروس وسرور دائم لا يزول، ولكن حكمة الله قد تقضي بزوال ملك، وإقامة غيره ويهيئ لذلك الأسباب من حيث لا نعلم، وهو ما حصل مع أسرة البرامكة أو ما يعرف بـ (نكبة البرامكة).

إذ كان للرشيد أخت يقال لها العباسة، وكانت ذات جمال وأدب وعلم، وكان الرشيد يحب سماعها، والحديث معها لما تمتاز به من قدرة على الحوار، وعلم بأخبار العرب وأشعارهم، وعذوبة الحديث، وكان لا يضاهيها في أدبها إلا جعفر بن برمك وكان الرشيد يحب مؤانسته ورؤيته بين الحين والآخر، وكان الرشيد يتمنى أن يجمع بين أخته وجعفر ليكتمل الأنس بهما من دون حجاب، ويستمتع بحديثهما معا وجها لوجه، فقال يوما: يا جعفر !! إنه ليس في الأرض من آنس به أكثر منك، وإن لأختي العباسة موقعا ليس أقل من ذلك، وقد نظرت في أمري معكما، فوجدت نفسي لا أصبر عنك ولا عنها، وأكون ناقص لحظ عندما أكون مع أحدكما دون الآخر، وقد رأيت شيئا يجتمع به السرور، ويكتمل فيه الأنس، فقال جعفر: وفقك الله يا أمير المؤمنين، قال الرشيد: قد زوجتك العباسة أختي تزويجا تملك فيه مجالستها والنظر إليها والاجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه، ولكن أشترط عليك شرطا، وهو عدم الخلوة بها، وألا تجلس معها

من دوني، وألا يظلك وإياها سقف بيت إلا والرشيد أمير المؤمنين ثالثكما ! ورضي جعفر بعد امتناع ؛ لأن الأمر صدر من أمير المؤمنين، ولا بد من الرضا والطاعة مهما كانت قسوة الشرط بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق، وأشهد عليه خدمه ومن حضر من خاصته ومواليه على هذا الزواج الغريب المشروط الذي لا يقبله عاقل، ولكن كبرياء الملوك وطغيانهم، وما يرونه حقا لهم دون غيرهم باعتبارهم هم الصفوة أما الرعية فهي خدم لهم مهما بلغت منزلتهم وحظوتهم لا يرقون إلى مصاهرتهم، وتزويجهم من بناتهم الأميرات، وما عليهم إلا السمع والطاعة، ورضخ جعفر المسكين مُرغما لهذا الشرط، وهو لا يعلم أن فيه موته، وأصبح جعفر والعباسة والرشيد يجتمعون على هذه الحالة، وجعفر يحاول أن يصرف النظر عن العباسة احتراما للرشيد، ووفاء لعهده الذي قطعه بشأنها، وبعد أن تكررت اللقاءات وقعت العباسة في حب جعفر، وأضمرت الاحتيال عليه، وكتبت إليه رقعة، فرد جعفر رسولها وشتمه وتهدده، وعادت فعاد بمثل ذلك، فلما استحكم اليأس عليها قصدت لأمه وتقربت إليها بالهدايا من نفيس الجواهر، ولما أحست العباسة من قربها منها ألقت إليها ما في نفسها، وأعلمتها أن في ذلك خيرا لها ولولدها من الشرف بمصاهرة أمير المؤمنين، وأوهمتها أن هذا الأمر إن وقع به الأمان لها ولولدها من زوال النعمة، وسقوط مرتبته، فاستجابت لها أم جعفر، ووعدتها بإعمال الحيلة في ذلك، وأنها سوف تجمع بينها وبين ولدها جعفر، فأقبلت على جعفر يوما فقالت له: يا بني قد وصِفت لي جارية في بعض القصور من تربية الملوك قد بلغت من الأدب والمعرفة والجمال الرائع والقد البارع والخصال المحمودة ما لم ير مثله، وقد عزمت على شرائها لك، وقريبا ستكون عندك، فاستقبل جعفر كلامها

بالقبول، وعَلَقَ قلبه بها، وتاقت نفسه إليها، وجعلت تماطله، حتى أشتد شوقه، وقويت شهوته وهو في ذلك يلح عليها بالإسراع بها، فلما علمت أنه قد عجز عن الصبر، واشتد به القلق قالت له أمه: أنا مهديتها إليك ليلة كذا وكذا، وبعثت إلى العباسة فأعلمتها بذلك، فتأهبت وتزينت وسارت إليها تلك الليلة، وعندما عاد جعفر من عند الرشيد في تلك الليلة وأبقى في نفسه بقية من الشراب لما قد عزم عليه من الدخول بالجارية المزعومة، فدخل منزله وسأل عن الجارية فأُخبر بمكانها، وذهب إليها وهو في حالة سكر ولم يتثبت من صورتها فواقعها، فلما قضى حاجته منها قالت له: كيف رأيت حيل بنات الملوك؟ قال: وأي بنات الملوك تعنين؟ وهو يرى أنها من بعض بنات الروم، فقالت له: أنا مولاتك العباسة بنت المهدي، فوثب فزعا قد زال عنه سكره ورجع عليه عقله، فأقبل على أمه وقال: لقد بعتني بالثمن الرخيص، وحملتني على المركب الوعر، فانظري ما يؤول إليه حالي، وانصرفت العباسة مشتملة منه على حمل، ثم ولدت غلاما فوكلت به خادما من خدمها يقال له (رباش) وحاضنة تسمى (برة) فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهت الصبي والخادم والحاضنة إلى مكة، وأمرتهما بتربيته، ولكن قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن أحيانا ؛ إذ حدثت جفوة بين (زبيدة) زوجة هارون الرشيد ويحي بن خالد والد جعفر الذي كان يعمل مشرفا على خدمة حرم الرشيد، فشكته إلى الرشيد، فلم يقبل كلامها في يحي لما له من منزلة كبيرة عنده، فقالت زبيدة: إن كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه، فقال: وما ذاك؟ فأخبرته بالخبر، وقصت عليه قصة العباسة مع جعفر، فانزعج وتغير وجهه، وقال لها: هل لك على ذلك من دليل أو شاهد؟ قالت: وأي دليل أدل من الولد؟ قال: وأين الولد؟ قالت: قد كان ههنا،

فلما خافت ظهور أمره وجهته إلى مكة، فقال لها: أفيعلم هذا أحد غيرك؟ قالت: ما في قصرك جارية إلا وقد علمت به، فأمسك عن ذلك، وكتم غيظه، وأظهر أنه يريد الحج، وكان ينوي في نفسه معرفة الحقيقة، فكتبت العباسة إلى الخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبي إلى اليمن، فلما وصل الرشيد إلى مكة وأوكل من يثق به بالبحث والفحص عن أمر الصبي، فوجد الأمر صحيحا، فلما قضى حجه ورجع أضمر في نفسه على إزالة نعيم البرامكة والفتك بهم، ولكن فكر في أن تكون البداية بجعفر زوج أخته الذي خان العهد، ودخل بها من ورائه، وبينما الرشيد مقيما بالأنبار، ومعه خالد وهما في أحسن حال من الزهو والطرب، وأطيب العيش، فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد مشيعا له ثم رجع فجلس على كرسي، وأمر جواريه أن يضربن ويغنين له حتى طرب ثم أمر الجميع بالخروج، ودعا خادمه المعروف الذي يدعى (ياسر) وأمره أن يأتي الساعة برأس جعفر من فوره على أي حالة هو عليها، ولم تمض ساعة إلا وكان رأس جعفر بين يدي الرشيد، فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه وجعل يذكره بذنوبه، ثم قال: يا ياسر أئتني بفلان وفلان فلما أتي بهم قال لهم: اضربوا عنق ياسر، فإني لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر.

ثم كانت نهاية أسرة البرامكة وتصفيتهم على يد هارون الرشيد بعد أن زاد نفوذهم في الدولة، وتخوف الرشيد منهم.

انظروا إلى أفعال السلطان وجبروته، يزوج أخته ويأمر زوجها بعدم الدخول بها ثم يأمر خادمه بقتل زوج أخته جعفر، ثم يقتل الخادم المسكين متعللا بعدم قدرته على رؤية قاتل جعفر ؛ لأنه يحب جعفر كثيرا، وصدق من قال: ومن الحب ما قتل !!

أيضا أتعجب من المرأة كيف لا تفكر في العواقب بعقلها وتنجر وراء عاطفتها، وتحبك الحيل من أجل الوصول إلى غايتها، وهي تعرف المصير المحتوم الذي سيترتب على فعلها، كما رأينا في قصة العباسة أخت الرشيد، والقصة التي ذكرناها سابقا وكانت بعنوان (جذيمة يقتل زوج أخته)، وأيضا حتى أم جعفر كيف تفعل ما فعلت وهي تعرف الشرط، ولا تخشى غضب الرشيد على ولدها، وكانت سببا في قتله .

ومن الحكم التي نستنتجها من وراء هذه القصة هي عدم الوثوق في الحاكم، وعدم الفرح بالمال والجاه والسلطان فقد يأتي يوم وتتبدل النعمة إلى نقمة، كما نرى في أيامنا هذه من تشتت المقربين من الأنظمة التي كانت حاكمة في كل من ليبيا زمن القذافي، وتونس، ومصر والعراق، والشواهد كثيرة على ذلك.

فما أجمل أن يعيش المرء حرا سعيدا يملك زمام أمره لا يعرف ملكا ولا أميرا ولا سلطانا، وكفاه بالله معرفة، وواسطة له على قضاء حوائجه.

طفيلي بين زنادقة

حَدَثَ أن بلغ الخليفة المأمون خبر عشرة من الزنادقة من أهل البصرة ممن يؤمنون بقول (ماني) وما عليه من الإلحاد، فأمر بحملهم إليه، وعندما تم جمعهم واحدا واحدا على يد من أرسل لإحضارهم من الحرس نظر إليهم طفيلي فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فدخل في وسطهم، ومضى معهم، وهو لا يعلم بشأنهم حتى صار بهم الحراس إلى السفينة، فقال الطفيلي: نزهة لا شك فيها، فدخل معهم السفينة، ثم جئ بالقيود، فقيد الحراس القوم والطفيلي معهم، فقال الطفيلي: فديتكم أيش أنتم؟ قالوا: بل أيش أنت؟ ومن أنت من أخواننا؟ قال: والله ما أدري، إني والله رجل طفيلي خرجت في هذا اليوم من منزلي فلقيتكم فرأيت منظرا جميلا وأشياء حسنة، ونعمة ظاهرة، فقلت: شيوخ وكهول وشباب جمعوا لوليمة، فدخلت في وسطكم، كأني من جملة أحدكم، فصرتم إلى هذا الزورق، فرأيته قد فرش بهذا الفرش الجميل، ورأيت سفرا مملوءة وجرابا وسلالا فقلت: نزهة يمضون إليها إلى بعض القصور والبساتين في هذا اليوم المبارك، فابتهجت سرورا حتى جاء هذا الموكل بكم فقيدكم وقيدني معكم، فحصل لي ما أزال عقلي، فأخبروني ما الخبر ! فضحكوا منه وتبسموا وفرحوا به ثم قالوا له: الآن قد حصلت معنا، وأوثقت في الحديد، أما نحن فنتبع عقيدة ماني، وقد عَلِم بنا المأمون، وسندخل إليه، ويسألنا عن أحوالنا، ويستكشفنا عن مذهبنا، ويدعونا إلى التوبة، والرجوع بامتحاننا بضروب من المحن: منها إظهار صورة ماني

لنا، ويأمرنا أن نتفل عليها، ونتبرأ منها، ويأمرنا بذبح طائر ما، فمن أجابه إلى ذلك نجا، ومن رفض قُتل، فإذا دعيت وامتحنت فأخبر عن نفسك واعتقادك الذي تعرفه، ثم طلبوا منه أن يقطع سفرهم معه بأخبار وطرائف الطفيليين حتى يصلوا إلى مدينة بغداد، فلما وصلوا إلى بغداد وأدخلوا على المأمون جعل يدعوهم رجلا رجلا ويسأل كل واحد منهم عن مذهبه فيخبره بالإسلام، فيمتحنه ويدعوه إلى البراءة من ماني، ويظهر له صورته ويأمره أن يتفل عليها والبراءة منها، وغير ذلك، فيأبى، فيضربه بالسيف، حتى بلغ إلى الطفيلي بعد فراغه من العشرة، فقال المأمون: من هذا؟ قالوا والله ما ندري، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به، فقال له المأمون: ما خبرك؟ قال: يا أمير المؤمنين، إمرأتي طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئا، وإنما أنا رجل طفيلي، وقص عليه خبره من أوله إلى آخره، فضحك المأمون، ثم أظهر له صورة ماني فلعنها وتبرأ منها، وقال: أعطينيها حتى أتبول عليها، والله ما أدري ما ماني: أيهوديا كان أم مسلما، فقال المأمون: يؤدب على فرط تطفله ومخاطرته بنفسه.

وكان حاضرا المجلس ابراهيم بن المهدي فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي ذنبه وأحدثك بحديث عجب في التطفيل عن نفسي، ثم قص عليه هذه القصة :

أمير ويتطفل

قال إبراهيم بن المهدي: يا أمير المؤمنين، خرجت يوما أتجول في شوارع بغداد، حتى انتهيت إلى موضع فشممت منه رائحة زكية في دار عالية، وقدور قد فاح منها طيب الأكل، فتاقت نفسي إليها، فوقفت على خياط فقلت: لمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من التجار من بائعي البقوليات، قلت: ما اسمه؟ قال: فلان بن فلان، فرفعت عينيَّ إلى شباك، فنظرت إلى كف قد خرجت من الشباك ومعصم ما رأيت أحسن منهما قط، فشغلني حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور، فبقيت باهتا وقد ذُهِلَ عقلي، ثم قلت للخياط: هو ممن يشرب النبيذ؟ قال: نعم، وأظن أن عنده اليوم عزومة، ولا ينادم إلا تجارا مثله، وبينما أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب، فقال لي الخياط: هذان صاحباه، قلت: ما اسماهما وما كُناهما؟ فقال: فلان وفلان، فحركت دابتي حتى دخلت بينهما، وقلت: جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله، وسايرتهما إلى الباب، فقدماني، فدخلت ودخلا، فلما رآني صاحب المنزل لم يشك في أني لهما صاحب، فرحب بي، وأجلسني في أحسن موضع، ثم جئ بالمائدة، وما تحويه من طيب الطعام، فقلت في نفسي هذه الألوان قد أكلتها وبقى الكف والمعصم، ثم رفع الطعام فغسلنا أيدينا، ثم صرنا إلى مجلس المنادمة، فإذا هو أنبل مجلس، وأجل فرش، وجعل صاحب المجلس يلطف بي ويقبل علي بالحديث، والرجلان لا يشكان أنه يعرفني معرفة جيدة، حتى إذا شربنا أقداحا خرجت علينا جارية

جميلة فسلمت دون خجل، وجلست، وأُتي لها بعود فوضع في حجرها، فأحكمت أوتاره، ثم اندفعت تغني :

توهمها طرفي فآلـم خدهـا فصار مكان الوهم من نظري أثرُ
وصافحها كفـي فآلـم كفهـا فمـن لمسِ كفـي فـي أناملها عقرُ
ومرت بقلبي خاطرا فجرحتها ولم أر شيئا قـط يجرحـه الفكـرُ

فهجت والله يا أمير المؤمنين، وطربت لحسن غنائها وحذقها، واندفعت تغني ثانية وثالثة حتى أني حسدتها على حذقها ومعرفتها بالغناء، وإصابتها معنى الشعر، وأنها لم تخرج عن الفن الذي ابتدأته، فقلت: بقي عليك يا جارية شيء، فغضبت وضربت بعودها الأرض، ثم قالت: متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء؟ فندمت على ما كان مني، ورأيت القوم قد تغيروا إلي، فقلت أليس ثم عود؟ قالوا بلى يا سيدنا، فأُتيت بعود، فأصلحت من شأنه ما أردت، واندفعت أغني :

ما للمنازل لا يجبن حزينـا؟ أصممن أم بعـد المدى فبلينا ؟
راحوا العشية روحة مذكور إن متن متن، وإن حيين حيينا

فما أكملت الغناء حتى خرجت الجارية فأكبت على رجلي تقبلها، وهي تقول: المعذرة والله لك يا سيدي، فما سمعت من يغني هذا الصوت مثلك، وقام مولاها وكل من كان عنده فصنعوا كصنعها، وطرب القوم، وزادوا الشراب، ثم اندفعت أغني :

أبالله هل تمسين لا تذكرينني وقد سجمت عيناي من ذكرك الدما
إلى الله أشكو بُخلها وسماحتي لهـا عسـل منـي وتبـذل علقمـا
فردي مصاب القلب أنت قتلته ولا تتركيـه ذاهـل العقـل مغرمـا
إلى اللـه أشكـو أنهـا أجنبيـة وأني لها بالـود مـا عشت مكرمـا

فيقول أبراهيم: فوالله يا أمير المؤمنين قد جاء من طرب القوم ما خشيت أن يخرجوا من عقولهم، فأمسكت ساعة، حتى إذا هدأ القوم غنيت ثانية فجعلت الجارية تصيح وتقول: هذا والله الغناء يا مولاي، وسكر القوم، وخرجوا من عقولهم، ثم أمر صاحب الدار غلمانه بالخروج، وخلوت معه وصاحبيه فشربنا أقداحا، ثم قال: يا سيدي، ذهب والله ما خلا من أيامي باطلا إذ كنت لا أعرفك، فمن أنت يا مولاي؟ فلم يزل يلح علي حتى أخبرته فقام فقبل رأسي وقال: يا سيدي، وأني أعجب أن يكون هذا الأدب لمثلك، وإذا أنا مع الخلافة ولا أعلم، وسألني عن قصتي وكيف حملت نفسي على ما فعلته، فأخبرته خبر الطعام والكف والمعصم، فقال: يا فلانة، لجارية له، قولي لفلانة تنزل، فجعل ينزل إلي جواريه واحدة واحدة، فأنظر إلى كفها وأقول: ليست هي، حتى قال: والله ما بقى غير أمي وأختي، ولأنزلتهما إليك، فعجبت يا أمير المؤمنين من كرمه وسعة صدره، فقلت له: جعلت فداك أبدأ بالأخت قبل الأم فعسى أن تكون صاحبتي فقال: صدقت، ففعل، فلما رأيت كفها ومعصمها قلت: هي هي، جعلت فداك، فأمر غلمانه من فوره فذهبوا إلى عشرة من جلة جيرانهم فأحضروا، وجئ له بعشرين ألف درهم ثم قال: هذه أختي فلانة، وأنا أشهدكم أني قد زوجتها من سيدي ابراهيم بن المهدي وأمهرتها عنه بعشرين ألف درهم، فرضيت وقبلت النكاح، ودفعت إليها عشرة ألاف وفرقت الأخرى على المشايخ، وقلت لهم: أعذروا فهذا الذي حضرني في هذا الوقت، فقبضوها وانصرفوا، ثم قال: يا سيدي أمهد لك بعض البيوت تنام فيها مع أهلك، فقلت: بل أحضر من يحمل معي، وأحملها إلى منزلي فقال: افعل ما شئت، فأحضرت من يحمل الجهاز وحملتها إلى منزلي فوالله يا أمير المؤمنين لقد

حمل لي من الجهاز ما ضاق عنه بعض دوري.

فتعجب المأمون من كرم ذلك الرجل، وأطلق الطفيلي، وأجازه بجائزة حسنة، وأمر إبراهيم بإحضار ذلك الرجل فصار من خواص المأمون وأهل مودته.

وللمعلومية: أن إبراهيم بن المهدي هو ابن الخليفة العباسي المهدي ويعتبر عم المأمون من جهة أبيه، وقد خرج عليه، ولكن المأمون قبض عليه في النهاية ثم عفا عنه، وكان يجيد العزف والغناء، وله حكايات عديدة في التطفل والغناء، ولقد عاب عليه أهله أول الأمر حب الغناء باعتباره لا يليق بالأمراء، وهي عادة ما زالت العرب حتى الآن تحتفظ بها ؛ إذ يُحكى أن الفنان عبد الحليم حافظ كان يحب امرأة وبالرغم من أنها كانت ممثلة، ولكنها من أسرة راقية رفضت تزويجها من عبد الحليم لا لسبب إلا ؛ لأنه مغنٍ فقط، وكأن الغناء عيبا ويخص العائلات الدنيا فقط، ورأينا في المقابل كيف أن الشعب الأمريكي اختار يوما رئيسا له ممثلا مشهورا في السينما الأمريكية وهو (ريغن)، وأذكر أن معمر القدافي قد استهزأ بالشعب الأمريكي واستغرب كيف أنهم يختارون ممثلا يحكمهم، وذلك عندما حدث خلاف بينه وبين ريغن في فترة الثمانينات من القرن الماضي. هذه هي عنجهية الحكام، وبخاصة العرب ؛ إذ يرضون لغيرهم ما لا يرضون لأنفسهم، ويقبل جلهم على جميع صنوف الفنون من طرب ورقص وغناء وشرب خمر وجميع المنكرات تقريبا، ويحسبون أنفسهم أنهم من النبلاء الشرفاء، ولا ينزلون إلى منازل هؤلاء، ولكن كما يقول المثل (لو تطلع الشمس في القائلة يا ما تشوف من مخانب أي سرّاق).

نصر امرأة فنصره الله

كان إسحاق بن إبراهيم بن مصعب من قضاة بغداد المعروفين، وكانت له أخبار حِسان، ومن ظريف أخباره أنه رأى في منامه كأن النبي (ﷺ) يقول له: أطلق القاتل، فارتاع لذلك روعا عظيما، ونظر في الكتب الواردة لأصحاب الحبوس فلم يجد فيها ذكر قاتل، فأمر بإحضار (السندي وعباس) فسألهما: هل رُفِعَ إليهما أحد أُدعي عليه بالقتل؟ فقال له العباس: نعم، وقد كتبنا بخبره، فأعاد النظر، فوجد الكتاب بين الكتب، وإذا الرجل قد شُهِدَ عليه بالقتل وأقر به، فأمر إسحاق بإحضاره، فلما دخل عليه ورأى ما به من الارتياع قال له: إن صدقتني أطلقتك، فابتدأ يخبره بخبره، وذكر له أنه كان هو وبعض من أصحابه يرتكبون كل عظيمة، ويستحلون كل محرم، وأنه كان اجتماعهم في منزل بمدينة أبي جعفر المنصور يعتكفون فيه على كل بلية، فلما كان في هذا اليوم جاءتهم عجوز كانت تساعدهم على الفساد، ومعها امرأة بارعة الجمال، فلما توسطت المرأة الدار صرخت صرخة فبادرت إليها من بين أصحابي، فأدخلتها بيتا، وسكنت من روعها، وسألتها عن قصتها فقالت: الله الله فيّ، فإن هذه العجوز خدعتني وأعلمتني أن في خزانتها خاتم من ذهب لم يُرَ مثله، فشوقتني إلى النظر فيه، فخرجت معها واثقة بقولها وإذا بها قد رمتني بينكم، وجدي رسول الله (ﷺ) وأمي فاطمة، وأبي الحسن بن علي، فاحفظوهم فيّ، قال الرجل: فضمنت خلاصها وخرجت إلى أصحابي فعرفتهم بذلك فكأني أغريتهم بها، وقالوا:

لما قضيت حاجتك منها أردت صرفنا عنها، وبادروا إليها، وقمت دونها أمنع عنها، فتفاقم الأمر بيننا إلى أن نالني جراح، فعمدت إلى أشدهم كان في أمرها، وأكلبهم على هتكها فقتلته، ولم أزل أمنع عنها إلى أن خلصتها سالمة، وتخلصت المرأة آمنة مما خافته على نفسها، فأخرجتها من الدار فسمعتها تقول: سترك الله كما سترتني، وكان لك كما كنت لي، وسمع الجيران الضجة فجاءوا إلينا، والسكين في يدي والرجل يتخبط في دمه، فجئ بي على هذه الحالة، فقال له إسحاق: قد عرفت تضحيتك وما كان من حفظك للمرأة، ولذلك وهبتك لله ورسوله، قال: فوحق من وهبتني له لا عاودت معصية أبدا، ولا دخلت في ريبة حتى ألقى الله، ثم أخبره إسحاق بالرؤيا التي رآها، وأن الله لم يُضِعّ له نصرته للمرأة، وعرض عليه هدايا كثيرة فأبى الرجل قبول شيء من ذلك .

الخلاصة: من تكون نصرته لله ورسوله فلن يضيّعه الله أبدا، وسيكون جزاءه وافرا في الدنيا والآخرة، ولنا في قصة هذا الرجل عبرة.

دهاء وحمية معاوية

غـزا المسلمون في أيـام الخليفة معاوية بن أبـي سفيان مدينة القسطنطينية فتم أسر بعض المسلمين من قبل الروم، فأوقفوا بين يدي ملك الروم، فتكلم أحد أسرى المسلمين، فدنا منه أحد البطارقة ممن كان واقفا بين يدي الملك، فلطم وجه الرجل المسلم فآلمه، وكان الرجل من قريش، فصاح: وإسلاماه، أين أنت يا معاوية إذ أهملتنا وضيعت ثغورنا، وحكّمت العدو في ديارنا ودمائنا وأعراضنا، فوصل الخبر إلى معاوية، فآلمه، وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه وامتنع من الناس، ولم يظهر ذلك لأحد من الخلق، ثم استقر به الأمر في إعمال الحيلة بإقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن تم له ذلك، وعاد ذلك الرجل إلى ديار الإسلام فدعاه معاوية وأبره وأحسن إليه، ثم قال له: لم نهملك ولم نضيعك ولا أبحنا دمك ولا عرضك، ومعاوية مع ذلك لم يهدأ له خاطر، ويعمل الحيلة للإنتقام للرجل من البطريق الذي لطمه على وجهه، ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان به عارفا بكثرة الغزوات في البحر، وأخبره بما عزم عليه، وسأله إعمال الحيلة فيه والتأني له، ثم اتفق معه على أن يدفع له مالا عظيما يبتاع به أنواعا من الطرف والجهاز والطيب والجواهر وغير ذلك، وابتنى له مركبا لا يُلحق في جريه وسرعته، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص، فاتصل برئيسها وأخبره أن معه هدايا للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصدا إلى الملك وخواصه بذلك، فتم مراسلة الملك بذلك وأعلم

بحال الرجل، فأذن له في الدخول، فلما وصل إلى القسطنطينية أهدى الملك وجميع بطارقته من هداياه النفيسة، وبايعهم وشاراهم ولم يعطِ البطريق الذي لطم وجه العربي شيئا، والتزم بما رسمه له معاوية، ثم عاد إلى الشام، وقد أمره البطارقة بابتياع حوائج ذكروها وأنواع من المتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سرا وذكر له من الأمر ما جرى، فساعده معاوية على شراء جميع ما طلب منه، وما علم أن رغبتهم فيه، ثم قال له معاوية: إن ذلك البطريق إذا عدت إلى كرتك هذه سيلومك عن تخلفك عن بره، واستهانتك به، فاعتذر إليه، ولاطفه بالقصد والهدايا، واجعله القيم بأمرك، والراعي لأحوالك، وانظر ماذا يطلب منك حين عودتك إلى الشام، فإن منزلتك ستعلو، وأحوالك تزداد عندهم، فإذا أتقنت جميع ما آمرتك به، وعلمت غرض البطريق منك، وأي شيء يأمرك بابتياعه لتكون الحيلة بحسب ذلك، فلما رجع الصوري إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه وزيادة فزادت منزلته وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان في بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك وقال له: ما ذنبي إليك؟ وبماذا استحق غيري أن تقصده وتقضي حوائجه وتعرض عني؟ فقال له الصوري: أنا رجل غريب أدخل إلى هذا الملك والبلد كالمتنكر خوفا أن يراني أحد من أسارى المسلمين وجواسيسهم فيصل خبري إلى المسلمين فينتهي أمري ؛ وإذ قد علمت ميلك إليّ فلست أحب أن يعتني بأمري سواك، ولا يقوم به عند الملك وغيره غيرك، فأمّرني بجميع حوائجك، وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام، ثم أهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجواهر والطرائف من الثياب، ولم يزل هذا فعله يتردد من الروم

على معاوية، ومن معاوية على الروم، ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج حتى مضى على ذلك سنوات، فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري: وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتهيت أن تغمرني بقضاء حاجة وتمن بها علي: أن تبتاع لي بساطا وصفه كذا وكذا بمخاده ووسائده يكون فيه من أنواع الألوان من الحمرة والزرقة وغيرهما ولو بلغ ثمنه كل مبلغ ؛ فأجابه على ذلك، وكان من شأن الصوري إذا ورد إلى القسطنطينية أن تكون مركبه بالقرب من موضع ذلك البطريق، وللبطريق ضيعة كبيرة وفيها قصر مشيد ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية يقع على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المتنزه، فانصرف الصوري إلى معاوية سرا وأخبره بالحال، فأحضر معاوية بساطا بوسائده ومخاده ومجلسا فانصرف به الصوري مع جميع ما طلب منه من دار الإسلام، وقد شرح له معاوية كيف يكمل الحيلة، وكان الصوري وصل من الأمر حتى صار كأحدهم في المؤانسة والعشرة، وفي الروم طمع وشره، فلما وصل الصوري إلى القسطنطينية وأُخبر أن البطريق في ضيعته فرش ذلك البساط، وجهز المجلس بالوسائد والمخاد في صحن المركب ومجلسه والرجال تحت المجلس بأيديهم المجاديف جاهزين للانطلاق والبطريق جالس في شرفة القصر مع حرمه وقد أخذت منه الخمر وعلاه الطرب وذهب به الفرح والسرور كل مذهب، فلما رأى البطريق مركب الصوري غنى طربا، وصاح فرحا وسرورا وابتهاجا بقدومه فدنا من أسفل القصر، واشرف البطريق على المركب، فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط ونظم ذلك الفرش كأنه رياض تزهر فلم يستطع اللبث في موضعه حتى نزل قبل أن يخرج ذلك الصوري من مركبه إليه، فطلع المركب، فلما استقرت قدماه في المركب ودنا من

المجلس ضرب الصوري برجله على من تحت البساط، وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب، فأبحر المركب بسرعة الريح في البحر، وقد أوثق ذلك البطريق كتافا ولم تمر سوى أيام وكان البطريق بين يدي معاوية، وقد فرح بإحضاره وسر سرورا عظيما لإتمام الحيلة، وأيقن معاوية بالظفر فقال: عليّ بالرجل القرشي، فأتي به، وقد حضر خواص الناس فأخذوا مجالسهم، حتى انغصّ المجلس بأهله، فقال معاوية للقرشي: قم فاقتص من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط ملك الروم فإنا لم نضيعك ولا أبحنا دمك وعرضك، فقام القرشي ودنا من البطريق فقال معاوية: انظر لا تتعدّ ما جرى عليك منه، واقتص منه على حسب ما صنع بك، ولا تتعدّ، وراع ما أوجب الله عليك من المماثلة، فلطمه القرشي لطمات، وركزه في حلقه، ثم انكب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما أضاعك من سوّدك، ولا خاب فيك أمل من أمّلك، أنت ملك لا تضام، تمنع حماك، وتصون رعيتك، وأغرق في دعائه ووصفه، وأحسن معاوية إلى البطريق، وأعطاه بعض الهدايا وأرجعه إلى بلاده مع البساط وقال له: قل إلى ملكك تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك، وقال للصوري سر معه حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن معه من غلمانه الذين صعدوا المركب معه، وحمل الصوري البطريق من ساعته ومعه الهدايا والأمتعة فتباشرت الروم بقدومه، وتلقوه مهنئين له من الأسر، فكافأ ملك الروم معاوية على ما كان من فعله بالبطريق والهدايا، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه، وقال الملك: هذا أمكر الملوك وأدهى العرب، ولهذا قدمتّه العرب عليها، فساس أمرها، والله لو همَّ بأخذي لتمت له الحيلة عليّ.

هذا هو معاوية الذي اشتهر بالحكمة والدهاء والحلم وحسن سياسة الأمور، وكان صحابيا، وأحد كتاب الوحي مع النبي (ﷺ) فانظروا كيف كان العربي غاليا في ذلك الزمن، ولا يترك للضيم أبدا من عدوه، وعندما نقارنه باليوم نرى كم رخيصا الدم العربي، وكم رخيصا الإنسان العربي، وليس لنا إلا أن نسأل الله أن يلطف بحالنا، ويصلح أمر حكامنا، وينصرنا على أعدائنا.

ابن المغازي يُضحك المعتضد

كان ابن المغازي صاحب دعابة، ومن يراه ويسمع كلامه لا يستطيع أن لا يضحك، وحدث يوما أن قال لخادم الخليفة العباسي المعتضد: أدخلني على أمير المؤمنين ولك بعض جائزتي التي أحصل عليها منه، فاشترط العبد نصف الجائزة، فقال ابن المغازي للعبد ' أنا رجل ضعيف ولي عيال وقد منّ الله عليّ بك، فما عليك إن أخذت بعضها سدسها أو ربعها، فأبى إلا نصفها، فطمعت في النصف وقنعت به، فأخذ بيدي العبد وأدخلني على أمير المؤمنين، فسلمت، ووقفت في الموضع الذي أوقفت فيه، فرد عليّ السلام وقال لي: أنت ابن المغازي؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: قد بلغني انك تحكي وتُضحك الناس، قلت نعم يا أمير المؤمنين، فقال: فهات ما عندك، فإن أضحكتني أجزيتك بخمسمائة درهم، وإن لم أضحك فما لي عليك؟ فقلت: ما لي إلا قفاي فاصفعه ما أحببت وكما شئت، وبما شئت، فقال لي: قد أنصفت فإن ضحكت فلك ما ضمنت، وإن لم أضحك صفعتك بهذا الجراب عشر صفعات، فقلت في نفسي: ملك لا يصفع إلا بشيء يسير، وبشيء خفيف هين، ثم أخذت في النوادر والحكايات، ولم أدع حكاية إلا أحضرتها وأتيت بها حتى نفد جميع ما عندي وتصدع رأسي وسكت وفترت وبردت، فقال لي: هيه هات ما عندك، وهو مغضب لا يضحك ولا يبتسم، ولم يبق ورائي خادم إلا هرب، ولا غلام إلا ذهب لما استفزهم من الضحك ولم يقدروا خوفا من أمير المؤمنين فقلت: يا أمير المؤمنين قد نفد والله ما معي، وتصدع

رأسي، وذهب معاشي، وما رأيت قط مثلك، وما بقيت لي إلا نادرة واحدة ،فقال: هاتها، فقلت: يا أمير المؤمنين وعدتني أن تصفعني عشرا وجعلتها مكان الجائزة، فأسألك أن تضعّف الجائزة وتضيف إليها عشرا، فأراد أن ضحك فاستمسك، ثم قال: نفعل، يا غلام خذ بيده، فأخذ بيدي ومددت قفاي فصفعت بالجراب صفعة ؛ فكأنما سقط على قفاي قلعة، وإذا فيه حصى مدور كأنه قطع من حديد، فصفعت بها عشرا كادت أن تنفصل رقبتي وينكسر عنقي، وطنت أذناي، وقدح الشعاع من عيني، فلما استوفيت العشرة صحت: يا سيدي نصيحة، فقال: ما نصيحتك؟ فقلت: يا سيدي ليس في الدنيا أحسن من الأمانة، ولا أقبح من الخيانة، وقد ضمنت للخادم الذي أدخلني عليك نصف الجائزة على قلتها أو كثرتها، وأمير المؤمنين أطال الله بفضله وكرمه قد أضعفها، فقد استوفيت نصفها، وبقى لخادمك نصفها، فضحك حتى استلقى، واستفز ما كان قد سمعه مني أولا وتحامل له وصبر عليه، فما زال يضرب بيده ويفحص برجله ويمسك بطنه حتى إذا سكن ضحكه ورجعت إليه نفسه قال: عليّ بفلان الخادم فأتي به، وأمر بصفعه، فقال: يا أمير المؤمنين أي شيء قضيتي؟ وأي جناية جنايتي؟ فقلت له: هذه جائزتي وأنت شريكي وقد استوفيت نصفها وبقى نصيبك منها، فلما أخذه الصفع وطرق قفاه الصافع أقبلت عليه أقول له: قلت لك إني ضعيف ولي عيال وشكوت إليك الحاجة والقلة، وأقول لك يا سيدي لا تأخذ نصفها، لك سدسها لك ربعها، وأنت تقول: ما آخذ إلا نصفها، ولو علمت أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جوائزه صفع وهبتها لك كلها، فعاد إلى الضحك من قولي للخادم وعتابي له، فلما استوفى صفعه وسكن أمير المؤمنين من ضحكه أخرج من تحت متكأه صرة قد كان أعدها

فيها خمسمائة درهم، ثم قال له وقد أراد الانصراف: قف، هذه كنت أعددتها لك، فلم يدعك فضولك حتى أحضرت لك شريكا فيها، ولعلني كنت أمنعه منها، فقلت: يا أمير المؤمنين، أين الأمانة وقبح الخيانة؟ وددت أنك كنت تدفعها كلها إليه، وتصفعه مع العشر عشراً أخرى وتدفع له الخمسمائة درهم، فقسم الدراهم بيننا وانصرفنا.

جبلة بن الأيهم يفر من عدل عمر بن الخطاب

لما أراد جبلة بن الأيهم الغساني أن يسلم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يُعلمه بذلك، ويستأذنه في القدوم عليه، فسر بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه أن أقدم ولك ما لنا وعليك ما علينا: فخرج جبلة في مائتي فارس، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوشي المنسوج بالذهب والفضة، ولبس يومئذ جبلة تاجه وفيه قرط مارية وهي جدته، فلم يبق يومئذ بالمدينة أحد إلا خرج ينظر إليه حتى النساء والصبيان، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه، وبقى جبلة في المدينة حتى حضر موسم الحج من عامة الناس مع عمر بن الخطاب، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره دون قصد رجل من بني فزارة فحله، فالتفت إليه جبلة مغضبا، فلطمه فهشم أنفه، فاشتكاه الفزاري إلى عمر بن الخطاب، فبعث إليه عمر وقال له: ما دعاك يا جبلة أن لطمت أخاك هذا الفزاري فهشمت أنفه؟ فقال جبلة: إنه وطئ إزاري فحله، ولولا حرمة هذا البيت لضربت بين عينيه بالسيف، فقال له عمر: أما أنت فقد أقررت على نفسك، إما أن تُرضيه وإلا أنصفته منك، قال: أتتصفني منه وأنا ملك وهو سوقه؟ قال عمر: يا جبلة إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فلا فرق بينك وبينه إلا بالعافيه، قال: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية، قال عمر: دع عنك ذلك، قال: إذن أتنصر قال عمر: إن تنصرت ضربت عنقك، ولما سمع جبلة وقومه تهديد عمر حصلت جلبة، وكادت تكون فتنة فقال جبلة: أخرني إلى غدٍ يا أمير المؤمنين،

قال: ذلك لك. فلما كان جنح الليل خرج هو وأصحابه حتى وصل إلى القسطنطينية ودخل على هرقل وتنصر، وأقام عنده، وسر هرقل بقدوم جبلة إليه ومنحه أموالا وأراضي.

وبعد مدة بعث عمر بن الخطاب رسولا يدعو هرقل إلى الإسلام، ولكن هرقل أجابه إلى المصالحة على غير الإسلام، فلما أراد هرقل أن يكتب جواب عمر قال للرسول: ألقيت ابن عمك جبلة الذي أتانا راغبا في ديننا؟ قال الرسول: ما لقيته، قال: ألقه ثم أتني أعطيك جواب كتابك. وذهب الرسول إلى جبلة، فإذا عليه من الحجاب والبهجة والجمع مثل ما على باب هرقل. قال الرسول: فلم أزل أتلطف في الإذن حتى أذن لي، فدخلت عليه، فرأيت رجلا أصهب اللحية وكان عهدي به أسود اللحية والرأس، فنظرت إليه فنكرته، فإذا هو، فلما عرفني رفعني معه على السرير، فجعل يسألني عن المسلمين فذكرت خيرا وقلت: قد ازدادوا أضعافا على ما تعرف، فقال كيف تركت عمر بن الخطاب؟ قلت: بخير، فرأيت الغم قد تبين فيه لما ذكرت له من سلامة عمر، قال: فانحدرت عن السرير، فقال: لِمَ تأب الكرامة التي أكرمتك بها؟ قلت: إن رسول الله (ﷺ) نهى عن هذا، قال: نعم (ﷺ)، ولكن نق قلبك من الدنس ولا تبال علام قعدت، فلما سمعته يقول (ﷺ) طمعت فيه، فقلت له: ويحك يا جبلة ! ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟ قال: أبعدها ما كان مني، قلت: نعم قد فعل رجل من بني فزارة أكثر مما فعلت أرتد عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام، وقُبل ذلك منه، وتركته بالمدينة مسلما، قال: ذرني من هذا، إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته، ويوليني الأمر من بعده رجعت إلى الإسلام، قال: ضمنت لك التزويج، ولم أضمن لك الإمرة، قال: فأومأ إلى خادم

بين يديه، فذهب مسرعا، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوضعت ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة، وقال لي: كل، فقبضت يدي وقلت: إن رسول الله (ﷺ) نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة، فقال: نعم (ﷺ) ولكن نق قلبك وكل فيما أحببت، ثم أمر الجواري أن يطربنه، فاندفعن يتغنين بعيدانهن ببعض أشعار حسان بن ثابت حتى طرب طربا شديدا، ثم سألني عن حسان بن ثابت: أحي هو؟ قلت: نعم تركته حيا، فأمر لي بكسوة ومال ونوق ثم قال لي: إن وجدته حيا فادفع له الهدية وأقرئه سلامي، وإن وجدته ميتا فأدفعها إلى أهله، وانحر الجمال على قبره. فلما قدمت على عمر أخبرته خبر جبلة وما دعوته إليه إلى الإسلام، والشرط الذي شرطه، وإني ضمنت له التزوج ولم أضمن له الإمرة، قال عمر: هلاّ ضمنت له الإمرة؟ فإذا أفاء الله به الإسلام قضى عليه بحكمه عز وجل. ثم ذكرت له الهدية التي أهداها إلى حسان بن ثابت. فبعث إليه وقد كف بصره، فأتى به وقائد يقوده، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين إني لأجد رياح آل جفنة عندك ؛ قال: نعم، هذا رجل أقبل من عنده ؛ قال حسان للرسول: هات يا بن أخي، إنه كريم من كرام مدحتهم في الجاهلية فحلف ألا يلقى أحدًا يعرفني إلا أهدى لي معه شيئا. فدفع الرسول إليه الهدية والمال والثياب وأخبره بما كان أمر به في الإبل إن وجده ميتا ؛ فقال: وددت أني كنت ميتا فنحرت على قبري.

ثم بعث عمر بن الخطاب الرسول مرة أخرى إلى قيصر وأمره أن يضمن لجبلة ما اشترط به، فلما وصل إلى القسطنطينية وجد الناس منصرفين من جنازة جبلة.

عمرو بن العاص ينجو بأعجوبة

يُحكى أن عمرو بن العاص لما فتح قيسارية بفلسطين سار حتى نزل غزة، فبعث إليه ملكها: أن أبعث إليّ رجلا من أصحابك أكلمه. ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحدٌ غيري. ثم خرج حتى دخل عليه فكلمه، فسمع كلاما لم يسمع قط مثله، فقال الملك: حدثني: هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا عندهم ؛ إذ بعثوا بي إليك وعرضوني لما عرضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي؟ فأمر الملك لعمرو بجائزة وبكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه، فخرج عمرو من عنده فمر برجل من نصارى غسان فعرفه فقال: يا عمرو، قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج. ففطن عمرو لما أراده الغساني فرجع إلى الملك، فقال له: ما ردك إلينا؟ قال عمرو: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي، فأدرت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت، عجّل بهم. وبعث إلى البواب أن خلِ سبيله، فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمِن، قال: لا عدت لمثلها أبدا.

فلما صالحه عمرو ودخل عليه ذلك الملك قال له: أنت هو؟ قال: نعم، على ما كان من غدرك.

هذا هو عمرو بن العاص المشهور بدهائه وفطنته وذكائه في الجاهلية والإسلام، وهكذا كان الخلفاء الراشدون يولون الأمر لأهله

كما نقول اليوم الرجل المناسب في المكان المناسب، ولو كان هذا حالنا لكنا في مقدمة العالم كما كنا بالأمس، ولكان حالنا غير هذا الحال، وندعو الله أن يهدي أولي الأمر منا ويرشدهم إلى طريق الخير والهداية والصلاح.

الهرمزان يتحايل على عمر بن الخطاب

أُتي بالهرمزان أسيرا إلى عمر بن الخطاب، فقيل له: يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العجم وصاحب رستم قائد جيوش الفرس، فقال له عمر: أعرض عليك الإسلام نصحا لك في عاجلك وآجلك. قال: يا أمير المؤمنين أنا مقتنع بالدين الذي أنا عليه، ولا أرغب في دخول الإسلام. فدعا عمر بالسيف. فلما هم بقتله قال: يا أمير المؤمنين، شربة من ماء أفضل من قتل على ظمأ. فأمر له عمر بشربة من ماء. فلما أخذها قال له: أنا آمن حتى أشربها؟ قال عمر: نعم. فرمى بها وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج. قال عمر: صدقت، وأمر أن يُرفع عنه السيف، فلما رُفع عنه قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وما جاء به حق من عنده. قال عمر: أسلمت خير إسلام، فما أخرك؟ قال الهرمزان: كرهت أن يُظن بي أني أسلمت جزعا من السيف، وأن يقال ترك دينه خوفا من القتل. فقال عمر: إن لأهل فارس عقولا بها استحقوا ما كانوا فيه من المُلك ؛ ثم أمر به أن يُبر ويُكرم. وكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس.

والوفاء ليس غريبا على العرب، وهذا الفعل حدث شبيها له مع معن بن زائدة حيث أُتي بأسير في جملة الأسرى فأمر معن بقتلهم، فقال له الأسير: أتقتل الأسرى عطشا يا معن؟ فأمر معن بهم فسقوا، فلما شربوا قال: أتقتل أضيافك يا معن؟ فخلى سبيلهم.

فهل يا ترى نسمع أو نرى مثل هذا الوفاء اليوم في قادتنا وأمرائنا ؟

كيف وصل الحجاج إلى الإمارة ؟

المغيرة بن شعبة صحابي من صحابة رسول الله (ﷺ) دخل يوما على زوجته تدعى (فارعة) فوجدها تُخلل أسنانها بعد أن صلت صلاة الظهر فقال لها: إن كنت تتخللين من طعام البارحة فإنك لقذرة، وإن كنت من طعام اليوم إنك لنهمة، ثم قال: كنت فبنت أي كناية على أنها طالق، فردت عليه قائلة: والله ما فرحنا إذ كنا، ولا أسفنا إذ بنا، وما هو بشيء مما ظننت، ولكني استكت فبقيت شظية في فمي من السواك فحاولتها لأخراجها ؛ فندم المغيرة على ما بدر منه واستعجاله بطلاقها دون أن يتثبت، فخرج آسفا، فلقي يوسف بن أبي عقيل، فقال له: هل لك إلى شيء أدعوك إليه؟ قال: وما ذاك؟ قال: إني طلقت الساعة سيدة نساء ثقيف، فتزوجها فإنها تنجب لك، فتزوجها يوسف فولدت له الحجاج.

ثم كبر الحجاج، وحفظ القرآن الكريم، وأصبح معلما للصبيان بالطائف، وكان أبوه معلما أيضا، وفي ذلك يقول الشاعر :

فماذا عسى الحجاج يبلغ جُهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد إياد

زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويُغادي

ثم لحق الحجاج بن يوسف بروح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته إلى أن شكا عبد الملك بن مروان لمن حضر في مجلسه ما رأى من انحلال عسكره، وعدم تقيدهم

بالأوامر، وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله، فقال روح بن زنباع: يا أمير المؤمنين إن في شرطتي رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله، وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف. قال عبدالملك: قد قلدناه ذلك، فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل أو النزول إلا أعوان روح بن زنباع وزير عبدالملك بن مروان، فوقف عليهم يوما وقد رحل الناس وهم مازالوا على طعام يأكلون، فقال لهم الحجاج: ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ فقالوا له: أنزل يا بن اللخناء فكل معنا، فقال: هيهات ! ذهب ما هناك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط، وطوفهم في العسكر، وأمر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار، فغضب روح بن زنباع ودخل على عبد الملك بن مروان باكيا، فقال له عبد الملك: مالك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي ضرب عبيدي وأحرق فسطاطي، قال عبدالملك: عليّ به. فلما دخل عليه الحجاج قال: ما حملك على ما فعلت؟ قال الحجاج: ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين، قال: ومن فعله؟ قال: أنت والله فعلته، إنما يدي يدك وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين إلا أن يعّوض روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين، وللغلام غلامين ولا يلومني فيما قدمني له. فعّوض عبد الملك روح بن زنباع ما ذهب له، وتقدم الحجاج في منزلته، وكان ذلك أول ما عرف من حزمه وكفايته.

والعبر التي نستخلصها من هذه القصة أن لا نستعجل في الحكم قبل أن نتثبت حتى لا نندم حين لا ينفع الندم كما استعجل المغيرة بن شعبة في طلاق امرأته.

أيضا لاحظت أن المعلم حتى في الزمن الغابر دائما أقل قدرا، ولا يلقى التقدير والاحترام الذي يستحقه، كما رأينا في القصة كيف

يعيّرون الحجاج بمعلم الصبيان حتى أنهم قالوا فيه شعرا، ويبدو أن هذه اللعنة مازالت وراء المعلم إلى يومنا هذا.

والملاحظة الأخيرة التي لاحظتها من القصة: وهي أن بعض البشر لا تستقيم إلا بالقوة، ولا يقدر على حكمهم إلا حاكم جبار متسلط تخافه، وتطيع أوامره والشواهد على ذلك كثيرة وبخاصة من التاريخ العربي، والله أعلم.

قصة حكم النجاشي للحبشة

النجاشي كان أبوه ملكا على قومه، وكان لم يكن له من ولد إلا النجاشي، وحدث أن ثار أهل الحبشة وقتلوا ملكهم أبا النجاشي وملكوا أخاه، وكان له ابن واحد لا غير، ونشأ النجاشي مع عمه، وكان لبيبا حازما من الرجال، فغلب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانته قالت فيما بينها: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملّكه علينا، وإن ملّكه علينا ليقتلنا أجمعين انتقاما منا لقتلنا أباه، فمشوا إلى عمه فقالوا: إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا ؛ فإنا قد خفنا على أنفسنا منه، قال: ويلكم قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجه من بلادكم، فخرجوا به إلى السوق فباعوه لرجل من التجار بستمائة درهم، فقذفه في سفينة فانطلق به حتى إذا كان العشى من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف، فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته، ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحمق أي أحمق ومتخلف عقليا ليس فيه خير ولا يصلح للرياسة، فحاروا في أمرهم، فلما ضاق عليهم ما هم فيه قال بعضهم لبعض: تعلموا والله أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره للذي بعتموه غدرا، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه الآن، فخرجوا في طلبه، وطلبوا الرجل الذي باعوه له، حتى أدركوه فأخذوه منه، ثم جاءوا به، فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك، فملكوه، فجاءهم التاجر الذي كان باعوه له فقال: إما أن تعطوني مالي وإما أن أكلمه

في ذلك، قالوا: لا نعطيك شيئا، قال: إذا والله أكلمه، قالوا: فدونك وإياه، فجاءه فجلس بين يديه فقال: أيها الملك، ابتعت غلاما من قوم بالسوق بستمائة درهم فأسلموا إليّ غلامي وأخذوا دراهمي، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي، فقال لهم النجاشي: فلتعطوه دراهمه أو ليضع غلامه يده في يده فليذهبن به حيث شاء، قالوا: بل نعطيه دراهمه، وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته في دينه وعدله في حكمه.

ويحكى أن رجال دولة الحبشة غضبوا على النجاشي لقوله عن عيسى عليه السلام بأنه عبد الله، فاجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك فارقت ديننا وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فهيأ لهم سفنا وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

وهذا يدل على اهتمام النجاشي بالمسلمين وحرصه عليهم لعلمه أن قومه لن يبقوا على المسلمين إن زال ملكه وقد قالوا ما قالوا عن عيسى عليه السلام.

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه على المنكب الأيمن، والقباء هو نوع من اللباس كانوا يلبسونه. ثم خرج إلى الحبشة وصفوا له فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد ، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: هو ابن الله، فقال النجاشي ووضع يده على صدره

على قبائه: وهو يشهد أن عيسى ابن مريم كذلك ولم يزد على هذا شيئا، وإنما يعني ما كتب، فرضوا وانصرفوا عنه.

فبلغ ذلك النبي (ﷺ) فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له.

قصة أحمد بن طولون

أحمد بن طولون أحد ملوك مصر المشهورين، وقد كان أبوه طولون من الأتراك، وحكى ابن خلكان أنه لم يكن أباه وإنما تبناه والله أعلم، وحكى ابن عساكر أنه من جارية تركية اسمها هاشم، ونشأ أحمد هذا في صون وعفاف ورياسة ودراسة للقرآن مع حسن الصوت به، وكان يعيب على الولاة الترك ما يرتكبونه من المحرمات والمنكرات، وكانت أمه جارية اسمها هاشم، وحكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر أن طولون لم يكن أباه وإنما كان قد تبناه لديانته وحسن صوته بالقرآن وظهور نجابته، وصيانته من صغره، وحدث ذات مرة أن طولون بعثه في حاجة ليأتيه بها من دار الإمارة فذهب، فإذا حظية من حظايا طولون مع أحد الخدم وهما على فاحشة، فأخذ حاجته التي أمره بها وكر راجعا إليه سريعا ولم يذكر له شيئا مما رأى من الحظية والخادم، فتوهمت الحظية أن يكون أحمد قد أخبر طولون بما رأى، فجاءت الحظية إلى طولون وقالت: إن أحمد جاءني الآن إلى المكان الفلاني وراودني عن نفسي، ثم انصرفت إلى قصرها، فوقع في نفسه صدقها، فاستدعى أحمد، وكتب معه كتابا وختمه إلى بعض الأمراء، ولم يواجه أحمد بشيء مما قالت الجارية، وكان في الكتاب أن ساعة وصول حامل هذا الكتاب إليك تضرب عنقه وابعث برأسه سريعا إليّ، فذهب بالكتاب من عند طولون وهو لا يدري ما فيه، فاجتاز في طريقه بتلك الحظية فاستدعته إليها، فقال: إني مشغول بهذا الكتاب لأوصله إلى بعض الأمراء، قالت: هلم فلي

إليك حاجة، وأرادت أن تحقق في ذهن الملك طولون ما قالت له عنه، فحبسته عندها ليكتب لها كتابا، ثم استوهبت من أحمد الكتاب الذي أمره طولون أن يوصله إلى ذلك الأمير فدفعه إليها فأرسلت به ذلك الخادم الذي وجده معها على الفاحشة، وظنت أن به جائزة تريد أن تخص بها الخادم المذكور ، فذهب الخادم بالكتاب إلى ذلك الأمير، فلما قرأه أمر بضرب عنق ذلك الخادم وأرسل برأسه إلى الملك طولون، فتعجب الملك من ذلك وقال: أين أحمد؟ فطُلب له، فقال: ويحك أخبرني كيف صنعت منذ خرجت من عندي، فأخبره بما جرى من الأمر، ولما سمعت تلك الحظية بأن رأس الخادم قد أتي به إلى طولون فزعت وتوهمت أن الملك قد عرف الحقيقة، فقامت إليه تعتذر وتستغفر مما وقع منها مع الخادم واعترفت بالحق وبرأت أحمد مما نسبته إليه، فحظي عند الملك طولون، وأوصى له بالملك من بعده.

وهكذا كلما أخلصت العمل لله ينجيك من كل مكروه، ويعوضك خيرا.

من أخبار الخليفة العباسي المعتضد

كان الخليفة العباسي المعتضد مشهورا بالذكاء والفطنة والحيلة، وكانت له أخبار حسان، وشهدت الدولة العباسية في عهدة قوة بعد ضعف، وكان شجاعا فاضلا من أكثر رجالات قريش حزما وجرأة وإقداما وتولى الخلافة سنة 243 للهجرة، وهذه بعض من أخباره:

المعتضد يرهب الجيش لئلا يفسدوا

اجتاز المعتضد في بعض أسفاره بقرية فيها مقثاة (وهو نبات شبيه بالخيار ولكنه أطول منه) فوقف صاحبها صائحا مستصرخا بالخليفة فاستدعاه وسأله عن أمره فقال: إن بعض الجيش أخذوا لي شيئا من القثاء وهم من غلمانك فقال: أتعرفهم؟ فقال: نعم، فعرضهم عليه فعرف منهم ثلاثة، فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم، فلما كان الصباح نظر الناس ثلاثة أنفس مصلوبين على جادة الطريق، فاستعظم الناس ذلك واستنكروا وعابوا ذلك على الخليفة، وقالوا قتل ثلاثة بسبب قثاء أخذوه، وكثر اللغط بين الناس فدخل عليه أحد خواصه ليحدثه حول الموضوع، ففهم المعتضد ما في نفسه من كلام يريد أن يبديه فقال له: إني أعرف أن في نفسك كلاما فما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين وأنا آمن؟ قال: نعم، قلت له: فإن الناس ينكرون عليك تسرعك في سفك الدماء، فقال: والله ما سفكت دما

حراما منذ وليت الخلافة إلا بحقه، فقلت له: فعلام قتلت أحمد بن الطيب وقد كان خادمك ولم يظهر له خيانة، فقال: ويحك إنه دعاني على الإلحاد والكفر بالله فيما بيني وبينه، فلما دعاني إلى ذلك قلت له: أنا ابن عم صاحب الشريعة وأنا منتصب في منصبه فاكفر حتى أكون من غير قبيلته، فقتلته على الكفر والزندقة، فقلت له: فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء، فقال: والله ما هؤلاء الذين أخذوا القثاء، وإنما كانوا لصوصا قد قتلوا وأخذوا المال فوجب قتلهم فبعثت بهم من السجن فقتلتهم وأريت الناس أنهم الذين أخذوا القثاء وأردت بذلك أن أرهب الجيش لئلا يفسدوا في الأرض ويعتدوا على الناس ويكفوا عن الأذى، ثم أمر بإخراج أولئك الذين اخذوا القثاء فأطلقهم بعد ما أنبهم، وأعلنوا التوبة، وخلع عليهم، وردهم إلى أرزاقهم.

عضد الدولة يرد عقد الخراساني

يحكى أن رجلا قدم من خراسان إلى بغداد للحج، وكان معه عقد من الحب يساوي ألف دينار فاجتهد في بيعه فلم يستطع، فجاء إلى عطار موصوف بالخير فأودعه أياه، ثم حج وعاد فأتاه بهدية. فقال له العطار: من أنت وما هذا؟ فقال: أنا صاحب العقد الذي أودعتك. فما كلمه حتى رفسه رفسة رماه من دكانه، وقال: تدعي عليّ مثل هذه الدعوى ! فاجتمع الناس وقالوا للرجل صاحب العقد: ويلك ! هذا رجل خير ما وجدت من تدعي عليه إلا هذا !. فتحير الرجل الخراساني وتردد إليه فما زاده إلا شتما وضربا، فقيل له لو ذهبت إلى عضد الدولة فله في هذه الأشياء فراسة. فكتب قصته، وأرسلها لعضد الدولة، فدعاه إليه فجاءه وسأله عن حاله فأخبره بالقصة

فقال: اذهب إلى العطار بكرة واقعد على دكته فإن منعك فاقعد على دكة تقابله من بكرة إلى المغرب ولا تكلمه، وافعل هكذا ثلاثة أيام فإني أمر عليك في اليوم الرابع، وأقف وأسلم عليك فلا تقم لي ولا تزدني على رد السلام وجواب ما أسألك عنه، فإذا انصرفت فأعد عليه ذكر العقد ثم أعلمني ما يقول لك، فإن أعطاكه فجئ به إليّ. وجاء الرجل حسب الخطة التي وضعها المعتضد إلى دكان العطار ليجلس فمنعه، فجلس بمقابلته ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع اجتاز عضد الدولة في موكبه العظيم، فلما رأى الخراساني وقف وقال السلام عليكم، فقال الخراساني - ولم يتحرك وعليكم السلام. فقال: : يا أخي تقدم فلا تأتي إلينا ولا تعرض حوائجك علينا، فقال كما اتفق ولم يشبعه الكلام وعضد الدولة يسأله وهو يجيب، وقد وقف ووقف العسكر كله والعطار قد أغمي عليه من الخوف فلما انصرف التفت العطار إلى الخراساني وقال له: ويحك متى أودعتني هذا العقد وفي أي شيء كان ملفوفا؟ فذكرني لعلي أذكره. فقال: من صفته كذا وكذا، فقام وفتش ثم نفض جرة عنده فوقع العقد. فقال: قد كنت نسيت، ولو لم تذكرني الحال ما ذكرت، فأخذ العقد ثم قال: وأي فائدة لي في أن أعلم عضد الدولة؟ ثم قال في نفسه لعله يريد أن يشتريه فذهب إليه فأعلمه فبعث به مع الحاجب إلى دكان العطار فعلق العقد في عنق العطار وصلبه بباب الدكان ونودي عليه هذا جزاء من استودع فجحد فلما ذهب النهار أخذ الحاجب العقد فسلمه إلى الخراساني وقال اذهب.

عضد الدولة يكشف سر اختفاء التركي

يحكى عن عضد الدولة أنه كان في بعض أمرائه شاب تركي، وكان يقف عند نافذة ينظر إلى امرأة فيها. فقالت المرأة لزوجها: قد حرم علي هذا التركي أن أتطلع في النافذة، فإنه طول النهار ينظر إليها وليس فيها احد فقد يشك الناس أن لي معه حديثا، وما أدري كيف أصنع؟ فقال زوجها: أكتبي إليه رقعة وقولي فيها لا معنى لوقوفك، فتعال إليّ بعد العشاء إذا غفل الناس في الظلمة فإني خلف الباب، ثم قام وحفر حفيرة طويلة خلف الباب ووقف له، فلما جاء التركي فتح له الباب فدخل فدفعه الشيخ فوقع وردما عليه، وبقى أياما لا يُدرى ما خبره، فسأل عنه عضد الدولة فقيل له: ما لنا فيه خبر، فما زال يعمل فكره إلى أن بعث يطلب مؤذن المسجد المجاور لتلك الدار فأخذه أخذا عنيفا في الظاهر ثم قال: هذه مائة دينار خذها وامتثل ما آمرك بها، إذا رجعت إلى مسجدك فإذن الليلة بليل واقعد في المسجد، فأول من يدخل عليك ويسألك عن سبب إنفاذي إليك فأعلمني به، فقال: نعم، ففعل ذلك فكان أول من دخل ذلك الشيخ فقال له: قلبي إليك، ولأي شيء أراد منك عضد الدولة؟ فقال ما أراد مني شيئا، وما كان إلا الخير. فلما أصبح أخبر عضد الدولة بالحال، فبعث إلى الشيخ فأحضره ثم قال له: ما فعل التركي؟ فقال: أصدقك يا مولاي، لي امرأة ستيرة مستحسنة كان يراصدها، ويقف تحت نافذتها، فضجرت من خوف الفضيحة بوقوفه، ففعلت به كذا وكذا. فقال: اذهب في دعة الله فما سمع الناس ولا قلنا.

عضد الدولة يعلم الغيب

حدث أن بعض التجار قدم من خراسان ليحج فتأهب للحج وبقى معه مائة ألف دينار لا يحتاج إليها. فقال: إن حملتها خاطرت بها وإن أودعتها خفت جحد المودع. فمضى إلى الصحراء فرأى شجرة خروع فحفر تحتها ودفنها ولم يره أحد. ثم خرج إلى الحج، وعاد فحفر المكان فلم يجد شيئا ! فجعل يبكي ويلطم فإذا سئل عن حاله قال الأرض سرقت مالي، فلما كثر ذلك منه قيل له: لو قصدت عضد الدولة فإن له فطانة. فقال: أو يعلم الغيب؟ فقيل له: لا بأس بقصده. فقصده فأخبره بقصته فجمع الأطباء وقال لهم: هل داويتم في هذه السنة أحدا بعروق الخروع؟ فقال أحدهم: أنا داويت فلانا وهو من خواصك. فقال: عليّ به، فجاءه، فقال له: هل تداويت في هذه السنة بعروق الخروع؟ قال: نعم. قال من جاءك به؟ قال: فلان الفراش. قال: علي به، فلما جاء قال من أين أخذت عروق الخروع، فقال: من المكان الفلاني. فقال: اذهب بهذا معك وأره المكان الذي أخذت منه. فذهب ومعه صاحب المال إلى تلك الشجرة وقال الفراش: من هذه الشجرة أخذت. فقال الخراساني: ههنا والله تركت مالي. فرجع على عضد الدولة فأخبره فقال للفراش: هلم المال. فتلكأ أولا وعندما توعده عضد الدولة بالعقاب الشديد إن هو أنكر، أحضر الفراش المال ورده إلى صاحبه.

عضد الدولة يقضي على اللصوص دون حرب

بلغ عضد الدولة خبر قوم من الأكراد يقطعون الطريق، ويقيمون في جبال شاقة فلا يقدر عليهم أحد، فاستدعى أحد التجار ودفع إليه بغلا عليه صندوقان فيهما حلوى قد شُبعت بالسم وأكثر طيبها

ووضعت في أشكال فاخرة، وأعطاه دنانير وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء أمراء الأطراف، ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة، فنزل اللصوص، وأخذوا الأمتعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به مع جماعتهم إلى الجبل، وبقى المسافرون عراة، فلما فتح اللص الصندوقين وجد الحلوى يفوح طيبها، ويدهش منظرها ويعجب ريحها وعلم أنه لا يمكنه الاستبداد بها، فدعا أصحابه فرأوا ما لم يروه أبدا قبل ذلك، فأمنعوا في الأكل عُقيب مجاعة، فانقلبوا فهلكوا عن آخرهم، فبادر التجار إلى أخذ أموالهم وأمتعتهم وسلاحهم، واستردوا المأخوذ عن آخره، وهكذا بهذه المكيدة من عضد الدولة محت أثر قطاع الطريق، وحصد شوكة المفسدين.

عضد الدولة يكشف سر الجراب

جاء يوما خادما من خدم المعتضد بالله فأخبره انه كان قائما على شاطئ دجلة في دار الخليفة فرأى صياد ا وقد طرح شبكته فثقلت بشيء، فجذبها فأخرجها فإذا بها جراب، وأنه قدّره مالا فأخذه وفتحه فإذا فيه آجر، وبين الآجر كف مخضوبة بحناء. قال: فأحضر الجراب والكف والآجر، فهال المعتضد ذلك وقال: قل للصياد يعاود طرح الشبكة فوق الموضع وأسفله وما قاربه. قال: ففعل فخرج جراب آخر فيه رجل. قال: فطلبوا فلم يخرج شيء آخر. فاغتم المعتضد فقال: معي في البلد من يقتل إنسانا ويقطع أعضاءه ويفرقه ولا أعرف به. ما هذا مُلك ! قال: وأقام يومه كله ما طعم طعاما، فلما كان من الغد أحضر ثقة له وأعطاه الجراب فارغا وقال له: طف به على كل من يعمل الجراب ببغداد فإن عرفه منهم رجل فسأله على من باعه، فإذا دلك عليه فسل

المشتري من اشتراه منه، ولا تقر على خبره أحدا. قال: فغاب الرجل وجاءه بعد ثلاثة أيام فزعم أنه لم يزل يتطلب في الدباغين وأصحاب الجرب إلى أن عرف صانعه وسأل عنه فذكر أنه باعه على عطار بسوق يحي، وأنه مضى على العطار وعرضه عليه فقال: ويحك كيف وقع هذا الجراب في يدك، فقلت: أوَ تعرفه؟ قال: نعم. اشترى مني فلان الهاشمي منذ ثلاثة أيام عشرة جرب لا أدري لأي شيء أرادها وهذا منها، فقلت له: ومن فلان الهاشمي؟ قال: رجل من ولد علي بن ربطة من ولد المهدي يقال فلان وهو من أشر الناس وأظلمهم وأفسدهم لحرم المسلمين، وليس في الدنيا من ينهي خبره إلى المعتضد خوفا من شره، ولفرط تمكنه من الدولة والمال، ولم يزل يحدثني وأنا أسمع أحاديث له قبيحة إلى أن قال: فحسبك أنه كان يعشق منذ سنين فلانة المغنية جارية فلانة المغنية وكانت كالدينار المنقوش وكالقمر الطالع في غاية حسن الغناء، فساوم مولاتها فيها فلم تقبل، فلما كان منذ أيام بلغه أن سيدتها تريد بيعها على مشتر قد حضر وبذل فيها ألوف الدنانير، فوجه إليها لا أقل من أن تنفذيها إلي لتودعني، فأنفذتها إليه، وبعد ثلاثة أيام لم يقم بإرجاعها إليها وادعى أنها هربت من داره، وقالت الجيران: إنه قتلها، وقال قوم: لا بل هي عنده وقد أقامت سيدتها عليها المأتم وجاءت وصاحت على بابه وسودت وجهها فلم ينفعها شيء، فلما سمع المعتضد سجد شكرا لله تعالى على انكشاف الأمر له وبعث في الحال من قبض على الهاشمي وأحضر المغنية وأخرج اليد والرجل إلى الهاشمي فلما رآهما انتقع لونه وأيقن بالهلاك واعترف بالجريمة، فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاتها من بيت المال وصرفها ثم حبس الهاشمي فيقال: إنه قتله ويقال: إنه مات في الحبس والله أعلم.

شجاعة رجل يدعى البطال

هو عبد الله بن يحي المشهور باسم البطال كان من شجعان العرب وفوارسهم، لا يهاب الموت، وحارب في جيش عبد الملك بن مروان، وقد سأله أحد ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمره فقال :

انفردت مرة ليس معي أحد من الجند، وقد ربطت خلفي مخلاة فيها شعير ومعي منديل فيه خبز وشواء، فبينما أنا أسير لعلي ألقى أحدا منفردا أو أطلع على أي إنسان ؛ إذ أنا ببستان فيه بقول حسنة، فنزلت وأكلت من ذلك البقل بالخبز والشواء، فأخذني إسهال عظيم قمت منه مرارا فخفت أن أضعف من كثرة الإسهال، فركبت فرسي والإسهال مستمر على حاله، وجعلت أخشى إن أنا نزلت عن فرسي أن أضعف عن الركوب، وأفرط الإسهال في السير حتى خشيت أن أسقط من الضعف، فأخذت بعنان الفرس ونمت على وجهي لا أدري أين يسير الفرس بي، فلم أشعر إلا بقرع نعاله على بلاط، فارفع رأسي فإذا دير، وقد خرج منه نسوة صحبة امرأة حسناء جميلة جدا، فجعلت تقول بلسانها: أنزلنه، فأنزلنني فغسلن عني ثيابي وسرجي وفرسي ووضعنني على سرير، وعملن لي طعاما وشرابا، فمكثت يوما وليلة مستويا، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى ترد إليّ حالي، فبينما أنا كذلك ؛ إذ أقبل البطريق وهو يريد أن يتزوجها، فأمرت بفرسي فحول وعلق على الباب الذي أنا فيه، وإذا هو بطريق كبير فيهم، وهو إنما جاء لخطبتها، فأخبره من كان هناك بأن هذا البيت فيه رجل وله فرس، فهم بالهجوم عليّ، فمنعته المرأة من ذلك، وأرسلت تقول

له: إن فتح عليه الباب لم أقض حاجته، فثناه ذلك عن الهجوم عليّ، وأقام البطريق إلى آخر النهار في ضيافتهم ثم ركب فرسه وركب معه أصحابه وانطلق. قال البطال: فنهضت في أثرهم، فحاولت أن تمنعني خوفا عليّ منهم، فلم أقبل، وأسرعتُ حتى لحقتهم، فحملت عليه فانفرج عنه أصحابه وأراد الفرار، فألحقته فضربت عنقه واستلبته وأخذت رأسه، ورجعت إلى الدير، فخرجن إليّ ووقفن بين يدي، فقلت اركبن، فركبن ما هنالك من الدواب، وسقت بهن حتى أتيت أمير الجيش، فدفعتهن إليه، وأمرني أن أنتقي ما شئت منهن، فأخذت تلك المرأة الحسناء بعينها، فهي أم أولادي.

وكان أبو تلك المرأة بطريقا كبيرا، وكان البطال بعد ذلك يكاتبه ويبعث له الهدايا.

ويذكر أن الخليفة عبد الملك بن مروان لما ولاه المصيصة، بعث البطال سرية إلى أرض الروم، فغاب عنه خبرها، فلم يدر ما صنعوا، فركب بنفسه وحده على فرس له وسار حتى وصل عمورية، فطرق بابها ليلا فقال له البواب: من هذا؟ قال البطال: أنا سياف الملك ورسوله إلى البطريق، فأخذ البواب لي طريقا إليه فلما دخلت عليه ؛ إذا هو جالس على سرير، فجلست معه على السرير إلى جانبه ثم قلت له: إني قد جئتك في رسالة، فمر هؤلاء فلينصرفوا، فأمر من عنده فذهبوا، ثم قام فأغلق باب الكنيسة عليّ وعليه، ثم جاء فجلس مكانه، فأخرجت سيفي وضربت به رأسه صفحا وقلت له: أنا البطال، فأصدقني عن السرية التي أرسلتها إلى بلادك وإلا ضربت عنقك الساعة، فأخبرني ما خبرها فقال: هم في بلادي ينتهبون ما تهيأ لهم، وهذا كتاب قد جاءني يخبر أنهم في وادي كذا، والله لقد صدقتك، فقلت: هات الأمان، فأعطاني الأمان، فقلت: ائتني بطعام،

فأمر أصحابه فجاءوا بطعام فوضع لي فأكلت فقمت لأنصرف، فقال لأصحابه: اخرجوا بين يدي رسول الملك، فانطلقوا يتعادون بين يدي، وانطلقت إلى ذلك الوادي الذي ذكره لي، فإذا أصحابي هنالك، فأخذتهم ورجعت إلى المصيصة، فهذا أغرب ما جرى.

وقد استشهد البطال في إحدى المعارك مع جيش الروم رحمه الله وله مواقف بطولة وشجاعة كثيرة في حياته.

جود البرامكة

ذكر ابن الجوزي في المنتظم: أن المأمون بلغه أن رجلا يأتي كل يوم إلى قبور البرامكة، فيبكي عليهم ويندبهم، فبعث من جاء به، فدخل عليه، وقد يئس من الحياة، فقال له: ويحك ما يحملك على صنيعك هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنهم أسدوا إليّ معروفا وخيرا كثيرا، فقال: وما الذي أسدوه إليك؟ فقال: أنا المنذر بن المغيرة من أهل دمشق، كنت في نعمة عظيمة واسعة، فزالت عني حتى أفضى بي الحال إلى أن بعت داري، ثم لم يبق لي شيء، فأشار بعض أصحابي عليّ بقصد البرامكة ببغداد، فأتيت أهلي وتحملت بعيالي فأتيت بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة، فأنزلتهن في مسجد مهجور، ثم قصدت مسجدا مأهولا أصلي فيه، فدخلت مسجدا فيه جماعة لم أر أحسن وجوها منهم، فجلست إليهم فجعلت أدبر في نفسي كلاما أطلب به منهم قوتا للعيال الذين معي، فمنعني من ذلك السؤال الحياء، فبينما أنا كذلك إذ بخادم قد أقبل، فدعاهم فقاموا كلهم وقمت معهم، فدخلوا دارا عظيمة، فإذا الوزير يحي بن خالد جالس فيها، فجلسوا حوله، فعقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له، ونثروا فلق المسك، وبنادق العنبر، ثم جاء الخدم إلى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينار، ومعها فتات المسك، فأخذها القوم ونهضوا وبقيت أنا جالسا وبين يدي الصينية التي وضعوها لي، وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها في نفسي، فقال لي بعض من الحاضرين: إلا تأخذها وتذهب، فمددت يدي فأخذتها

فأغرقت ذهبها في جيبي، وأخذت الصينية تحت إبطي، وقمت وأنا خائف أن تؤخذ مني، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إليّ، وأنا لا أشعر، فلما بلغت الستار أمرهم فردوني فيئست من المال، فلما رجعت قال لي: ما شأنك خائف؟ فقصصت عليه خبري فبكى، ثم قال لأولاده: خذوا هذا فضموه إليكم، فجاءني خادم فأخذ مني الصينية والذهب، وأقمت عندهم عشرة أيام من ولد ألى ولد وخاطري كله عند عيالي، ولا يمكنني الانصراف، فلما انقضت العشرة أيام جاءني خادم فقال: ألا تذهب إلى عيالك؟ فقلت: بلى والله، فقام يمشي أمامي ولم يعطني الذهب ولا الصينية، فقلت: يا ليت هذا كان قبل أن يؤخذ مني الصينية والذهب، ياليت عيالي رأوا ذلك، فسار يمشي أمامي إلى دار لم أر أحسن منها فدخلتها فإذا عيالي يتمرغون في الذهب والحرير فيها، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، وكتابا فيه تمليك الدار بما فيها، وكتابا آخر فيه تمليك قريتين جليلتين، فكنت مع البرامكة في أطيب عيش، فلما أصيبوا أخذ مني عمرو بن مسعدة القريتين، وألزمني بخراجهما، فكلما لحقني فاقة قصدت دورهم وقبورهم فبكيت عليهم، فأمر المأمون برد القريتين، فبكى الشيخ بكاء شديدا فقال المأمون: ما لك ألم استأنف بك جميلا؟ قال: بلى، ولكن هو من بركة البرامكة، فقال له المأمون: امض مصاحبا فإن الوفاء مبارك، ومراعاة حسن العهد والصحبة من الإيمان.

من أخبار الحاكم بن المعز الفاطمي مع النساء

الحاكم بن المعز الفاطمي صاحب مصر كان حاكما جبارا عنيدا ، وله مواقف غريبة من سيرة حكمه منها: أنه ألزم الناس بغلق الأسواق نهارا وفتحها ليلا، فامتثلوا لذلك دهرا طويلا حتى اجتاز برجل يعمل النجارة في أثناء النهار فوقف عليه فقال: ألم أنهكم؟ فقال: يا سيدي لما كان الناس يتعيشون بالنهار كانوا يسهرون بالليل، ولما كانوا يتعيشون بالليل سهروا بالنهار، فهذا من جملة السهر، فتبسم وتركه وأعاد الناس إلى أمرهم الأول، وكان من بين أوامره الغريبة أنه منع النساء من الخروج من منازلهن أو يطلعن فوق الأسطح، ومنع الخفافين من عمل الخفاف لهن، ومنعهن من الخروج إلى الحمامات، وقتل عددا من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، وجهز نساء عجائز كثيرة يستعملن أحوال النساء لمن يعشقن أو يعشقهن لأسمائهن وأسماء من يتعرض لهن، فمن وجد منهن كذلك أهلكها، ثم إنه أكثر من الدوران بنفسه ليلا ونهارا في البلد في طلب ذلك، وأغرق عددا من الرجال والنساء والصبيان ممن يطلع على فسقهم، فضاق الحال واشتد على النساء وعلى الفساق ذلك، ولم يتمكن أحد منهن أن يصل إلى أحد إلا نادرا، حتى أن امرأة عاشقة لرجل عشقا قويا كادت أن تهلك بسببه لما حيل بينها وبين عشيقها، فوقفت لقاضي القضاة وهو مالك بن سعد الفارقي وحلّفته بحق الحاكم أن يقف لها ويستمع كلامها، فرحمها فوقف لها، فبكت إليه بكاء شديدا مكرا وحيلة وخداعا وقالت له: أيها القاضي، إن لي أخا ليس لي غيره، وهو في بلد كذا، وإني أسألك

بحق الحاكم عليك أن توصلني إلى منزله لأنظر عليه قبل أن يفارق الدنيا وأجرك على الله، فرق لها قلب القاضي رقة شديدة وأمر رجلين كانا معه يكونان معها حتى يبلغانها إلى المنزل الذي تريده، فأغلقت بابها وأعطت المفتاح لجارتها وذهبت معهما حتى وصلت على منزل معشوقها، فطرقت الباب ودخلت، وقالت لهما: أذهبا هذا منزل أخي، فإذا رجل كانت تهواه وتحبه ويهواها ويحبها، فقال لها: كيف قدرت على الوصول إليّ؟ فأخبرته بما احتالت به من الحيلة على القاضي فأعجبه ذلك من مكرها وحيلتها، وجاء زوجها من آخر النهار فوجد بابه مغلقا وليس في بيته أحد، فسأل الجيران عن أمرها، فذكرت له جارتها ما صنعت، فاستغاث على القاضي وذهب إليه وقال له: ما أريد امرأتي إلا منك الساعة وإلا أبلغت الحاكم، فإن امرأتي ليس لها أخ بالكلية، وإنما ذهبت إلى معشوقها، فخاف القاضي من معرة هذا الأمر، فركب إلى الحاكم وبكى بين يديه فسأله عن شأنه فأخبره بما حصل له من الأمر مع المرأة، فأرسل الحاكم مع أولئك الرجلين من يحضر المرأة والرجل جميعا على أي حال كانا عليه، فوجدهما متعانقين سكارى، فسألهما الحاكم عن أمرهما فأخذ يعتذران بما لا يجدي شيئا، فأمر بتحريق المرأة وضرب الرجل ضربا مبرحا حتى مات، ثم ازداد احتياطا وشدة على النساء، ولا زال هذا دأبه حتى مات.

وقد تعدى شره إلى الناس كلهم حتى أخته، وكان يتهمها بالفاحشة ويسمعها أغلظ الكلام، فتبرمت منه وعملت على قتله بالتآمر مع كبير الأمراء حيث جهز له عبدين أسودين شهمين استقبلاه على جبل المقطم فقتلاه، وكان عمره يوم قتل سبعا وثلاثين سنة، وكانت مدة ملكه خمسا وعشرين سنة، ثم بايعوا لولده الحاكم أبي الحسن علي.

الملك يذبح ابن أخته بنفسه

الملك محمود الكبير العادل ابن سبكتكين أبوالقاسم صاحب بلاد (غزنة) وما والاها، كان ملكا عادلا شجاعا ؛ إذ اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه في داره، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لا يجسر أحد عليه خوفا وهيبة للملك، فلما سمع الملك ذلك غضب غضبا شديدا وقال للرجل: ويحك متى جاءك فأتني فأعلمني، ولو جاءك في الليل فأتني وأعلمني، ثم إن الملك تقدم إلى الحجبة وقال لهم: إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحد من الوصول إليّ من ليل أو نهار، فذهب الرجل مسرورا، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه الشاب فأخرجه من البيت، واختلى بأهله، فذهب الرجل باكيا إلى دار الملك فقيل له: إن الملك نائم، فقال: قد تقدم إليكم أن لا أمنع منه ليلا ولا نهارا، فنبهوا الملك فخرج معه بنفسه وليس معه أحد حتى جاء إلى منزل الرجل، فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد وعندهما شمعة تتقد، فتقدم الملك فأطفأ الشمعة ثم جاء فاحتز رأس الغلام وقال للرجل: ويحك ألحقني بشربة ماء، فأتاه بها فشرب ثم انطلق الملك ليذهب، فقال له الرجل: بالله لِمَ أطفأت الشمعة؟ قال: ويحك إنه ابن أختي، وإني كرهت أن أشاهده حال الذبح، فقال: ولِمَ طلبت الماء سريعا؟ فقال الملك: إني آليت على نفسي منذ أخبرتني أن لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أنصرك وأقوم بحقك، فكنت عطشانا هذه الأيام كلها حتى كان ما كان مما رأيت، فدعا له الرجل وانصرف الملك راجعا إلى منزله، ولم يشعر بذلك أحد.

هذا هو الملك العادل حقا، فما أكثر اليوم من ينتهكون الحرمات، ويسرقون الأموال من أقارب الملوك والرؤساء، ولا أحد يتعرض لهم، فما أحوجنا إلى رئيس أو ملك عادل مثل السلطان محمود صاحب القصة.

قصة إسلام سلمان الفارسي

حدَّثَ سلمان الفارسي رضي الله عنه عن قصة إسلامه فقال: كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها: (جى)، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل حبه أياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت القيم على نار المجوس وموقدها والتي عادة لا يتركها المجوس تخبو ساعة.

قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوما فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إليّ من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري، قال: فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم ثم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله، فلما جئت قال: أي بني أين كنت؟ ألم أكن أعهد إليك ما عهدته؟ قال: قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي يا بني ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين أبائك خير منه.

قال: قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدا ثم حبسني في بيتي. قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم ركب من الشام فجاءني النصارى فأخبروني بهم فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من جلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علما؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة. قال: فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك وأتعلم منك فأصلي معك. قال: فدخلت معه فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئا كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق.

قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا، فقالوا لي: وما علمت بذلك؟ قال: فقلت لهم أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا، قال: فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبدا. قال: فصلبوه ورجموه بالحجارة وجاءوا برجل آخر فوضعوه مكانه، قال سلمان: فما رأيت رجلا أفضل منه وأزهد في الدنيا. قال: فأحببته حبا لم أحب شيئا قبله مثله، قال: فاقمت معه زمانا ثم حضرته الوفاة فقلت له: إني قد كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني به؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه، لقد هلك الناس

وبدلوا وتركوا أكثر مما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به، قال: فلما مات لحقت بصاحب الموصل فقلت: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: إن فلانا أوصى بي إليك وأمرني بالحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين، وهو فلان فالحق به.

فلما مات لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي فقال: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجل بعمورية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته فإنه على أمرنا، فلما مات لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري فقال: أقم عندي فاقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم.

قال: واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى الأرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم

النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال: ثم مات ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجار فقلت لهم، احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيماتي هذه، قالوا: نعم، فأعطيتهم إياها وحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني عبدا إلى رجل يهودي، فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي، فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها، وبُعثَ رسول الله (ﷺ) فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس نخلة لسيدي أعمل في بعض العمل وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل بن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أني ساقط على سيدي، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك. قال: فقلت لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال. قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله (ﷺ) وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم. قال: فقربته إليه فقال رسول الله (ﷺ) لأصحابه «كلوا» وأمسك يده فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا ثم جئته فقلت

له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها.

قال: فأكل رسول الله (ﷺ) منها وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان. قال: ثم جئت رسول الله (ﷺ) وهو ببقيع الغرقد وقد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله (ﷺ) استدبرته عرف أني استثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله (ﷺ) «تحول» فتحولت بين يديه فقصصت عليه حديثي فأعجب رسول الله (ﷺ) أن يسمع ذاك أصحابه. ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله (ﷺ) بدر وأحد.

قال سلمان: ثم قال لي رسول الله (ﷺ) « كاتب يا سلمان» فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير وأربعين أوقية، فقال رسول الله (ﷺ) لأصحابه: أعينوا أخاكم فأعانوني في النخل: الرجل بثلاثين فسيلة، والرجل بعشرين فسيلة، والرجل بخمس عشرة فسيلة، والرجل بعشر فسائل من النخل، يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة فسيلة من النخل، فقال لي رسول الله (ﷺ) «اذهب يا سلمان ففقر لها (أي أحفر) فإذا فرغت فأتني أكن أنا أضعها بيدي.

قال: ففقرت وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج رسول الله (ﷺ) معي إليها فجعلنا نقرب إليه الفسيلة من شتول النخل، ويضعها رسول الله (ﷺ) بيده حتى إذا فرغنا فوالذي نفسي بيده ما ماتت منها فسيلة واحدة، فأديت النخل وبقي عليّ المال

فأتى رسول الله (ﷺ) بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن فقال: «ما فعل الفارسي الكاتب »؟ قال: فدعيت له، قال: « خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان » قال: قلت: وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله؟ قال: « خذها فإن الله سيؤدي بها عنك » قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم، وعُتقت من الرق ، فشهدت مع رسول الله (ﷺ) الخندق حُراً، ثم لم يفتني معه مشهد.

ذكاء الخليفة المنصور

جلس المنصور يوما في إحدى شُرفات مدينته فرأى رجلا ملهوفا يجول في الطرقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة وعاد بماله إلى منزله فدفعه إلى أهله فذكرت امرأته أن المال سُرق من بيتها ولم ير نقبا ولا تسلقا، فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة، قال: أفبكرا تزوجتها؟ قال: لا. قال: أفلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هي أم مسنة؟ قال: بل شابة، فدعا المنصور بقارورة طيب كان يستعمله حاد الرائحة غريب النوع فدفعها إليه وقال له تطيب من هذا الطيب فإنه يذهب همك. فلما خرج الرجل من عند المنصور قال المنصور لأربعة من ثقاته ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مر بكم فشممتم عليه رائحة هذا الطيب، فليأتني به. وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين. فلما شمته بعثت إلى رجل كانت تحبه وقد كانت دفعت المال إليه فقالت له تطيب من هذا الطيب، فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي. فتطيب منه الرجل ومر مجتازا ببعض أبواب المدينة فشم الموكل بالباب رائحة الطيب منه فأخذه فأتى به المنصور، فقال له المنصور: من أين أخذت هذا الطيب فإن رائحته غريبة معجبة، قال: اشتريته. قال: أخبرنا ممن اشتريته، فتلجلج الرجل وخلط كلامه، فدعا المنصور صاحب شرطته وقال له خذ هذا الرجل إليك فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط ، فلما خرجا من

عنده دعا صاحب شرطته فقال: هول عليه وجرده ولا تقدمن بضربه حتى تستأذن مني. فخرج صاحب شرطته، فلما جرده وسجنه أذعن برد الدنانير وأحضرها كما هي، فأعلم المنصور بذلك فدعا صاحب الدنانير فقال له: أرأيتك إن رددت عليك الدنانير بهيئتها أتحكمني في امرأتك؟. قال: نعم، قال: فهذه دنانيرك وقد طلقت المرأة عليك وأخبره خبرها.

أستودع رجل من الحجاج رجلا بالكوفة وديعة، ثم حج، وبعد رجوعه طلب وديعته فانكر المستودع وجعل يحلف له أنه لا يعرفه ولا استلم منه وديعة، فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة يشاوره فقال: لا تُعلم أحدا بجحوده، وكان المستودع يجالس أبا حنيفة فخلا به وقال له: إن هؤلاء قد بعثوا يستشيرون في رجل يصلح للقضاء فهل تنشط وتقبل ذلك، فمانع الرجل قليلا وأقبل أبوحنيفة يرغبه، فانصرف على ذلك وهو طامع في المنصب، ثم جاء صاحب الوديعة فقال له أبوحنيفة: اذهب إليه وقل له: أحسبك نسيتني، إني أودعتك في وقت كذا، والعلامة كذا، فذهب الرجل إلى المستودع وقال له كما أوصاه أبوجنيفة، فلم يتردد المستودع ودفع إليه الوديعة، وطلب منه أن يستسمحه على نسيانه في المرة الأولى.

وجاء المستودع بعد ذلك إلى أبي حنيفة راغبا في تولي القضاء فقال له أبوحنيفة: إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أجل من هذا، أي أن يأتي منصب أكبر من القضاء لأقترح اسمك له.

رحم الله أباحنيفة. خلّص مال الرجل باستخدام حيلة بسيطة تدل على ذكاء وفطنة الإمام، فما أحوجنا اليوم لمثل هؤلاء.

فطنة الإمام أبو حنيفة

- ومن ذكاء وفطنة أبي حنيفة أيضا يحكى أن رجلا جاء إلى أبي حنيفة فشكا له أنه دفن مالا في موضع ولا يذكر الموضع، فقال أبوحنيفة: ليس هذا فقها لأفتيك فيه، ولكن اذهب، وتوضأ وأحسن الوضوء ثم صلّ الليلة إلى الغداة، فإنك ستتذكره إن شاء الله تعالى، ففعل الرجل ذلك فلم يمض إلا قليل من ربع الليل حتى ذكر الموضع وقطع صلاته وخرج مسرعا إلى موضع المال، فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره، فقال أبوحنيفة: قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي حتى تذكر مالك، فهلا أتممت ليلتك شكرا لله عز وجل.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

أمر المأمون بإحضار العباس صاحب الشرطة ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما حضر قال: يا عباس، خذ هذا إليك واستوثق به ولا يفوتنك، وبكر به، واحذره كل الحذر.

قال العباس: فدعوت جماعة حملوه، ولم يقدر يتحرك، فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب أن يكون معي إلا في بيتي، ثم سألته عن قصته وحاله، ومن أين هو؟ فقال: من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيرا ! فمن أنت من أهلها؟ قال: لا تزيد أن تسألني ! فقلت له: أتعرف فلانا؟ فقال: ومن أين عرفت ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لي قصة معه، فقال: ما أنا بمعرفك خبره إلا بعد أن تعرفّني قصتك ! فقلت: كنت مع بعض الولاة بها فخرج علينا أهلها، وأرادوا قتلنا، فهرب الوالي مع أصحابه وهربت فيمن هرب، فإني لفي بعض الطريق إذ جماعة يعدون خلفي، فما زلت أجري حتى مررت على هذا الرجل الذي ذكرته وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله ! فقال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت الدار فقالت لي امرأته: ادخل الحجلة (وهي البيت الذي يزين بالثياب والأسرة والستائر) فدخلتها، وأتت الرجال خلفي فما شعرت إلا به وهم معه يقولون: هو والله عندك ! فقال: دونكم الدار ففتشوها حتى لم يبق إلا البيت الذي كنت فيه، فقالوا: ها هنا، فصاحت المرأة وانتهرتهم فانصرفوا، وخرج الرجال فجلس على باب

داره ساعة وأنا قائم في الحجلة خائف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فلم ألبث أن دخل الرجل وقال: لا تخف فقد صرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى، فقلت له: جزاك الله عني خيرا ! ثم ما زال يعاشرني أحسن المعاشرة وأجملها، وبقيت عنده أربعة أشهر وأنا في أحسن حال من أكل وشرب وفرح إلى أن سكنت الفتنة وهدأت فقلت له: أتأذن لي في الخروج لأتعرف خبر غلماني ومنزلي لعلي أقف لهم على أثر أو خبر ! فأخذ عليّ المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني فلن أر لهم أثرا فرجعت إليه وأعلمته بالخبر، وهو مع هذا لا يعرفني ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبني بغير الكنية، ثم قال لي: ما تعتزم؟ فقلت: قد عزمت على الشخوص إلى بغداد، فإن قافلة تخرج بعد ثلاثة أيام، وقد تفضلت عليّ هذه المدة، فأسألك أن تعطيني ما أنفقه في طريقي وما ألبسه فقال: يصنع الله عز وجل.

ثم قال لغلام له أسود: أنعل الفرس الفلاني (أي ألبسها النعل)، وأمر من في منزله بإعداد السفر، فقلت في نفسي: ما أشك إلا أنه يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي ويقضوا يومهم ذلك في تعب وكد، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر وقال: يا أبا فلان، قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تتفرد عنها، فقلت في نفسي: ما أعطاني شيئا مما سألته، ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان إليّ خفاتين (وهو صدرية تلبس تحت الدرع) جديدتين ولوازم السفر ثم جاءني بسيف ومنطقه (أي حزام) فشدهما في وسطي، ثم قدم البغل، فحمل عليه الصناديق وفوقها مفرشان، ودفع إليّ نسخة بما في الصناديق وفيها خمسة آلاف درهم وقدم إليّ الفرس الذي كان أنعله بسرجه ولجامه وقال لي: اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس دوابك، وأقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما في أمري، وركب

معي فشيعني، وانصرفت إلى بغداد وأنا على مكافأته ومجازاته، فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشغل بالأسفار واتصالها والتنقل من مكان إلى مكان.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أتاك الله عز وجل بمن تريد مكافأته بلا مؤونة عليك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا والله ذلك الرجل، ثم قال لي: ما عرفتك حق المعرفة ! وأقبل يذكرني بأشياء يتعرف بها إليّ حتى أتيته وعرفته فما تمالكت أن قمت إليه فقبلت رأسه وقلت له: ما الذي أصارك إلى هذا؟ فقال: هاجت فتنة بدمشق مثل الفتنة التي كانت في أيامك، فاتهمت بها وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وحُملت إليه، وأمري عنده غليظ جدا، وهو قاتلني لا محالة، وقد خرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من عبيدي من ينصرف إلى منزلي بخبري وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تنعم وتبعث إليه حتى يحضر فأتقدم إليه بما أريد، فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة لي ! فقال العباس: يصنع الله ! ثم قال: عليّ بحداد فأتوا به، فحل قيوده وما كان عليه من أنواع الأنكال، ودعا بالحجام فأحضره وأخذ من شعره ثم قال: علي بمولاه، فأنفذ في طلبه من يحضره.

قال الرجل: فلما أخذ شعري أدخلني الحمام فطرح عليّ من ثيابه ما اكتفيت به، ثم حضر عبدي وقعد يبكي، فقال العباس: عليّ بفرسي الفلاني والبغل الفلاني حتى عد عشرا ثم قال: عليّ من الصناديق والكسوة بكذا ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لي بكيس من النقود فيه عشرة آلاف درهم، وكيس فيه خمسة آلاف دينار وقال لصاحب شرطته: خذه واعبر به جسر الأنبار.

فقلت له: إن أمري غليظ، وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأُرد وأقتل، فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على هذا فليكن في موضع كذا وكذا، فإن سلمت في غداة فسبيل المحبة، وإن قتلت كنت قد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن تُذهب من ماله شيئا قيمته درهم وتخلصه حتى تخرجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة فصيرني في مكان يثق به، وتفرغ العباس لنفسه واغتسل وتحنط وتكفن.

قال العباس: فلم افرغ من ذلك حتى وافتني رسل المأمون في السّحر وقالوا: أمير المؤمنين يقول: هات الرجل، فسكت وأتيت الدار وإذا أمير المؤمنين جالس عليه ثياب أمام فراشه فقال: الرجل ! فسكت، فقال: ويحك ! الرجل ! فقلت: يا أمير المؤمنين، اسمع مني، فقال: أعطي الله عهدا لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك، فقلت: لا والله ما هرب، فاسمع مني حديثي وحديثه ثم أنت أعلم بما تفعله في أمرنا، قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان حديثي معه كذا وكذا . وقصصت عليه القصة، وعرفته أني كنت أريد مكافأته، فشغلت عن ذلك حتى إذا كان البارحة عرفته، وعبرت به جسر الأنبار وقلت: أنا من سيدي أمير المؤمنين بين أمرين: إما صفح عني، وإما قتلني وأكون قد كافيته ووقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك ! لا جزاك الله خيرا عن نفسك وعنا وعن هذا الفتى الحر ! إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة بهذا ! لِمَ لا عرفتني خبره، فكنت أكافئك عنه، فقلت: يا أمير

المؤمنين، إنه والله ها هنا قد حلف لا يبرح حتى يعرف سلامتي، فإن احتيج إلى حضوره حضر، قال: وهذه والله أعظم من الأولى، فاذهب إليه وطيب نفسه وسكن روعه، وتعبر به حتى أتولى مكافأته عنك.

يقول العباس : فصرت إليه وقلت: ليسكن روعك، إن أمير المؤمنين قال: كذا وكذا، فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء غيره، ثم تهيأ للصلاة فصلى ركعتين ثم جئنا.

فلما مثل بين يدي المأمون أدناه حتى أجلسه إلى جانبه، وآنسه وحدثه حتى حضر الغداء ثم قال: الطعام فأكل معه، وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفاه ثم قال المأمون: عليّ بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة بغال بجميع آلاتها، وبعشرة مماليك بذواتهم وجميع آلاتهم، فدفع ذلك إليه، وكتب إلى عامله بالوصاية عليه، وأسقط الضرائب عنه، وكتب إلى صاحب البريد أن ينفذ كتبه، وصرفه إليّ.

قال العباس: فكان إذا ورد كتاب في خريطة يقول لي المأمون: يا عباس، هذا كتاب صديقك.

وأخيرا نختم هذه القصة بالمثل الشعبي الذي يقول (دير الخير وانساه، ودير الشر واتفكره)

وامعتصماه

جاء رجل إلى المعتصم فقال: يا أمير المؤمنين، كنت بعمورية، فرأيت علجا روميا يلطم امرأة مسلمة من أحسن النساء سيرة على وجهها فصرخت تنادي : وامعتصماه ! فقال العلج: وما يقدر عليه المعتصم ! هل يجيء على أبلق وينصرك؟ وزاد ضربها.

قال المعتصم: وفي أي جهة عمورية؟ فقال له الرجل - وأشار إلى جهتها: هاهي ذي، فرد المعتصم وجهه إليها وقال: لبيك أيتها المرأة - لبيك يا أختاه، هذا المعتصم بالله أجابك، ثم جهز إليها جيشا في اثني عشر ألف فرس أبلق وحاصرها، ولما طال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له: إنا نرى أنك ما تفتحها إلا في زمان نضج العنب والتين، فشق ذلك عليه وأغم، وخرج ليلته مع بعض حشمه متجسسا في المعسكر يسمع ما يقول الناس، فمر بخيمة حداد يضرب نعال الخيل وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة، وهو يضرب على السندان ويقول: في رأس المعتصم ! فقال له معلمه: أتركنا من هذا، مالك والمعتصم ! فقال: ما عنده تدبير، له كذا وكذا يوما على هذه المدينة مع قوته ولا يفتحها ! لو أعطاني الأمر ما بات غدا إلا فيها.

فتعجب المعتصم مما سمع، وترك بعض رجاله موكلا به وانصرف إلى خبائه، فلما أصبح جاءوا به فقال له المعتصم: ما حملك يا هذا على ما بلغني عنك؟ فقال الرجل: الذي بلغك حق، ولو وليتني الحرب فإني أرجو أن يفتح الله عليك. فقال: قد وليتك، وخلع عليه وقدمه على الحرب ففتح الله عليه، ودخل المعتصم المدينة.

ثم دعا الرجل الذي بلّغه حديث المرأة، فقال له: سرّ بي إلى الموضع الذي رأيتها فيه، فسار الرجل به وأخرجها من موضعها وقال لها: يا أختاه، هل أجابك المعتصم؟ ثم ملكها على العلج الذي لطمها، والسيد الذي كان يملكها وجميع ماله.

وهكذا لم يثبت قول المنجمين وفي هذه يقول أبو تمام قصيدته الشهيرة :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

دائما سير الأبطال تبقى في الذاكرة على مر التاريخ، فهذا المعتصم يجهز جيشا من أجل نصرة امرأة مسلمة دعته لنصرتها، فأين العرب اليوم من نداء نساء فلسطين، من ظلم وبطش اليهود المتغطرسين !

يتحايل برؤيا كاذبة على الخليفة

قدم رجل يُدعى سعيد بن عبد الرحمن إلى الربيع حاجب أمير المؤمنين المهدي فقال له: استأذن لي على أمير المؤمنين فقال له الربيع: من أنت وما حاجتك؟ قال: أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين رؤيا صالحة وقد أحببت أن تذكرني له، فقال الربيع: يا هذا إن القوم لا يصدقون ما يرونه لأنفسهم فكيف ما يراه لهم غيرهم فاحتل بحيلة أخرى أفضل من هذه، فقال له: إن لم تخبره بمكاني سألت من يوصلني إليه فأخبرته أني سألتك الإذن عليه فلم تفعل، فدخل الربيع على المهدي وقال له: يا أمير المؤمنين إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم حتى احتالوا لكم بكل ضرب، قال المهدي: هكذا صنع الملوك فما ذاك؟ قال: رجل بالباب يزعم أنه رأى لأمير المؤمنين رؤيا حسنة وأحب أن يقصها عليه، فقال المهدي: ويحك يا ربيع إني والله أرى الرؤيا لنفسي فلا تصح لي. فكيف إذا ادعاها من لعله قد افتعلها، قال: والله قلت له مثل ذلك فلم يقبل، قال: هات الرجل، فأدخل إليه سعيد بن عبد الرحمن وكان له رؤيا وجمال ومروءة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان فصيح، فقال له المهدي: هات بارك الله عليك ماذا رأيت؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين آتيا أتاني في منامي، فقال لي أخبر أمير المؤمنين المهدي أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة، وآية ذلك أنه يرى في ليلته هذه في منامه كأنه يقلب يواقيت ثم يعدها فيجدها ثلاثين ياقوتة كأنها قد وهبت له، فقال المهدي: ما أحسن ما رأيت ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا به، فإن كان الأمر على ما ذكرته أعطيناك ما تريد، وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقت وربما اختلفت، قال له سعيد: يا أمير المؤمنين. فما أصنع الساعة إذا صرت إلى

منزلي وعيالي فأخبرتهم أني كنت عند أمير المؤمنين ثم رجعت صفرا، قال المهدي: فكيف نعمل؟ قال: يعجل لي أمير المؤمنين ما أحب، وأحلف له بالطلاق أني قد صدقت، فأمر له بعشرة آلاف درهم وأمره أن يؤخذ منه كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم، فقبض المال وقيل له من يكفل بك؟ فمد عينيه إلى خادم فرآه حسن الوجه والزي، فقال: هذا يكفل بي، فقال له المهدي: أتكفل به؟ فاحمر وجه الخادم وخجل وقال: نعم. وكفله وانصرف فلما كان في تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفا حرفا، وأصبح سعيد في الباب واستأذن فأذن له، فلما وقعت عين المهدي عليه قال: أين مصداق ما قلت لنا؟ قال سعيد: وما رأى أمير المؤمنين شيئا؟ فضحك في جوابه، فقال سعيد: امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئا. قال له المهدي: ويحك ما أجرأك على الحلف بالطلاق ! قال: لأني أحلف على صدق، قال له المهدي: فقد والله رأيت ذلك مبينا، فقال له سعيد: الله أكبر فأنجز يا أمير المؤمنين ما وعدتني، قال له: حبا وكرامة، ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت ثياب من كل صنف، وثلاثة مراكب من أنفس دوابه، فأخذ ذلك وانصرف، فلحق به الخادم الذي كان كفل به وقال له: سألتك بالله هل كان لهذه الرؤيا التي ذكرتها من أصل، قال سعيد: لا والله، قال الخادم: كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له؟ قال: هذه من المخاريق الكبار التي لا يأبه لها أمثالكم، وذلك أني لما ألقيت إليه هذا الكلام خطر بباله، وحدث به نفسه وأشربه في قلبه وشغل به فكره، فساعة ما نام خيل له ما حل في قلبه وما كان شغل به فكره في المنام، قال له الخادم: فقد حلفت بالطلاق، قال: طلقت واحدة وبقيت معي اثنتان ، وتحصلت على ما رأيت من أمير المؤمنين، فبهت الخادم وتعجب من ذلك، فقال له سعيد : قد صدقتك وجعلت صدقي لك مكافأتك على كفالتك بي فاستر على ذلك.

ثم أن المهدي طلب سعيد بن عبد الرحمن لمنادمته فنادمه وحظي عنده وقلده القضاء على عسكر المهدي فلم يزل كذلك حتى مات المهدي.

من حاكٍ إلى طبيب

مر رجل حاكٍ (أي الذي يخيط الثياب) على طبيب فرآه يصف لهذا تمر هندي وهذا عشبة معينة فقال: من لا يحسن مثل هذا، فرجع إلى زوجته فقال: اجعلي عمامتي كبيرة. فقالت: ويحك أي شيء طرأ لك؟ قال: أريد أن أكون طبيبا. قالت: لا تفعل فإنك تقتل الناس فيقتلوك. قال: لا بد من ذلك ، وخرج أول يوم وجلس يصف للناس أدوية فتحصل على بعض المال، فقال لزوجته: أنا كنت أعمل أياما في شغل الخياطة ولم أتحصل على مثل هذا المال، فانظري ما تحصلت عليه في يوم واحد من مهنة الطبيب، فقالت: لا تفعل. قال: لا بد، فلما كان في اليوم الثاني اجتازت جارية فرأته فقالت لسيدتها وكانت شديدة المرض: اشتهيت هذا الطبيب الجديد يداويك. فقالت: ابعثي إليه، فجاء وكانت المريضة قد انتهى مرضها ومعها ضعف فقال: عليّ بدجاجة مطبوخة، فجيء بها فأكلت فقويت ثم استقامت، فبلغ هذا إلى السلطان، فأرسل إليه وشكاه مرضا يعاني منه، فاتفق أنه وصف له شيئا صلح به، فاجتمع إلى السلطان جماعة يعرفون ذاك الحائك فقالوا له: هذا رجل حائك لا علاقة له بمهنة الطب ولا يدري شيئا عنه، فقال السلطان: هذا قد صلحت على يديه، وصلحت الجارية على يديه فلا أقبل قولكم فيه، قالوا فنجربه بمسائل، قال: افعلوا. فوضعوا له مسائل وسألوه عنها فقال: إن أجبتكم عن هذه المسائل لم تعلموا جوابها ؛ لأن الجواب لهذه المسائل لا يعرفه إلا الطبيب الحاذق، ولكن أليس عندكم مارستان؟ (أي مستشفى) قالوا: بلى.

قال: أليس فيه مرضى لهم مدة، قالوا: بلى. قال: فأنا أداويهم حتى ينهض الكل في عافية في ساعة واحدة، فهل يكون الدليل على علمي أقوى من ذلك؟ قالوا: لا. فجاء إلى باب المارستان وقال: اقعدوا لا يدخل معي أحد، ثم دخل وحده وليس معه إلا قيم المارستان، فقال للقيم: إنك والله إن تحدثت بما أعمل صلبتك وإن سكت أغنيتك. قال القيم: ما أنطق، قال الحاكي: أحلف: فحلف بالطلاق أن لا يتكلم، ثم قال: أعندك في هذا المارستان زيت؟ قال: نعم. قال: هاته. فجاء منه بشيء كثير فصبه في قدر كبير ثم أوقد تحته نارا فلما اشتد غليانه صاح بجماعة المرضى فقال: لأحدهم إنه لا يصلح لمرضك إلا أن تنزل إلى هذا القدر فتقعد في هذا الزيت. فقال المريض: الله الله في أمري. قال: لا بد. قال المريض: أنا شفيت وإنما كان بي قليل من صداع. قال: إيش يقعدك في المارستان وأنت معافى. قال: لا شيء، فقال: فاخرج وأخبرهم، فخرج يعدو ويقول شفيت بإقبال هذا الحكيم. ثم جاء إلى آخر فقال: لا يصلح لمرضك إلا أن تقعد في هذا الزيت. فقال: الله الله أنا في عافية. قال: لا بد. قال: لا تفعل فإني من أمس أردت أن أخرج. قال: فإن كنت في عافية فاخرج وأخبر الناس بأنك في عافية، فخرج يعدو ويقول: شفيت ببركة الحكيم. وما زال على هذا الوصف حتى أخرج الكل شاكرين له.

نواقيس معاوية

لما أسن معاوية بن أبي سفيان، وتقدم به العمر اعتراه أرق، وكان إذا نام أيقظته النواقيس التي كانت منتشرة في كنائس النصارى في بلاد الشام، فلما أصبح ودخل عليه الناس قال: يا معشر العرب. هل فيكم من يفعل ما آمره به وأعطيه ثلاث ديات أعجلها له، وديتين إذا رجع؟ فقام فتى من غسان فقال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: تذهب بكتابي هذا إلى ملك الروم، فإذا صرت على بساطه أذّنت.قال ثم ماذا؟ قال: فقط. قال: لقد كلفت صغيرا وأعطيت كثيرا، فلما خرج وصار على بساط قيصر أذن، فحارت البطارقة وسلوا سيوفهم ليقتلوه، فسبق إليه ملك الروم فجثى عليه وجعل يسألهم بحق عيسى وبحقه عليهم ألا يمسوه بسوء حتى كفوا عنه، ثم ذهب به إلى سريره حتى صعد به ثم جعله بين رجليه، فقال: يا معشر البطارقة. إن معاوية قد أسن، ومن أسن أرق، وقد آذته النواقيس، فأراد أن يقتل هذا على الأذان، فيقتل هو من ببلاده على ضرب النواقيس، وبالله ليرجعن إليه على خلاف ما ظن. فكساه وجمّله وأعاده إلى بلاده سالما، فلما رجع إلى معاوية قال له: أو قد جئتني سالما؟ قال الفتى: أما من قبلك فلا.

اشترى القتل لنفسه

يروى أن رجلا يدعى بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان في حبس الحجاج، وكان يعذبه، وكان كل من يموت في الحبس رُفع خبره إلى الحجاج فيأمر بإخراجه وتسليمه إلى أهله. فقال بلال للسجان: خذ مني عشرة آلاف درهم وأخرج اسمي إلى الحجاج في الموتى، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربت في الأرض فلم يعرف الحجاج خبري، وإن شئت أن تهرب معي فافعل وعليّ غناك أبدا، فأخذ السجان المال ورفع اسمه في الموتى فقال الحجاج: مثل هذا لا يجوز أن يخرج إلى أهله حتى أراه، وأمر السجان بإحضاره ، فعاد السجان إلى بلال وقال له: أوص قبل أن تموت. قال بلال: وما الخبر؟ قال: إن الحجاج قال كيت وكيت، فإن لم أحضرك إليه ميتا قتلني وعلم أني أردت الحيلة عليه، ولا بد أن أقتلك خنقا، فبكى بلال وسأله أن لا يفعل فلم يكن إلى ذلك طريق، فأوصى وصلى فأخذه السجان وخنقه حتى مات، وأخرجه إلى الحجاج، فلما رآه ميتا قال: سلمه إلى أهله، فأخذوه وقد اشترى القتل لنفسه بعشرة آلاف درهم ورجعت الحيلة عليه.

كعب الأحبار يخبر عمر بن الخطاب بنهاية أجله بعد ثلاثة أيام

خرج عمر بن الخطاب يوما يطوف في السوق فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وكان نصرانيا، فقال: يا أمير المؤمنين أعني على المغيرة بن شعبة، فإن عليّ خراجا كثيرا. قال عمر: وكم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم. قال عمر: ما صناعتك؟ قال: نجار، نقاش، حداد، قال عمر: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أعمل رحاً تطحن بالريح فعلت، قال: نعم، قال عمر: فاعمل لي رحا. قال: لئن سلمت لأعملن لك رحاً يتحدث بها من بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه.

فقال عمر: لقد توعدني العبد آنفا، ثم انصرف عمر إلى منزله، فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين ؛ أعهد، فإنك ميت في ثلاثة أيام، قال عمر: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل، التوراة. قال عمر: الله ! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ! قال: اللهم لا ؛ ولكني أجد صفتك وحليتك، وإنه قد فنى أجلك - وعمر لا يحس وجعا ولا ألما.

فلما كان من الغد جاء كعب فقال: يا أمير المؤمنين: ذهب يوم وبقي يومان، ثم جاء من غد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة، وهي لك إلى صبيحتها.

فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة، وكان عمر يوكل بالصفوف رجالا، فإذا استوت جاء هو فكبر، ودخل أبو لؤلؤة في الناس في

يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سُرّته وهي التي قتلته.

فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف. قالوا: نعم يا أمير المؤمنين هو ذا. قال: تقدم فصل بالناس. فصلى عبد الرحمن بن عوف وعمر طريح ثم حملوه إلى داره.

فلما أحس الناس قرب موته قالوا له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت! قال: إن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني، وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لا ستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: «إنه أمين هذه الأمة» ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لا ستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: «إن سالما يحب الله حبا لو لم يخفه ما عصاه».

قيل له: فلو أنك عهدت إلى عبد الله بن عمر ؛ فإنه لذلك أهل لدينه وفضله وقديم إسلامه. فقال: بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ثم راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدت. فقال: قد كنت عزمت بعد مقالتي لكم أن أولي رجلا أمركم أرجو أن يحملكم على الحق - وأشار إلى علي بن أبي طالب، ثم رأيت ألا أتحملها حيا وميتا. فعليكم بهؤلاء الرهط الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض: سعد بن أبي وقاص، عبد الرحمن بن عوف، علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، طلحة الخير.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فقال: قم على بابهم فلا تدع أحدا يدخل إليهم، وأوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان: أن يحسن إلى محسنهم وأن يعفوا عن مسيئهم، وأوصي

الخليفة من بعدي بالعرب ؛ فإنهم مـادة الإسـلام ؛ أن يأخذ من صدقاتهم حقها فتوضع في فقرائهم، وأوصي الخليفة من بعدي بذمة محمد رسول الله ؛ أن يوفي لهم بعهدهم، اللهم هل بلغت ! ثم قال: يا عبد الله بن عمر. اخرج فانظر من قتلني؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة، يا عبد الله بن عمر، اذهب إلى عائشة فسألها أن تأذن لي أن أدفن مع رسول الله وأبي بكر. يا عبد الله بن عمر ؛ إن اختلف القوم فكن مع الأكثر، وإن كانوا ثلاثة فاتبع الحزب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف، يا عبد الله ؛ أئذن للناس.

فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه ويقول: أعن ملأ ([2]) منكم كان هذا؟ فيقولون: معاذ الله ! ودخل في الناس كعب، فلما نظر إليه عمر قال:

فأوعدني كعبٌ ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب

وما بي حدارُ الموت إني ميت ولكـن حـذارُ الذنب يتبعـه الذنب

ثم فاضت روحه، رحمه الله.

واليوم يعظم الشيعة في إيران أبا لؤلؤة ، وجعلوا قبره مزارا ؛ لأنه قتل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، فما دلالة ذلك ؟....

---

2 - أي مشاورة من أشرافكم وجماعتكم

بين جَرَجَة قائد الروم وخالد بن الوليد

شارك في معركة اليرموك نحو ألف رجل من أصحاب رسول الله « ﷺ » فيهم نحو مائة من أهل بدر، فنشب القتال، والتحم الناس ، وتطارد الفرسان، وفي أثناء المعركة قَدِمَ البريد من المدينة فأخذته الخيول وسألوه الخبر فلم يخبرهم إلا عن مدد قادم ؛ وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله، وتأمير أبي عبيدة بن الجراح، فأبلغوا خالدا فأخبره خبر أبي بكر أسرّه إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند فقال: أحسنت، وأخذ الكتاب وجعله في كنانته، وأمره بعدم نشر الخبر حتى نهاية المعركة، وبينما خالد بين الصفوف خرج من بين صفوف جند الروم (جَرَجَة) وهو أحد قادتهم الكبار ونادى ليخرج إليّ خالد ! فخرج إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه، فواقفه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن أحدهما صاحبه، فقال جرجه: يا خالد، أصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع، هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ قال: لا ، قال: فبما سميت سيف الله؟ قال: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا عنه، ثم إن بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذّبه فكنت فيمن كذبه وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه، فقال: أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين، قال جرجة: صدقتني. ثم أعاد عليه جرجة قائلا: يا خالد، أخبرني إلام تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عنده.

قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعه، قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بحرب ثم نقاتله، قال: فما منزلة من يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا.

ثم أعاد عليه جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل، قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ قال: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحُقّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وأنكم وأنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا.

قال جرجة: بالله قد صدقتني ولم تخادعني ولم تألّفني، قال: بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة، وإن الله لولي ما سألت عنه، فقال: صدقتني، وقلب الترس ومال مع خالد، وقال: علّمني الإسلام، فمال به خالد إلى خيمته وصب عليه قربة من ماء وصلى ركعتين ونطق الشهادتين، وصار من المسلمين، ثم ركب خالد وجرجة معه، وزحفا بالمسلمين على الروم حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم خالد وجرجة من أول النهار إلى جنوح الشمس للغروب، وأصيب جرجة رحمه الله، ولم يصل لله إلا تلك الركعتين مع خالد رضي الله عنهما ومات شهيدا بإذن الله تعالى ، وهزم جيش المسلمين جيش الروم بعد قتال شديد أبلى فيه المسلمون بلاءً حسنا لنصرة دين الإسلام والمسلمين.

يضمنه دون أن يعرفه

قال رجل من أهل الكوفة: كنا مع مسلمة أخو يزيد بن عبد الملك وكان قائدا لجيش المسلمين ببلاد الروم فسبى سبيا كثيرا، وأقام ببعض المنازل فعرض السبي على السيف، فقتل خلقا كثيرا حتى عُرِضَ عليه شيخ ضعيف فأمر بقتله.

فقال الشيخ: ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلي ؛ إن تركتني جئتك بأسيرين من المسلمين شابين. فقال: ومن لي بذلك؟ قال: إني إذا وعدت وفيت. قال: لست أثق بك. قال: فدعني أطوف في عسكرك لعلي أعرف من يكفلني إلى أن أمضي وأجيء بالأسيرين. فوكل مسلمة به من طاف معه في عسكره والاحتفاظ به. فمازال الشيخ يطوف ويتصفح الوجوه حتى مر بفتى من بني كلاب قائما يحسّن فرسه فقال: يا فتى، أضمني من الأمير، وقص عليه قصته. قال: أفعل.

وجاء الفتى معه إلى مسلمة فضمنه فأطلقه مسلمة. فلما مضى قال: أتعرفه؟ قال: لا والله. قال: ولِمَ ضمنته؟ قال: رأيته يتصفح الوجوه فاختارني من بينهم وكرهت أن أخلِف ظنه.

فلما كان من الغد عاد الشيخ ومعه أسيران من المسلمين شابان دفعهما إلى مسلمة وقال: يأذن الأمير في هذا الفتى أن يسير معي إلى حصني لأكافئه على فعله معي ؟. قال مسلمة للفتى: إن شئت فامضي معه.

فلما مضى وصار معه إلى حصنه قال له: تعلم والله يا فتى أنك

ابني؟ قال: وكيف أكون ابنك وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت من الروم نصراني؟ قال: أخبرني عن أمك من هي؟ قال: رومية. قال: فإني أصفها لك، فبالله إن صدقت إلا صدقتني. قال: أفعل.

وأقبل الشيخ الرومي يصف أمه ما ترك من صفتها شيئا. فقال الفتى: هي كذلك فكيف عرفت أني ابنها؟ قال: بالشبه وتعارف الأرواح وصدق الفراسة. ثم أخرج إليه امرأة، فلما رآها الفتى لم يشك في أنها أمه لشدة شبهها بها، وخرجت معها عجوز كأنها هي، فأقبلتا تقبلان رأس الفتى. فقال له الشيخ: هذه جدتك، وهذه خالتك

ثم خرج من حصنه، ودعا شبابا في الصحراء فأقبلوا فكلمهم بالرومية، فجعلوا يقبلون رأس الفتى ويديه ورجليه. فقال: هؤلاء أخوالك وبنو خالاتك، وبنو عم والدتك، ثم أخرج جلبا كثيرا وثيابا فاخرة، فقال: هذا لوالدتك عندنا منذ سبيت، فخذه معك فادفعه إليها فإنها ستعرفه، ثم أعطاه لنفسه مالا كثيرا، وثيابا جليلة، وحمله على عدة دواب وبغال وألحقه بعسكر مسلمة وانصرف.

فأقبل الفتى قافلا حتى دخل منزله، فأقبل على أمه يخرج لها الشيء بعد الشيء مما عرّفه الشيخ أنه لأمه فتراه فتبكي فيقول لها: قد وهبته لك !

فلما أكثر هذا عليها قالت: يا بني، أسألك بالله ؛ من أي بلد صارت إليك هذه الثياب؟ وهل قتلتم أحدا من صاحب أهل هذا الحصن الذي كان هذا فيه؟ فقال لها الفتى: صفة الحصن كذا وكذا، وصفة البلد كذا وكذا، ورأيت فيه قوما من حالهم كذا وكذا، ووصف لها أمها وأختها وأولادهما وهي تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: الشيخ والله أبي، والعجوز أمي، وتلك أختي، فقص عليها الخبر،

وأخرج بقية ما كان معه مما أنفذه أبوها إليه فدفعه لها.

هكذا كانت شيم العرب تضمن وتجير من يأتيها مستجيرا ولو كان في ذلك يكلفها قص رقبتها، فالموت أهون عندها من رد مستجير استجار بها ، وهذا يعد من الشجاعة والشهامة والمروءة التي يتصف بها العربي، فهل يا ترى ما زالت موجودة في عرب اليوم؟

الرشيد يخاطب مجنونا

خرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة إذ أبصر بهلولا المجنون على قصبة وخلفه الصبيان وهو يعدو فقال: من هذا؟ فقيل له: بهلول المجنون، فقال: كنت اشتهي أن أراه، فادعوه من غير ترويع، فذهبوا إليه وقالوا: أجب أمير المؤمنين؟ فلم يجب، فذهب إليه الرشيد وقال: السلام عليك يا بهلول، فقال: عليك السلام يا أمير المؤمنين، فقال: دعوتك لاشتياقي إليك، فقال بهلول: لكني لم أشتق إليك! فقال الرشيد: عظني يا بهلول، فقال: وبم أعظك؟ هذى قصورهم وهذى قبورهم! فقال الرشيد: زدني فقد أحسنت! فقال: يا أمير المؤمنين، من رزقه الله مالا وجمالا فعف في جماله، وواسى في ماله كُتب في ديوان الأبرار، فظن الرشيد أنه يريد شيئا، فقال: قد أمرنا لك أن تقضي دينك، فقال: لا يا أمير المؤمنين، لا يُقضى الدين بدين، أردد الحق على أهله، واقض دين نفسك من نفسك، قال: فإن قد أمرنا أن يُجرى عليك. فقال: يا أمير المؤمنين، أترى الله يعطيك وينساني! ثم ولّى هاربا.

مُدعي النبوة

تنبأ رجل في أيام المأمون، وادعى أنه إبراهيم الخليل، فقال له المأمون: إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين. قال: وما براهينه؟ قال: أُضرمت له النار وألقي فيها فصارت عليه بردا وسلاما، ونحن نوقد لك نارا ونطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك. قال: أريد واحدة أخف من هذه. قال: فبراهين موسى ! قال: وما براهينه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى ! وضرب البحر بها فانفلق ! وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء. قال: وهذه عليّ أصعب من الأولى ! قال: فبراهين عيسى. قال: وما هي؟ قال: إحياء الموتى ! قال: مكانك قد وصلت ! أنا أضرب رقبة القاضي يحي بن أكتم وأحييه لكم الساعة !

فقال يحي: أنا أول من آمن بك وصدق !

علمه حيلة فرجعت عليه

قال أبو الحسن: كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدين حتى توارى من غرمائه، ولزم منزله، فأتاه غريم عليه شيء يسير فتلطف حتى وصل إليه فقال له: ما تجعل لي إن أنا دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور والسلامة من غرمائك؟ قال: أقضيك حقك وأزيدك مما عندي مما تقر به عينك. فتوثق منه بالإيمان فقال له: غدا قبل الصلاة مُر خادمك يكنس بابك وفناءك، ويرش ويبسط على دكانك حُصرا، ويضع لك متكأ، ثم اجلس وكل من يمر عليك ويسلم تنبح له في وجهه، ولا تزيدن على النباح أحدا كائنا من كان، ولو كلمك أحد من أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره حتى تصير إلى الوالي، فإذا كلمك فانبح له، وإياك أن تزيده أو غيره على النباح، فإن الوالي إذا أيقن أن ذلك منك جدّ لم يشك أنه قد عرض لك عارض من مس فيخلي عنك. ففعل، فمر به بعض جيران فسلم عليه فنبح في وجهه، ثم مر آخر ففعل مثل ذلك حتى تسامع غرماؤه فأتاه بعضهم فسلم عليه فلم يزده على النباح، ثم آخر وآخر، فتعلقوا به فرفعوه إلى الوالي، فسأله الوالي فلم يزده على النباح، فرفعه معهم إلى القاضي فلم يزد على ذلك، فأمر بحبسه أياما وجعل عليه العيون، فملك نفسه وجعل لا ينطق بحرف سوى النباح، فلما رأى القاضي ذلك أمر بإخراجه، ووضع عليه العيون في منزله، وجعل لا ينطق بحرف إلا النباح، فلما تقرر ذلك عند القاضي أمر غرماءه بالكف عنه وقال: هذا رجل به لمم. فمكث ما شاء الله تعالى.

ثم إن غريمه الذي كان علّمه الحيله أتاه متقاضيا لعدته، فلما كلمه جعل لا يزيد على النباح ! فقال له: ويلك يا فلان ! وعليّ أيضا !؟ وأنا علمتك هذه الحيلة ! فجعل لا يزيد على النباح، فلما يئس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به.

الفصل الثالث

قصص ذات طابع ديني تحث على الصدق، وفعل الخير، والصدقة، وفضل التوكل على الله عز وجل، والعدل، وفضل التوبة، والدعاء إلى الله سبحانه وتعالى

رفض المكافأة فعوضه الله خيرا منها

يحكي ابن البزار الأنصاري قال: كنت مجاورا بمكة فأصابني يوما من الأيام جوع شديد لم أجد شيئا أدفع به عني الجوع، فوجدت كيسا من البرسيم، فأخذته وجئت به إلى بيتي، فحللته فوجدت فيه عقدا من لؤلؤ لم أر مثله ، فخرجت فإذا شيخ ينادي عليه، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار وهو يقول: هذا لمن يرد علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ، فقلت: أنا محتاج وأنا جائع، فآخذ هذا الذهب فأنتفع به، وأرد الكيس، فقلت له: تعال إليَّ، فأخذته وجئت به إلى البيت، فأعطاني علامة الكيس وعلامة الشرابة وعلامة اللؤلؤ وعدده والخيط الذي هو مشدود به، فأخرجته ودفعته إليه، فسلم لي الخمسمائة دينار، فما أخذتها، وقلت: يجب عليَّ أن أعيده إليك ولا آخذ له جزاء فقال لي: لا بد أن تأخذ، وألح عليَّ كثيرا فلم أقبل ذلك منه فتركني ومضى.

وأما ما كان مني فأني خرجت من مكة وركبت البحر، فانكسر المركب وغرق الناس وهلكت أموالهم، وسلمت أنا على قطعة من المركب فبقيت مدة في البحر لا أدري أين أذهب، فوصلت إلى جزيرة فيها قوم فقعدت في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليَّ وقال: علمني القرآن، فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال، قال: ثم إني رأيت في ذلك المسجد أوراقا من مصحف، فأخذتها أقرأ فيها فقالوا لي: تحسن تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علمنا الخط، فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب فكنت أعلمهم، فحصل لي أيضا من ذلك شيء كثير فقالوا لي بعد ذلك:

عندنا صبية يتيمة، ولها شيء من الدنيا نريد أن تتزوج بها، فامتنعت، فقالوا: لا بد، وألزموني، فأجبتهم إلى ذلك، فلما زفوها إليَّ مددت عيني أنظر إليها، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقا في عنقها فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه، فقالوا: يا شيخ، كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد ولم تنظر إليها، فقصصت عليهم قصة العقد فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير حتى بلغ جميع أهل الجزيرة، فقلت: ما بكم؟ فقالوا ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية، وكان يقول: ما وجدت في الدنيا مسلما إلا هذا الذي رد علي هذا العقد، وكان يدعو ويقول: اللهم أجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي، والآن قد حصل، فيقول: ثم بقيت معها مدة ورزقت منها بولدين، ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا وولداي ثم مات الولدان فحصل العقد لي، فبعته بمائة ألف دينار، وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال.

انظروا إلى هذا الرجل كيف ترك المال لله فعوضه الله خيرا منه، فامتلك العقد وتزوج صاحبته، وقد كان في أمس الحاجة إلى المال لا للتجارة أو للترفيه ولكن ليشتري به ما يسد جوعه من الأكل، فمن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه.

المكافأة من الله

يحكى أن شيخا فقيرا كان يسكن مكة وله عيال، وبينما هو يتجول بين أحياء مكة لكسب رزقه أو لعله يجد من يتصدق عليه ليعود بكسرة خبز لعياله يسد بها رمقهم ؛ وإذا برجل من خراسان ينادي ويقول: يا حجاج مكة من وجد هيمانا فيه ألف دينار فرده علي أضعفَ الله له الثواب (والهيمان هو الكيس الذي توضع فيه الدراهم ويشد على الوسط) فقام إليه الشيخ فقال له: يا خراساني، بلدنا فقير أهله، شديد حاله، ولعل هيمانك بيد رجل مؤمن يرغب فيما تبذله له حلالا يأخذه ويرده عليك، قال الخراساني: وكم يريد؟ قال: العُشر مائة دينار، قال: لا والله، لا أفعل، ولكن أحيله على الله عز وجل، ثم افترقا، وعاد الشيخ إلى بيته وقال لامرأته: يا لبابة: قالت: لبيك يا أبا غياث، قال: وجدت صاحب الهيمان ينادي عليه فقلت له: أجعل لمن يجده شيئا، فقال: كم؟ قلت: عُشره، فقال: لا ولكن نحيله على الله عز وجل، فأي شيء نعمل، ولا بد من رده؟ فقالت له: نقاسي الفقر معك منذ خمسين سنة، ولك أربع بنات وأختان وأنا وأمي تاسع القوم، انفق الكيس علينا واكسنا، ولعل الله يغنيك فتعطيه أو يكافئه عنك ويقضيه، فقال لها: لست أفعل ولا أحرق حشاشي بعد ست وثمانين سنة، فلما كان من الغد خرج الشيخ كعادته وإذا بالرجل الخراساني ينادي: يا معشر الحجاج من وجد هيمانا فيه ألف دينار فرده أضعف الله له الثواب، فقام له الشيخ وقال: يا خراساني: قد قلت لك بالأمس ونصحتك، وبلدنا والله فقير قليل الزرع والضرع،

وقد قلت لك أن تدفع لمن وجده مائة دينار فلعله يقع بيد رجل مؤمن يخاف الله ويرده إليك، قال: فامتنع الخراساني، فقلت: أعطه عشرة دنانير منها فيرده عليك ويكون له في العشرة دنانير ستر وصيانة، قال الخراساني: لا نفعل ولكن نحيله على الله عز وجل، ثم افترقا. فلما كان من الغد عاد الخراساني ينادي ذلك النداء، فقام له الشيخ وقال: يا خراساني قلت لك أمس الأول العُشر منه، وقلت لك عُشر العشر أمس، واليوم أقول لك عُشر عُشر العُشر بنصف دينار قربة يستقى عليها للمقيمين بمكة بالأجرة، وبالنصف الآخر شاة يحلبها، ويجعل ذلك لعياله غذاء، قال: لا نفعل، ولكن نحيله إلى الله عز وجل، فجذبه الشيخ جذبة وقال: تعال خذ هيمانك، ودعني أنام الليل، وأرحني من محاسبتك، ومشى الخراساني وراء الشيخ حتى وصلا إلى البيت وقال له: أدخل يا خراساني، فدخل، وأخرج له الهيمان وقال: هذا هيمانك؟ فنظر إليه وقال: هذا هيماني، ثم حل الهيمان وعد الدنانير فوجدها كما هي غير منقوصة، ثم وضع الهيمان على كتفه، ثم أراد الخروج، فلما بلغ باب الدار رجع وقال للشيخ: يا شيخ! مات أبي رحمه الله وترك من هذه ثلاثة آلاف دينار. فقال لي أخرج ثلثها ففرقه على أحق الناس عندك، وبع رحلي واجعله نفقة لحجك! ففعلت ذلك، وأخرجت ثلثها ألف دينار وشددتها في هذا الهيمان، وما رأيت منذ خرجت من خراسان إلى ها هنا رجلا أحق به منك، خذه بارك الله لك فيه، ثم خرج وتركه، وبعد لحظات تفكير للشيخ من مفاجأة ما رأى وما سمع، وكأنه كان في حلم جميل ثم عاد وقال: يا لبابة، الهيمان وادعي فلانة وفلانة، وصاح ببناته وأختيه وقال: أبسطن حجوركن، وما كان لهن قميص له حجر يبسطنه فمددن أيديهن وأقبل يعد لهن واحدة بعد الأخرى حتى فرغ الهيمان، وفتح

الله عليهم جميعا بعد أن كانوا فقراء فأغناهم الله .

يقول الشيخ: كنت أصلي الغداة في هذا القميص الخلق البالي، ثم أنزعه فتصلي واحدة واحدة، ثم اكتسب ما بين الظهر والعصر، ثم أعود في آخر النهار بما فتح الله عز وجل لي من أقط وتمر وكرّاث، ومن بقول نبذت لنقتات منها يومنا وهكذا.

يقول الراوي: وبعد سنين عدت إلى مكة وسألت عن ذلك الشيخ فقيل إنه قد مات بعد ذلك بشهور، ووجدت بناته ملوكا تحت ملوك، وماتت الأختان وأمهما والجدة، وكنت أنزل على أزواجهن وأولادهن فأحدثهم بذلك فيستأنسوا بي ويكرموني، فبارك الله فيما صاروا إليه ورحمة الله عليهم أجمعين.

وهكذا نستخلص من هذه الحكاية الموعظة والعبرة من صبر هذا الشيخ على الفقر، حتى بلغ من العمر ستا وثمانين سنة وهو يعول تسعة من العيال، وبالرغم من المال الذي عثر عليه لكنه لم تطوّع له نفسه أخذه بغير حقه، وحاول مع صاحب المال أن تكون المكافأة منه شخصيا، ومعذور في ذلك ؛ لأنه لا يدري ما يخبئ له القدر من خير جراء صبره، وعزة نفسه، فكانت المكافأة من الله عز وجل أكبر مما يتوقع، وبدلا من العُشر ونحو ذلك كانت المكافأة كل ما في الهيمان من دنانير، والأهم من ذلك كله نزول البركة فيها، ولِمَ لا؟ فهي خالصة من الله عز وجل على عبده.

كرامة الصدقة

دخل أبو مسلم الخولاني يوما على امرأته فقالت له: أبا مسلم، ليس لنا دقيق؟

فقال: أعندك شيء ؟

قالت: درهم بعنا به غزلا

قال: أبغنيه وهاتي الجراب، ثم دخل السوق فوقف على رجل يبيع الطعام، فوقف عليه سائل وقال له: يا أبا مسلم، تصدق عليَّ ، فهرب منه، وأتى حانوتا آخر، فتبعه السائل، فقال: تصدق علينا. فلما أضجره أعطاه الدرهم، ثم عمد إلى الجراب فملأه من نخالة النجارين مع التراب، ثم أقبل إلى باب منزله، فنقر الباب، وقلبه مرعوب من أهله، فلما فُتح الباب رمى بالجراب وخرج مسرعا، فلما فتحت امرأته الجراب إذا هو دقيق ناعم منخول، فعجنت وخبزت، فلما ذهبت ساعات من الليل جاء أبو مسلم، فنقر الباب ، فلما دخل وضعت امرأته بين يديه أصنافا من الطعام وأرغفة بيض، فتعجب من أين أتت بهذا كله؟ وسألها قائلا: من أين لكم هذا ؟، قالت: يا أبا مسلم، من الدقيق الذي جئت به، فجعل يبكي ويأكل.

إن أصعب جهاد هو جهاد النفس، ونعمة الإيثار لها فضل كبير عند الله عز وجل، وهذا الرجل آثر السائل عن نفسه وأهله الذين كانوا ينتظرون عودته إليهم بالطعام، وأعطاه الدرهم الذي لا يملك غيره، فتحول بنعمة الله وقدرته ما جمعه من نخالة النجارين والتراب إلى دقيق أبيض ناعم، فما أعظم الصدقة الخالصة لله ! وما أعظم الثواب من الله عز وجل !.

من الفقر إلى الغنى إلى حساب الآخرة

قال أحمد بن مسكين الفقيه البغدادي رحمه الله :

إني امتُحنت بالفقر في سنة تسع عشرة، وقل مالي، وقحط منزلي قحطا شديدا، حتى أني لم أجد ما أنفق على عيالي، وكانت داري يومئذ في محلة باب البصرة من بغداد.

وجاء يوم صحراوي شديد الحر ولم يكن عندنا شيء يسيغه حلق آدمي ؛ إذ لم يكن في الدار إلا ترابها وحجارتها وأجذاعها، ولي امرأة عندي منها طفل صغير، وقد طوينا على جوع يخسف بالجوف خسفا كما تهبط الأرض، حتى تمنيت حينئذ لو كنا جرذانا فنقرض الخشب، وكان جوع الصبي يزيد المرأة ألما إلى جوعها، وكنت بهما كالجائع بثلاثة بطون خاوية.

فقلت في نفسي: إذا لم نأكل الخشب والحجارة فلنأكل بثمنها، وجمعت نيتي على بيع الدار والتحول عنها، وإن كان خروجي منها كالخروج من جلدي، وبت ليلتي كالجريح الذي حُمل من معركة يتقلب ليله على ألم الجراح، ثم خرجت لصلاة الصبح، ولما قضيت الصلاة رفع الناس أكفهم للدعاء، جرى على لساني بهذا الدعاء: اللهم بك أعوذ أن يكون فقري في ديني، وأسألك النفع الذي يصلحني بطاعتك، وأسألك بركة الرضا بقضائك، وأسألك القوة على الطاعة، والرضا يا أرحم الراحمين.

ثم جلست أتأمل شأني، وأطلت الجلوس في المسجد كأني لم أعد من أهل الزمن، فلا تجري علي أحكامه، حتى ارتفع الضحى وابيضت

الشمس، وجاءت حقيقة الحياة، فخرجت أتسبب لبيع الدار وأنا لا أدري أين أذهب، فما سرت غير بعيد حتى لقيني أبو نصر الصياد، وكنت أعرفه قديما، فقلت: يا أبا نصر، إني أريد بيع الدار ، فقد ساءت الحال، وأصبحت في خصاصة، فأقرضني شيئا يكفيني طعاما ليومين حتى أبيع الدار وأسد دينك.

فقال: خذ هذا المنديل إلى عيالك وأنا على أثرك لاحق بك إلى المنزل، ثم ناولني منديلا فيه رقاقتان بينهما حلوى، وقال: إنهما والله من الشيخ.

قلت: من الشيخ؟ وما القصة ؟

قال: وقفت أمس على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة، فمر بي بشر الحافي فقال: ما لي أراك في هذا الوقت؟

قلت: ما في البيت دقيق ولا خبز ولا درهم ولا شيء يباع، فقال: الله المستعان، احمل شبكتك وتعال إلى الخندق، ثم قال لي: توضأ وصلِّ ركعتين، ففعلت، فقال: سم الله تعالى وألق الشبكة، فسميت وألقيتها، فوقع فيها شيء ثقيل، فجعلت أجره فشق علي فقلت له: ساعدني فإني أخاف أن تنقطع الشبكة، فجاء وجرها معي، فخرجت سمكة عظيمة لم أر مثلها سمنا وعظما وفراهة.

فقال: خذها وبعها واشتر بثمنها ما يصلح عيالك، فحملتها فاستقبلني رجل اشتراها، فابتعت لأهلي ما يحتاجون إليه، فلما أكلت وأكلوا ذكرت الشيخ فقلت: أهدي له شيئا، فأخذت هاتين الرقاقتين وجعلت بينهما هذه الحلوى وأتيت إليه فطرقت الباب، فقال: من؟ قلت أبو نصر. قال: افتح الباب، فدخلت وحدثته بما صنعت فقال: الحمد لله على ذلك.

فقلت: إني هيأت للبيت شيئا، وقد أكلوا وأكلت ومعي رقاقتان فيهما حلوى.

قال الشيخ: يا أبا نصر، لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة، اذهب كله أنت وعيالك.

قال أحمد بن مسكين: وكنت من الجوع بحيث لو أصبت رغيفا لحسبته مائدة أنزلت من السماء، ولكن كلمة الشيخ عن السمكة أشبعتني شبعا ليس من هذه الدنيا، كأنما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة، وأخذت الرقاقتين وأنا أقول في نفسي: لعن الله هذه الدنيا، ومضيت إلى داري فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي، فنظرت إلى المنديل وقالت: هذا طفل يتيم جائع، ولا صبر له على الجوع، فأطعمه شيئا يرحمك الله، ونظر إليَّ الطفل نظرة لا أنساها، حسبت فيها خشوع ألف عابد، وخُيل إليَّ حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يشبع هذا الطفل وأمه والناس عُمي لا يبصرونها.

وذكرت امرأتي وابنها وهما جائعان منذ أمس غير أني أجد لهما في قلبي معنى الزوجة والولد، بل معنى هذه المرأة المحتاجة وصبيها، فأسقطتها عن قلبي ودفعت ما في يدي للمرأة وقلت لها: خذي واطعمي ابنك، والله لا أملك بيضاء ولا صفراء، وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام، فدمعت عيناها، وأشرق وجه الصبي. وقلت في نفسي: أما أنا فأطوي، فقد كان أبوبكر الصديق يطوي ستة أيام، وكان ابن عمر يطوي وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم، وروينا أخبارهم، ولكن من للمرأة وابنها، وكيف لي بهما ؟

ومشيت وأنا منكر منقبض، وكأني كنت نسيت كلمة الشيخ: لو

أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة. فذكرتها وصرفت خاطري إليها، وشغلت نفسي بتدبيرها وقلت: لو أني أشبعت ثلاثة بجوع أثنين لحُرمت خمس فضائل، (يقصد بذلك جوعه وجوع امرأته وجوع ابنه ثم شبع هذه المرأة وشبع ابنها فهذه خمس فضائل) وهذه الدنيا محتاجة إلى الفضيلة، وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدار ومن يبتاعها، وبينما أنا كذلك إذ أبو نصر الصياد وكأنه مستطار فرحا فقال: يا أبا محمد، ما يجلسك ها هنا، وفي دارك الخير والغنى ؟

قلت: سبحان الله، من أين خرجت السمكة يا أبا نصر ؟

قال: إني لفي الطريق إلى منزلك، ومعي ضرورة من القوت أخذتها لعيالك ودراهم استدنتها لك، إذ رجل يسأل الناس عن أبيك أو أحد من أهله ومعه أثقال وأحمال، فقلت له: أنا أدلك، ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنه عند أبيك.

فقال: إنه تاجر من البصرة، وقد كان أبوك أودعه مالا منذ ثلاثين سنة، فأفلس وانكسر المال، ثم ترك البصرة إلى خراسان، فصلح أمره على التجارة هناك، وأيسر بعد المحنة، وأقبل حظه بالشراء والغنى، فعاد إلى البصرة وأراد أن يتحلل، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة، وإلى ذلك طرائف وهدايا.

قال أحمد بن مسكين: وانقلبت إلى داري فإذا مال جم وحال جميلة، فقلت: صدق الشيخ: لو أطعمنا أنفسنا ما خرجت السمكة.

فلو أن هذا الرجل لم يلق في وجهه أبا نصر في هذه الطريق، في هذا اليوم، في هذه الساعة، لما اهتدى إليّ، فقد كان أبي مغمورا لا يعرفه أحد وهو حي، فكيف به ميتا قبل عشرين سنة ؟

وآليت ليعلمن الله شكري على هذه النعمة، فلم تكن لي همة إلا

البحث عن المرأة المحتاجة وابنها، فكفيتها وأجريت عليهما رزقا، ثم أتجرت في المال وجعلت أتعامل فيه بالمعروف، والإحسان، وهو مقبل يزداد ولا ينقص حتى أصبحت من أغنياء القوم، وكأني قد أعجبتني نفسي، وسرني أني قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتي ورجوت أن أكون قد كُتبت عند الله من الصالحين، فنمت ليلة فحلمت أني في يوم القيامة، والخلق يموج بعضهم في بعض، والهول شديد على الإنسان الضعيف، وسمعت الصائح يقول: يا معشر بني آدم، سجدت البهائم شكرا لله أنه لم يجعلها من آدم، ورأيت الناس وقد وسعت أبدانهم فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقة مجسمة حتى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلها مخزيات.

وقيل: وضعت الموازين، وجيء بي لوزن أعمالي، فجُعلت سيئاتي في كفة، وألقيت سجلات حسناتي في الأخرى، فطاشت السجلات ورجحت السيئات، كأنما وزنوا الجبل الصخري العظيم بلفافة من قطن، ثم يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كنت أصنعه، فإذا تحت كل حسنة شهوة خفية من شهوات النفس كالرياء والغرور وحب المحمدة عند الناس، وغيرها، فلم يسلم لي شيء، وهلكت عني حجتي، إذ الحجة ما يبينه الميزان، والميزان لم يدل إلا على أني فارغ.

وسمعت الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقي هذا.

وانظر لأرى ما هذا الذي بقي، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنت بهما على المرأة وابنها، فأيقنت أني هالك، فلقد كنت أحسن بمائة دينار ضربة واحدة فما أغنت عني، ورأيتها في الميزان مع غيرها شيئا معلقا، كالغمام حين يكون ساقطا بين السماء والأرض: لا هو في هذه ولا هو تلك.

ووضعت الرقاقتان، وسمعت القائل: لقد طار نصف ثوابها في ميزان أبي نصر الصياد، فانخذلت انخذالا شديدا، حتى لو كُسرت نصفين لكان أخف علي وأهون، ثم أني نظرت فرأيت كفة الحسنات قد نزلت منزلة، ورجحت بعض الرجحان. وسمعت الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقى هذا.

وانظر ما هذا الذي بقى، فإذا جوع امرأتي وولدي في ذلك اليوم، وإذا هو شيء يوضع في الميزان، وإذا هو ينزل بكفة ويرفع الأخرى حتى اعتدلت بالسوية، وثبت الميزان على ذلك فكنت بين الهلاك والنجاة.

وأسمع الصوت: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقى هذا.

ونظرت فإذا دموع تلك المرأة المسكينة حين بكت من أثر المعروف في نفسها، ومن إيثاري إياها وابنها على أهلي، ووضعت غرغرة عينيها في الميزان ففارت فطمت كأنها لجة من تحت اللجة بحر، وإذا سمكة هائلة خرجت من اللجة وقع في نفسي أنها روح تلك الدموع، فجعلت تعظم، ولا تزال تعظم والكفة ترجح ولا تزال ترجح حتى سمعت الصوت يقول: قد نجا ـ قد نجا. وصحت صيحة انتبهت لها، فإذا أنا أقول: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة.

ولعل المواعظ من هذه القصة لا تحتاج إلى توضيح.

باتوا فقراء فأصبحوا أغنياء

يُحكى أن حاتم الأصم كان رجلا كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فدخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده وجلس معهم يحدثهم ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجا، ويدعوكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئا ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له، ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء ؛ فإنه مناول للرزق، وليس برزاق، فلما ذكرّتهم ذلك، قالوا صدقت والله هذه الصغيرة، يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافرا، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم ويوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكت ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي، عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدا، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعا واليوم يقف على بابنا الأمير يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزا جديدا وملأته ماءً وقالت للمتناول منها:

اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يُعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئا، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعا، فقال الأمير: ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار ثم قال لأصحابه: من أحبني فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير ودفع إليهم ثمن المناطق مالا جزيلا واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة بكت بكاء شديدا فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسع علينا فقالت: يا أمِ، والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعا فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين. اللهم انظر إلى أبينا ودبره بأحسن تدبير.

هذه هي نعمة التوكل على الله، فحاتم الأصم توكل على الله لا لعمل معصية أو من أجل شهوة دنيوية، ولكنه توكل على ربه لزيارة بيت الله الحرام، فقد تاقت نفسه شوقا للحج، وزيارة الأماكن المقدسة بالرغم من قلة المال، وكثرة العيال.

أنظروا أيضا إلى ابنته الصغيرة كيف كان موقفها من رغبة أبيها، وتشجيعها له، فكانت نعم الابنة البارة بأبيها، والتي يتمنى كل أب أن تكون له ابنة مثلها.

كما نلاحظ أن البشر كانوا وما زالوا كما هم لم يتغيروا، فليس لهم قول إلا اللوم والتوبيخ على أي فعل يرونه مهما كان نوعه، وكان الأولى أن يقول الإنسان خيرا أو يصمت.

الرجل الصالح

يحكى أنه كان رجلا صالحا يعيش في بلدة تسمى (الحمرة) وكان يعمل فيها بالزراعة ، وكان ذا دين وصدقة، واتفق أنه بنى مسجدا يصلي فيه، وجعل يأتي إلى ذلك المسجد كل ليلة بالسراج وبعشائه فإن وجد في المسجد من يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء وإلا أكله وصلى صلاته، واستمر على ذلك الحال، حتى جاءت شدة، ونضب ماء الآبار، وكانت له بئر، فلما قل ماؤها أخذ يحفرها هو وأولاده، فخربت تلك البئر والرجل في أسفلها خرابا عظيما حتى أنه سقط ما حولها من الأرض إليها، فيأس منه أولاده ولم يواصلوا حفر البئر، وقالوا: قد صار هذا قبره، وكان ذلك الرجل عند خراب البئر في كهف فيها، فوقعت إلى بابه خشبة منعت الحجارة من أن تصيبه، فأقام في ظلمة عظيمة، ثم إنه بعد ذلك جاءه السراج الذي كان يحمله إلى المسجد، وذلك الطعام الذي كان يحمله كل ليلة به يفرق ما بين الليل والنهار، واستمر له ذلك مدة ست سنين والرجل مقيم في ذلك المكان على تلك الحال، ثم إنه بدا لأولاده أن يحفروا البئر لإعادة عمارتها، فحفروها حتى انتهوا إلى أسفلها، فوجدوا أباهم حياً فسألوه عن حاله فقال لهم: السراج والطعام الذي كنت أحمل إلى المسجد يأتيني على ما كنت أحمل تلك المدة !

فعجبوا من ذلك، فصارت قصتة موعظة يتعظ بها الناس في أسواق تلك البلدة.

انظروا كيف بقى ذلك الرجل الصالح حيا لمدة ست سنوات في

قعر بئر انهارت فوق رأسه، ثم نجاه الله بأعجوبة ليكون آية للناس، وموعظة وعبرة وتذكيرا للناس بأهمية الصدقة، والتدين الخالص لوجه الله الذي لا رياء فيه، ودليل على أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

جزاء التوبة

حدّث الكاتب أبوالقاسم بن رضوان عن أبي بكر بن منظور عن بعض أعيان مراكش أنه أوصى قبل وفاته أبنا له كان من أهل البطالة أن يعمد إلى ألف دينار فيدفعها إلى الشيخ السبتي، وقال للشيخ: إن أبي توفى وأوصاني قبل وفاته أن أدفع إليك هذه الألف دينار فقال له الشيخ: قد قبلتها، وصرفتها إليك، فقال له: يا سيدي ما تأمرني أن أفعل بها؟ قال: خذها، قال: فانصرفت من عنده ثم قلت: أنا أنفق مثل ذلك على عاداتي في الوجه الذي يلذ لي، فلأفعلن بها ما أفعل بغيرها، وخرجت ألتمس الزنى، فإذا امرأة على دابة وغلام يقودها، فأشرت إلى الغلام فقال لي: نعم، واتبعني إلى بستان لي، فنزلت المرأة فأدخلتها إلى قبة كانت في البستان، وأخذ الغلام الدابة وصار جانبا، وقال: أغلق الباب ففعلت، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة تبكي بكاء شديدا حتى طال بكاؤها، وبكيت لبكائها، فقلت لها: ما شأنك؟ فقالت: أفعل ما دعوتني لأجله، ودع عنك هذا، ونحيبها يزيد، فقلت لها: إن المعنى الذي دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء بل مع الأنس، وانشراح الصدر وزوال الانقباض ورفع الخجل، فقالت: نترك البكاء ونرجع للأنس على ما تحب ويوفي غرضك، فقلت: لا، حتى أعلم سبب بكائك، وألححت عليها، فقالت: أتعرف حاجب الملك الذي سجنه؟ قلت: نعم، قالت: فانا ابنته، ولم يبق له أحد غيري، وقد سجنه الملك وأخذ أمواله، فما زلت أبيع ما ترك لي وأنفقه عليه، حتى لم يبق بيدي شيء، فلما أعيتني الحياة فيما أنفقه ألجأت نفسي، ووقفت

هذا الموقف وأنا بكر ما رأى لي أحد وجها قط، فرميت لها بالألف دينار وقلت لها: والله لا قربت منك على هذا الوجه أبدا فانفقي الدنانير على والدك إلى أن تنفد، وابعثي لي غلامك أعلمه بمنزلي، ولازمي دارك، واستمري على صيانتك وإلا فضحتك، وتريني والله لا أزال أبيع أملاكي وأنفقها على والدك حتى أموت أو يفنى كل ما أملكه، ثم خرجت ألتمس الغلام وإذا بجماعة يطلبون البنت وقالوا: إن الملك رضى عن والدها ورد عليه ضياعه وأملاكه، ووصله بعشرة آلاف دينار، وقعد يلتمس بنته فلم يجدها، فسقط في يد الغلام الذي كان مع الدابة، وظن أن الأمر على ما جرى بيني وبين البنت، فبادرته وقلت له: لا عليك، فتجاهل في خبرها حتى ينصرفوا، ودخلت على البنت وقلت لها: إن الملك قد رضى عن والدك، ورد عليه ماله، ووصله، فسيري إلى دارك، فركبت دابتها وانصرفت، فدخلت على والدها فقال لها: أين كنت؟ وما الذي أخرجك عن دارك؟ وهمّ بها، فقالت له: أخرج عني كل من في الدار، ففعل، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره، ورمت عليه بالألف دينار، وقالت له: هذا الذي أعطاني لأنفق عليك، فقال أبوها: هذا والله هو الكبريت الأحمر، والله لو كان أبوه كنافا (أي الذي يعمل في الكنف أي المراحيض) ما أنفت أن أزوجك منه، ثم وجه العبد الذي كان معها إلى الشاب وقال له: إن سيدي يدعوك، قال: فخفت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه، ثم أقدمت إقدام من علم براءة نفسه، فدخلت عليه، فقام إليّ وعانقني، وقد عرف لي مقامي، وقال: أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قرّت بك عيني، وقال: والله لو كان أبوك كنافا ما أنفت لبنتي أن أزوجك منها، فما قام من المجلس حتى وجه إلى العدول وأشهد على نفسه أنه زوج ابنته فلانة من هذا الشاب، ونقدها عنه الشطر الأول

من العشرة ألاف دينار التي وصله بها الملك، وأجل لها الشطر الثاني، وأهدى لها من الحلي كذا وكذا، ومن الثياب كذا وكذا، حتى أتى على أكثر أملاكه أنفقها على ذلك، فحصل على أضعاف مضاعفة من الأموال، وظفر ببنت حاجب الملك.

انظروا كيف أن الله يكافئ عبده عندما يترك شيئا لله بأضعاف مضاعفة، وينعم عليه بنعم عظيمة أكبر مما يتوقع، وخاصة في مثل مواقف هذا الشاب، فاللهم استر بناتنا وشبابنا، وثبتهم على طاعتك يا أرحم الراحمين.

يخرج الحديد بيده من النار ولا يحترق

قال بعض الصالحين: دخلت إلى مصر فوجدت حدادا يخرج الحديد بيده من النار ويقلبه على السندان ولا يجد لذلك ألما ! فقلت في نفسي: هذا عبد صالح لا تعدو عليه النار، فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام، فقلت له: يا سيدي بالذي منَّ عليك بهذه الكرامة إلا ما دعوت لي، فبكى وقال: والله يا أخي ما أنا كما ظننت، إن لهذا الأمر حديثا عجيبا، فقلت له: إن رأيت أن تعرفني به فافعل، قال: كنت يوما من الأيام جالسا في هذا الدكان، إذ وقفت عليّ امرأة لم أر قط أحسن منها وجها، فقالت: يا أخي هل عندك شيء لله؟

فلما نظرت إليها فُتنت بها وقلت لها: هل لك أن تمضي معي إلى البيت وأدفع لك ما يكفيك؟ فنظرت إليّ زمانا طويلا فذهبت وغابت عني طويلا ثم رجعت وقالت: قد أحوجتني الضرورة إلى ما ذكرت، قال: فقفلت الدكان ومضيت بها إلى البيت، فقالت لي: يا هذا إن لي أطفالا وقد تركتهم على فاقة شديدة، فإن رأيت أن تعطيني شيئا أذهب به إليهم وأرجع إليك فافعل، قال: فأخذت عليها العهود والمواثيق ودفعت لها بعضا من الدراهم فمضت وغابت ساعة ثم رجعت، فدخلت بها إلى البيت وأغلقت الباب، فقالت: لِمَ فعلت هذا؟ فقلت لها: خوفا من الناس، فقالت: ولِمَ لا تخاف من رب الناس؟ فقلت لها: إنه غفور رحيم، ثم تقدمت إليها فوجدتها تضطرب كما تضطرب السعفة في يوم ريح عاصف ودموعها تتحدر على خديها، فقلت لها: مِمَّ اضطرابك وبكاؤك؟ فقالت: خوفا من الله عز وجل،

ثم قالت لي: يا هذا إن تركتني ضمنت لك أن الله لا يعذبك بالنار لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال: فقمت وأعطيتها جميع ما كان عندي، وقلت لها: يا هذه قد تركتك خوفاً من الله عز وجل، وقال: فلما فارقتني غلبتني عيني فنمت فرأيت امرأة لم أر أحسن منها وجها، وعلى رأسها تاج من الياقوت الأحمر فقالت لي: جزاك الله عنا خيرا، قلت لها: ومن أنت؟ قالت: أنا أم الصبية التي أتتك وتركتها خوفا من الله عز وجل لا أحرقك الله بالنار لا في الدنيا ولا في الآخرة، فقلت لها: عرفيني بك ومن أي نسل أنت يرحمك الله؟ فقالت: أنا من نسل رسول الله (ﷺ)، فتذكرت قول الله عز وجل (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) (الأحزاب 33) ثم أفقت من منامي، ومن ذلك الوقت لم تعدُ عليّ النار، وأرجو أن لا تعدو عليّ في الآخرة.

يا ألهي كم أنت عظيم جزاؤك لمن يتعفف عن الزنا، ويتركه خوفا من الله عز وجل، ولنا في مثل هذه القصص عظة وعبرة.

أويس القرني وقصة وفاته

أويس القرني هو أحد الصالحين العابدين ؛ إذ يحكي عنه أحد العارفين قصة وفاته يقول: خرجنا من أرض العراق نريد مكة، وكنا في رفقة كثيرة من الناس، فإذا نحن برجل من أهل العراق وقد خرج معنا، وكان الرجل فيه شقرة وهو مصفر اللون قد ذهب الدم من وجهه مما قد بلغت به العبادة، وعليه ثياب بالية من رقاع شتى وبيده عصا، ومعه مزود فيه شيء من الزاد.

قال: وكان ذلك الرجل العابد الزاهد أويسا القرني.

فلما نظر إليه أهل القافلة على تلك الحالة أنكروه وقالوا له: نظن أنك عبد.

قال: نعم.

قالوا: نظن أنك عبد سوء هربت من مولاك.

قال لهم: نعم.

قالوا: كيف رأيت نفسك حين هربت من مولاك وما صار إليه أمرك؟ أما إنك لو أقمت عنده ما كانت هذه حالتك؟ وإنما أنت عبد سوء مقصر .

فقال لهم: نعم والله أنا عبد سوء، ونعم المولى مولاي، ومن قبلي التقصير، ولو أطعته طلبت رضاه، ما كان أمري هذا، وجعل يبكي حتى كادت نفسه تزهق.

قال: فرحمه القوم، وظنوا أنه يعني مولى من موالي الدنيا، وهو

ما كان يريد بذلك إلا رب العالمين.

فقال له رجل من أهل القافلة: لا تخف، أنا آخذ لك من مولاك الأمان، فارجع إليه وتُب.

فقال: إني راجع إليه، وراغب فيما لديه.

قال: وكان خرج زائرا إلى مسجد رسول الله (ﷺ) فسارت القافلة ذات يوم وسار معهم، وجدوا في السير فلما كان في الليل نزلوا في فلاة من الأرض وكانت ليلة شاتية باردة كثيرة المطر.

قال: فأوى كل واحد من أهل القافلة إلى رحله وخبائه، ولم يأو أويس إلى شيء، ولم يسأل أحدا شيئا.

قال: وقد كان آل على نفسه ألا يسأل في أمور الدنيا مخلوقا، وإنما تكون حوائجه إلى الله سبحانه وتعالى، فبلغ به البرد تلك الليلة مبلغا شديدا حتى اضطربت جوارحه من شدة البرد، واشتد عليه سلطان البرد حتى مات في جوف الليل، فلما أصبحوا وأرادوا الرحيل، نادوه: قم أيها الرجل، فإن الناس قد رحلوا، فلم يجبهم، فأتاه رجل قريب منه فحركه فوجده ميتا رحمه الله.

فنادى: يا أهل القافلة، إن السيد الهارب من سيده قد مات، ولا ينبغي لكم الرحيل حتى تدفنوه.

قالوا: وما الحيلة في أمره ؟

فقال لهم رجل صالح كان معهم: إن هذا العبد كان عبدا تائبا راجعا إلى مولاه، نادما على ما صنع، ونحن نرجو أن ينفعنا الله به، وقد قبل توبته، ونخاف أن نُسأل عنه إن تركناه غير مدفون، ولا بد لكم أن تصبروا حتى تحفروا له قبرا وتدفنوه فيه.

فقالوا: هذا موضع ليس فيه ماء، فقال بعضهم لبعض: أسألوا

الدليل، فسألوه، فقال: إن بينكم وبين الماء ساعة، ولكن أرسلوا معي واحدا وأنا آتيكم بالماء. فأخذ الدليل دلوا وسار إلى الماء فلما خرج من القافلة إذا هو بغدير من الماء فقال الدليل: هذا هو العجب الذي لم أر مثله، هذا موضع ليس فيه ماء، ولا على قرب منه !

فرجع إليهم، وقال لهم: قد كُفيتم المؤنة. عليكم بالحطب، فجمعوه ليسخنوا به الماء من شدة البرد، ثم نزلوا إلى الماء ليأخذوه فوجدوه ساخنا يغلي، فازدادوا تعجبا، وفزعوا من ذلك الرجل، وقالوا: إن لهذا العبد قصة وشأنا.

قال: فأخذوا في حفر قبره، فوجدوا التراب ألين من الزبد، والأرض تفوح مثل المسك، ولم يشموا في دار الدنيا أطيب منه رائحة، فعند ذلك اشتد خوفهم، ومُلئوا رعبا وفزعا، وكانوا إذا نظروا إلى التراب الذي يخرج من القبر وجدوه صفة التراب، وإذا شموه وجدوا رائحة كرائحة المسك.

فضربوا له خباء وأدخلوه فيه، وتنافسوا في كفنه، فقال رجل من القوم: أنا أكفنه،

وقال آخر: أنا أكفنه. فاتفق رأيهم على أن يجعل كل واحد منهم ثوبا.

ثم إنهم أخذوا دواة وقرطاسا وكتبوا صفته ونعته وقالوا: إن شاء الله نصل المدينة فلعل هناك من يعرفه، وجعلوا الكتاب في أوعيتهم.

فلما غسلوه وأرادوا أن يكفنوه، كشفوا الثوب الذي كان عليه فوجدوه مكفنا بكفن من الجنة، لم ير الراؤون مثله، ووجدوا على كفنه مسكا وعنبرا، وقد ملأت رائحة حنوطه الدنيا، وعلى جبينه خاتم من المسك، وعلى قدميه كذلك.

فقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إن الله عز وجل قد كفنه وأغناه عن أكفان العباد، ونرجو الله تعالى أنه قد أوجب لنا الجنة ورحمنا بهذا العبد الصالح، وندموا ندامة شديدة على تركه تلك الليلة حتى مات من شدة البرد.

ثم إنهم حملوه ليدفنوه ووضعوه في بقعة سهلة ليصلوا عليه، فلما كبروا سمعوا أصوات التكبير من السماء إلى الأرض ومن المشرق إلى المغرب، وانخلعت أفئدتهم وأبصارهم، ولم يدروا كيف صلوا عليه من شدة الجزع، وعظم رعبهم مما سمعوا فوق رؤوسهم، فحملوه يريدون قبره، فكأنه يُخطف من بينهم ولا يجدون له ثقلا حتى أتوا به إلى القبر ليدفنوه، فدفنوه ورجع القوم وقد تعجبوا من أمره.

فلما قضوا سفرهم، وأتوا إلى مسجد الكوفة، وأخبروا بخبره وما كان من صفقته، فعند ذلك عرفه الناس، وارتفعت الأصوات بالبكاء في مسجد الكوفة، ولولا ذلك ما عرف أحد بموته، ولا بمكان قبره لاختفائه عن الناس وهروبه منهم رضي الله عنه

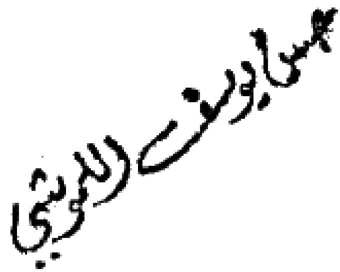
قاضي بني إسرائيل

عن مغيرة عن عكرمة قال: كانت القضاة ثلاثة، يعني في بني إسرائيل، فمات واحد، فجعل الآخر مكانه، فقضوا ما شاء الله أن يقضوا، فبعث الله ملكا على فرس، فمر على رجل يسقي بقرة معها عجل، فدعا الملك العجل فتبع العجل الفرس، فجاء صاحبه ليرده فقال: يا عبد الله، عجلي وابن بقرتي، فقال الملك: بل هو عجلي وابن فرسي، فخاصمه حتى أعياه فقال الملك: بيني وبينك القاضي، قال: قد رضيت، فأتوا إلى أحد القضاة فتكلم صاحب العجل فقال له: مر بي هذا الرجل على فرس فدعا عجلي فتبعه، فأبى أن يرده. قال: ومع الملك ثلاث درات لم ير الناس مثلها، فأعطى القاضي درة وقال: أقض لي، فقال: كيف يكون هذا؟ فقال الملك: ترسل العجل خلف الفرس والبقرة، فأيهما تبعها فهو ابنها، ففعل القاضي ذلك ، فتبع العجل الفرس فقضى له، فقال صاحب العجل: لا أرضى. بيني وبينك القاضي الآخر، ففعلا مثلا ذلك، ثم أتيا الثالث فقصا عليه قصتهما ونأوله الملك الدرة الثالثة، فلم يأخذها وقال: لا أقضي بينكما اليوم، فقالا: ولِمَ لا تقض بيننا؟ فقال: لأني حائض، فقال الملك: سبحان الله رجل يحيض ! فقال القاضي: سبحان الله وهل تنتج الفرس عجلا؟ فقضى لصاحب البقرة، فقال الملك: إنكم إنما ابتليتم، وقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك.

فضل الصدقة

قال أبوبكر بن عياش عن عكرمة: أن ملكا من الملوك نادى في مملكته: إني إن وجدت أحدا يتصدق بصدقة قطعت يده، فجاء سائل إلى امرأة فقال: تصدقي عليّ بشيء فقالت: كيف أتصدق عليك والملك يقطع يد من تصدق؟ قال: أسألك بوجه الله ألا تصدقت عليّ بشيء، فتصدقت عليه برغيفين، فبلغ ذلك الملك، فأرسل إليها فقطع يدها، ثم إن الملك قال لأمه: دليني على امرأة جميلة لأتزوجها، فقالت: إن هاهنا امرأة ما رأيت مثلها لولا عيب بها، قال: أي عيب هو؟ قالت مقطوعة اليدين، قال: فأرسلي إليها، فلما رآها أعجبته، وكان لها جمال بارع، فقالت: إن الملك يريد أن يتزوجك، قالت: نعم إن شاء الله فتزوجها وأكرمها، فخرج إلى الملك عدو فخرج إليهم، ثم كتب إلى أمه، انظري فلانة فاستوصي بها خيرا، وافعلي وافعلي معها، فجاء الرسول، فنزل على بعض ضرائرها فحسدتها، وأخذن الكتاب فغيرنه وكتبن إلى أمه، انظري فلانة، فقد بلغني أن رجالا يأتونها فأخرجيها من البيت وافعلي وافعلي، فكتبت إليه الأم: إنك قد كذبت، وإنها لامرأة صدق، فذهب الرسول إليهن، فنزل بهن، فأخذن الكتاب فغيرنه، فكتبن إليه، إنها فاجرة وقد ولدت غلاما من الزنا، فكتب إلى أمه: انظري فلانة، فاجعلي ولدها على رقبتها واضربي على جيبها وأخرجيها ، فلما جاءها الكتاب قرأته عليها وقالت لها: اخرجي، فجعلت الصبي على رقبتها وذهبت فمرت بنهر وهي عطشانه، فنزلت لتشرب والصبي على رقبتها فوقع في الماء

فغرق، فجلست تبكي على شاطئ النهر فمر بها رجلان، فقالا: ما يبكيك؟ فقالت: ابني كان على رقبتي وليس لي يدان، فسقط في الماء فغرق، فقالا لها: أتحبين أن يرد الله عليك يديك كما كانتا؟ قالت: نعم، فدعوا الله ربهما، فاستوت يداها، ثم قالا لها: أتدرين من نحن؟ قالت: لا، قالا: نحن الرغيفان اللذان تصدقت بهما.



عبد الله بن المبارك

عبد الله بن المبارك كان أبوه تركيا مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همذان، وكانت أمه خوارزمية، وكان موصوفا بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة والشعر، وكان كثير الغزو والحج، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف دينار يتجر بها في البلدان، وكان كثير الإنفاق على الفقراء.

وقد ولي القضاء مرتين في مصر، وكان إذا أراد الحج إلى مكة يطعم أصحابه، بينما هو صائم الدهر، ويتولى النفقة عليهم وشراء الهدايا لهم، وإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورمم شعثها، وكان هذا دأبه في كل حجة.

وقدم مرة الرقة وبها هارون الرشيد فلما دخلها احتفل الناس به، وازدحم الناس حوله، فأشرفت أم ولد الرشيد من قصر هناك فقالت: ما للناس؟ فقيل لها: قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك، فتسارع الناس إليه، فقالت: هذا هو الملك لا الملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة.

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه، وتخلف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائر الميت، ثم لفته، ثم أسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا

الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظلم وأُخذ ماله وقتل، فأمر عبد اللّه بن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار، فقال: عد منها عشرين دينارا تكفينا إلى مرو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا هذا العام ورجع.

فضل الدعاء والتضرع على الله

علي بن عيسى أبو الحسن كان وزيرا للخليفة المقتدر والطاهر، وكان رجلا نبيلا فاضلا عفيفا كثير التلاوة والصيام والصلاة يحب أهل العلم، ويكثر مجالستهم وأصله من الفرس، ومما يُحكى عنه :

أن عطارا كان مشهورا موسرا ركبه ستمائة دينار ديْنًا، فأغلق دكانه وانكسر عن كسبه، ولزم منزله وأقبل على الدعاء والتضرع والصلاة ليالي كثيرة، فلما كان في بعض تلك الليالي رأى رسول الله (ﷺ) في المنام وهو يقول: اذهب إلى علي بن عيسى الوزير فقد أمرته لك بأربعمائة دينار، فلما أصبح الرجل قصد باب الوزير فلم يعرفه أحد، فجلس لعل أحدا يستأذن له على الوزير حتى طال عليه المجلس وهم بالانصراف، ثم إنه قال للحاجب: قل للوزير إني رجل رأيت رسول الله (ﷺ) في المنام وأنا أريد أن أقصه على الوزير، فقال له الحاجب: وأنت صاحب الرؤيا ؟! إن الوزير قد أنفذ في طلبك رسلا متعددة، ثم دخل الحاجب فأخبر الوزير، فقال: أدخله عليّ سريعا، فدخل عليه، فأقبل عليه الوزير يستعلم عن حاله واسمه وصفته ومنزله، فذكر ذلك كله له، فقال له الوزير: إني رأيت رسول الله (ﷺ) وهو يأمرني بإعطائك أربعمائة دينار، فأصبحت لا أدري من أسأل عنك ولا أعرفك ولا أعرف أين أنت، وقد أرسلت في طلبك إلى الآن عدة رسل، فجزاك الله خيرا عن قصدك إياي، ثم أمر الوزير بإحضار ألف دينار، فقال: هذه أربعمائة دينار لأمر رسول الله (ﷺ) وستمائة هبة من عندي، فقال الرجل: لا والله لا أزيد على ما

أمرني به رسول (ﷺ) فإني أرجو الخير والبركة فيه، ثم أخذ منها أربعمائة دينار، فعرض على أرباب الديون أموالهم فقالوا: نحن نصبر عليك ثلاث سنين وافتح بهذا الذهب دكانك ودم على كسبك، فأبى إلا أن يعطيهم من أموالهم الثلث، فدفع إليهم مائتي دينار وفتح حانوته بالمائتي دينار الباقية، فما حال عليه الحول حتى ربح ألف دينار.

انظروا فضل الدعاء، والتضرع إلى الله واللجوء إليه عند الحاجة، فمن يقضي الحوائج غيره؟ ومن يفرج الكروب غيره؟ فهو القائل جل جلاله ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ سورة غافر الآية 60

براءة الله على لسان طفل في المهد

كان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له: جريح، فابتنى صومعة وتعبد فيها، فذكر بنو إسرائيل عبادة جريح فقالت بغي منهم: لئن شئتم لأفتننه، فقالوا: قد شئنا ذلك، فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأمكنت نفسها من راع كان يؤوي غنمه إلى أصل صومعة جريح فحملت منه، وولدت غلاما، فقالوا لها: ممن هذا الغلام؟ قالت: من جريح، فأتوه وأنزلوه من صومعته وشتموه وضربوه وهدموا صومعته، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: إنك زنيت بهذه البغي فولدت غلاما، فقال: وأين هو؟ قالوا: هو هذا، فقام جريح، وصلى ودعا ربه، ثم انصرف إلى الغلام فطعنه بإصبعه وقال: بالله يا غلام، من أبوك؟ فقال: أنا ابن الراعي، فوثبوا إلى جريح فجعلوا يقبلونه وقالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا حاجة لي في ذلك، ابنوها من طين كما كانت.

فكان هذا الطفل كما قال رسول الله (ﷺ) أحد الثلاثة الذين تكلموا في المهد بالإضافة إلى عيسى بن مريم، وقصة طفل آخر نرويها كما أخبر بها رسول الله (ﷺ) :

قال: بينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه، إذ مر بها راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، قال: فترك الطفل ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم عاد إلى ثديها فمصه، قال أبو هريرة: فكأني أنظر إلى رسول الله

(ﷺ) يحكي صنيع الصبي ووضع أصبعه في فيه يمصها، ثم مرت أمه بامرأة تُضرب، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، قال:

فترك ثديها، وأقبل على المرأة وقال: اللهم اجعلني مثلها، فاستغربت الأم وراجعت ابنها فقالت: مر الراكب ذو الشارة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومررت بهذه المرأة فقلت اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها، فقال: يا أماه، إن الراكب ذو الشارة جبار من الجبابرة، وإن هذه المرأة التي تضرب يقولون زنت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق، وهي تقول: «حسبي الله» (رواه البخاري) في أحاديث الأنبياء وفي المظالم.

لا ينجي إلا الصدق

قال الإمام البخاري: إن رسول الله (ﷺ) قال: بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال: بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه صدق فيه، فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز فذهب وتركه ،» والفرق مكيال معروف بالمدينة وهو ستة عشر رطلا»، وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أني اشتريت منه بقرا، وأنه أتاني يطلب أجره فقلت: أعمد إلى تلك البقرة فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقرة فإنها من ذلك الفرق، فساقها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانفتحت عنهم الصخرة قليلا، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عنهما ليلة، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضارعون من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانفتحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء ، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم من أحب الناس إليّ، وإني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا.

الأعمى والأبرص والأقرع

روى البخاري ومسلم عن رسول الله (ﷺ) قصة الثلاثة من بني إسرائيل فقال :

إن ثلاثة في بني إسرائيل أبـرص وأعمى وأقـرع، بد الله أن يبتليهم، فبعث الله إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال له: أي شيء أحب إليك؟ فقال: لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها.

ثم أتى إلى الأقرع فقال له: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا فقد قذرني الناس، فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا، ثم قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطاه بقرة حاملا وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال له: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إليّ بصري فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدا، فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل وهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال أن تعطني بعيرا أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك

ألم تكن أبرص يقذرك الناس، وفقيرا فأعطاك الله عز وجل؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له: مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: كنت أعمى فرد الله إليّ بصري، وفقيرا فقد أغناني، فخذ ما شئت فوالله لا أمسك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك.

كفى بالله شهيدا وكفيلا

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: أن رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: ائتني بشهداء أشهدهم، قال: كفى بالله شهيدا، قال: ائتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبا، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم غطى موضعها بالحديد، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استلفت فلانا ألف دينار، فسألني كفيلا فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضى بذلك، وسألني شهيدا فقلت: كفى بالله شهيدا، فرضى بذلك، وإني قد جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه بالذي أعطاني، فلم أجد مركبا، وإني استودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف، وهو في ذلك يطلب مركبا إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطبا، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركبا قبل هذا الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشدا.

بمثل هذا قامت السموات والأرض

يُحكى أن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملوكه وعماله بنفسه، وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه. وبينما هو يسير متنكرا في بعض المدائن فجلس إلى قاض من قضائهم أياما لا يختلف إليه أحد في خصومة.

فلما أن طال ذلك بذي القرنين ولم يطلع على شيء من أمر ذلك القاضي وهم بالانصراف ؛ إذ هو برجلين اختصما إليه، فادعى أحدهما فقال: أيها القاضي، إني اشتريت من هذا دارا عمرتها، ووجدت فيها كنزا، وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليّ، فقال له القاضي: ما تقول؟ قال: ما دفنت وما علمت به، فليس هو لي ولا أقبضه منه، قال المدعي: أيها القاضي، مر من يقبضه فتضعه حيث أحببت، فقال القاضي: تفر من الشر وتدخلني فيه، ما أنصفتني وما أظن هذا في قضاء الملك. فقال القاضي: هل لكما أن أحكم فيما دعوتماني إليه؟ قالا: نعم، قال للمدعي: ألك أبن؟ قال: نعم، وقال للآخر: ألك ابنة؟ قال: نعم، قال: اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهزهما من هذا المال، وادفعا ما بقى من المال أليهما يعيشان به مليا، فتكون بخيره وشره، فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك، ثم قال للقاضي: ما ظننت أن في الأرض أحدا يفعل مثل هذا، أو قاض يقضي بمثل هذا، فقال القاضي: وهو لا يعرفه: وهل أحد يفعل غير هذا؟ قال ذو القرنين: نعم، قال: القاضي: فهل يمطرون في بلادهم؟ فعجب ذو القرنين من ذلك وقال: بمثل هذا قامت السماوات والأرض.

مناظرة بين فتى مسلم ويهودي

قدم رجلا يهوديا البصرة، وقد تغلب على كل متكلميها، فجاء أحد الفتيان وقد أعطاه الله علما وفهما، وقال لعمه: أمضي بنا إلى هذا اليهودي أكلمه، فقال: يا بني هذا قد غلب جماعة متكلمي البصرة، فقلت: لا بد، يقول الفتى: فأخذ بيدي فدخلنا على اليهودي فوجدته يقر للناس الذين يكلمونه نبوة موسى عليه السلام ثم يجحد نبوة نبينا (ﷺ) فيقول: نحن على ما اتفقنا عليه من نبوة موسى إلى أن نتفق على غيره فنقر به، فدخلت إليه فقلت له: أسألك أو تسألني؟ فقال: يا بني أوما ترى ما أفعله بمشايخك، فقلت: دع عنك هذا واختر، قال: بل أسألك، أخبرني أليس موسى نبيا من أنبياء الله قد صحت نبوته وثبت دليله، تقر بهذا أو تجحده فتخالف صاحبك، فقلت له: إن الذي سألتني عنه من أمر موسى عندي على أمرين: أحدهما إني أقر بنبوة موسى الذي أخبر بصحة نبينا محمد (ﷺ) وأمرنا باتباعه وبشر بنبوته، فإن كان عن هذا تسألني فأنا مقر بنبوته، وإن كان الذي سألتني عنه لا يقر بنبوة نبينا محمد (ﷺ) ولم يأمر باتباعه ولا يبشر به فلست أعرفه ولا أقر بنبوته وهو عندي شيطان مخزي، فتحير اليهودي مما قال الفتى المسلم، ثم قال اليهودي للفتى: فما تقول في التوراة؟ قال الفتى: أمر التوراة عندي على وجهين: إن كانت التوراة التي أنزلت على موسى الذي أقر به نبينا محمد (ﷺ) فهي التوراة الحق، وإن كانت الذي تدعيه فباطل وأنا غير مصدق بها، قال اليهودي: أحتاج أن أقول لك شيئا بيني

وبينك، يقول الفتى: فظننت أنه يقول شيئا من الخبر، فتقدمت إليه فسارّني وقال: أمك كذا وكذا، وأم الذي علّمك كذا، وقد رأى أني أثب به فيقول: وثبوا علي، فأقبلت على من كان في المجلس فقلت: أعزكم الله أليس قد أجبته؟ قالوا: نعم. فقلت: أليس عليه أن يرد جوابي؟ فقالوا: نعم. فقلت: إنه لما سارني شتمني بالشتم الذي يوجب الحد وشتم من علمني، وإنه ظن أني أثب عليه فيدعي أننا اعتدينا عليه وقد عرّفتكم شأنه، فأخذته الأيادي بالنعال فخرج هاربا من البصرة وقد كان له بها دين كثير فتركه وخرج هاربا لما لحقه من الهزيمة.

الثبات على الإسلام

ذكر ابن كثير وغيره أن عمر بن الخطاب بعث جيشا لحرب الروم، وكان من بينهم شاب من الصحابة هو (عبد الله بن حذافة) رضي الله عنه.

وطال القتال بين المسلمين والروم، وعجب قيصر من ثبات المسلمين وإقدامهم على الموت فأمر بأن يحضر بين يديه أسير من أسرى المسلمين.. فجاءوا بعبد الله بن حذافة يجرونه والأغلال في يديه وقدميه، فتحدث معه قيصر فأعجب بذكائه وفطنته، فقال له: تنصر وأنا أطلقك من الأسر.

قال عبد الله: لا

قال له قيصر: تنصر وأعطيك نصف ملكي.

فقال: لا

قال قيصر: تنصر وأعطيك نصف ملكي وأشركك في الحكم معي.

قال عبد الله: لا، والله لو أعطيتني ملكك وملك آبائك وملك العرب العجم على أن أرجع عن ديني طرفة عين ما فعلت..

فغضب قيصر وقال: أقتلك.

فقال: اقتلني..

فأمر به فسحب وعلق على خشبة، وأمر الرماة أن يرموا السهام حوله وقيصر يعرض عليه النصرانية وهو يأبى وينتظر الموت.

فلما رأى قيصر إصراره أمر بأن يمضوا به إلى الحبس، وأن يمنعوا عنه الطعام والشراب، فمنعوهما عنه حتى كاد أن يموت من

الظمأ ومن الجوع، فأحضروا له خمرا ولحم خنزير. فلما رآهما عبد الله قال: والله إني لأعلم إني لمضطر، وإن ذلك يحل لي في ديني، ولكن لا أريد أن يشمت بي الكفار، فلم يقرب الطعام، فأخبر قيصر بذلك فأمر له بطعام حسن، ثم أمر أن تدخل عليه امرأة حسناء تتعرض له بالفاحشة. فأدخلت عليه أجمل النساء، وجعلت تتعرض له وتتمايل أمامه وهو معرض عنها فلا يلتفت إليها، فلما رأت ذلك خرجت وهي غاضبة وقالت: لقد أدخلتموني على رجل لا أدري أهو بشر أو حجر؟ وهو والله لا يدري عني أأنا أنثى أم ذكر ؟.

فلما يئس منه قيصر أمر بقدر من نحاس، ثم أغلي الزيت، وأوقف عبد الله أمام القدر، وأحضر أحد الأسرى المسلمين موثقا بالقيود، وألقوه في هذا الزيت، ومات وطفت عظامه تتقلب فوق الزيت، وعبد الله ينظر إلى العظام فالتفت إليه قيصر وعرض عليه النصرانية فأبى، فاشتد غضب قيصر وأمر به أن يطرح في القدر، فلما جروه وشعر بحرارة النار بكى ودمعت عيناه، ففرح قيصر فقال له تنصر، وأعطيك، وأمنحك.

قال: لا

قال: ما الذي أبكاك ؟

فقال: أبكي والله لأنه ليس لي إلا نفس واحدة تلقى في هذا القدر.. ولقد وددت لو كان لي بعدد شعر رأسي نفوس كلها تموت في سبيل الله مثل هذه الموتة.

فقال له قيصر بعد أن يئس منه: قبل رأسي وأخلي سبيلك.

فقال عبد الله: وعن جميع أسرى المسلمين عندك.

فقال: أجل.. فقبل عبد الله رأسه ثم أطلق مع باقي الأسرى..

انظروا إلى هذا الثبات على الدين.. فأين نحن اليوم من هذا ... ؟

الفصل الرابع

من قصص الحب والعشق والغرام، ومغامرات النساء وكيدهن، والغناء والموسيقى، والوفاء للحبيب، والزوجة .

ماذا فعلت بزاهد متعبد؟

قدم عراقي ببضاعة من خُمر العراق إلى المدينة فباعها كلها إلا ذات اللون الأسود، فشكا إلى (الدرامي) وكان قد تنسك وترك الشعر ولزم المسجد، فقال: ما تجعل لي على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها؟ قال العراقي: ما شئت، فعمد الدرامي إلى ثياب نسكه فألقاها عنه، وعاد إلى مثل شأنه الأول، وقال شعرا ورفعه إلى صديق له من المغنين فتغنى به، وكان الشعر :

قل للمليحة في الخمار الأسود   ماذا فعلت بـزاهـد متعبـد
قـد كان شمر للصلاة ثيابـه   حتى خطرت له بباب السجد
ردي عليه صلاته وصيامـه   لا تقتليه بحق دين مـحـمـد

فشاع هذا الغناء في المدينة وقالوا: قد رجع الدرامي وتعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم تبق مليحة بالمدينة إلا اشترت خمارا أسود، وباع التاجر جميع ما كان معه، فجعل أصحاب الدرامي من النساك يلقون الدرامي فيقولون له: ماذا صنعت؟ فيقول: ستعلمون نبأه بعد حين. فلما أنفد العراقي ما كان معه رجع الدرامي إلى نسكه ولبس ثيابه.

ومن أخبار الزاهدين أيضا :

كان (عبد الرحمن بن عبد الله) يُلقب بالقس عند أهل مكة لكثرة عبادته وزهده، فمر يوما بسلاّمة وهي تغني، فقام يستمع غناءها، فرآه مولاها وكان يعرف زهده وتنسكه فقال له: هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى. فلم يزل به حتى دخل. فقال له: أوقفك في موضع

بحيث تراها ولا تراك، وتسمع غناءها، فغنته سلامة فأعجبته، فقال له مولاها: هل لك في أن أدخلها إليك ؟ فأبى ذلك عليه، فلم يزل به حتى أجابه. فلم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها حبا. ولما شعرت نفس الشعور إياها غنته :

رُبَّ رسوليــن لنــا بلَّغــا   رسالة من قبل أن يبرحا
لـم يعملا خفا ولا حافــرًا   ولا لسانا بالهوى مُفصحا
حتــى استقلا بجوانبهمــا   بالطائر الميمون قد أنجحا
الطرف والطرف بعشاهما   فقضَّيا حاجًّا وما صـرَّحا

فلما انتهت من غنائها أغمي عليه وكاد أن يهلك. فقالت له يوما: إني والله أحبك. قال لها: وأنا والله أحبك. قالت: وأحب أن أضع فمي على فمك. قال: وأنا والله كذلك. قالت: فما يمنعك من ذلك؟ قال : أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة، أما سمعتي قول الله تعالى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) «الآية 67 من سورة الزخرف».

ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها من الزهد، وأنشأ يقول :

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها فأعجب لما تأتي به الأيام
فاليـوم أعـذرهم وأعلـم أنمـا سبل الضلالة والهدى أقسام

وله فيها أيضا :

إن ســلاّمــة التــي   أفقــدتنــي تـجلـــدي
لـوتـراهـا وعــودهــا   حين يبـدو وتبتـدي
لجــريــر وللغــريـض   وللقــرم معبـــد
خلتهــم بيــن عـودهــا   والدّسـاتيـن واليـد

والعبرة من قصص النساء وفتنتهن، ولكي ننجو من حبالهن علينا بغض البصر، ولكن إذا سمح الرجل لنفسه بالدنو من المرأة، والنظر إليها فإن الشيطان لا يتركه حتى يوقع به في المكروه حتى وإن كان ناسكا متعبدا، أو معتكفا في المسجد.

وإذا كان هذا حال من كان زاهدا متعبدا مع النساء، فما بال البقية الذين يمكن أن نقول عنهم (نُص نُص) الله يكون في عونهم وعوننا من حبائل النساء.

من نوادر ابن أبي عتيق

كان ابن أبي عتيق صاحب دعابة وطرف، وكان كثير العيال فقير الحال، فبينما كان يوما عبدالله بن جعفر عند أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فحكى له عن سوء حال ابن أبي عتيق، فأمر عبد الملك بن مروان عبد الله بن جعفر أن يعلمه بالقدوم إليه، ولما جاء ابن أبي عتيق ودخل على عبد الملك بن مروان فوجده جالسا بين جاريتين قائمتين عليه بيد كل جارية مروحة تُرّوح بها عليه مكتوب بالذهب على المروحة الأولى :

إنني أجلب الرياح وبييلع بالخجل

وحِجاب إذا الحبيب ثنى الرأس للقبل

وغِياث إذا النديم تغنى أو ارتجل

وعلى المروحة الأخرى:

أنا في الكف لطيفة مسكني قصر الخليفة

أنا لا أصلحا لا لظريف أو ظريفة

أو وصيف حسن القد شبيهبالوصيفة

قال بن أبي العتيق: فلما نظرت إلى الجاريتين هونتا الدنيا عليّ، وأنستاني سوء حالي ،وقلت: إن كانتا من الأنس فما نساؤنا إلا من البهائم. فكلما كررت نظري فيهما تذكرت الجنة، فإذا تذكرت امرأتي وكنت لها محبا، تذكرت النار. قال: فبدأ عبد الملك يتوجع إليّ بما حكى له ابن جعفر عني ويخبرني بما لي عنده من جميل الرأي. فأكذبت له ما

حكاه له ابن جعفر عني، ووصفت له نفسي بأني في غاية الغناء و(الحمد لله). فامتلأ عبد الملك سرورا بما ذكرت له، وغمًّا بتكذيب ابن جعفر، فلما عاد إليه ابن جعفر عاتبه عبد الملك على ما حكاه عني وأخبره بما وصفت به نفسي فقال: كذب والله يا أمير المؤمنين، وإنه أحوج أهل الحجاز إلى قليل فضلك، فضلا عن كثيره، ثم خرج عبد الله فلقيني فقال: ما حملك أن كذبتني عند أمير المؤمنين؟ قلت: أفكنت تراني أجلس بين شمس وقمر، ثم ادعي الفقر عنده؟ ! لا والله ما أرضى ذلك لنفسي، فلما أعلم عبد الله بن جعفر عبد الملك بن مروان، قال: فالجاريتان له، قال: فلما صارتا إليّ زرت عبد الله بن جعفر فوجدته قد امتلأ فرحا فقال: أخبرني، قلت: قد والله قبضت الجاريتين، فقال لجارية عنده تغنيه: إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين، فخذي في نعتهما، فإنهما جميلتان. فحركت الجارية العود ثم غنت :

عهدي بها في الحي قد جُردّت زهراء مثل القمر الضامر
قد حجّم الثدي على نحرها في مشرف ذي بهجة ناضر
لو أسندت ميتا إلى صدرها قام ولم ينقل إلى قابر
حتى يقول الناس مما رأوايا عجبا للميت الناشر

ومن نوادر ابن أبي عتيق أيضا: أنه خرج يوما مع أبوالسائب يتنزهان في بعض نواحي مكة، فمال أبو السائب ليبول وعليه عباءته، فانصرف دونها، فقال له ابن أبي عتيق: ما فعلت بعباءتك؟ قال: ذكرت قول كثير:

أرى الإزار على لبنى فأحسده إن الإزار على ما ضمَّ محسود

فتصدقت بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه، فأخذ ابن أبي عتيق عباءته فرمى بها وقال: أتسبقني أنت إلى برّ الشيطان ؟

قصة عبد الله بن جعفر مع عمارة

كان عند عبد الله بن جعفر بن أبي طالب جارية يقال لها: (عمارة)، وكان يحبها حبا شديدا، وكانت لها مكانة عنده لا يضاهيها أحد من جواريه، فلما وفد عبد الله بن جعفر على معاوية وخرج بها معه، فزاره يزيد بن معاوية ذات يوم فأخرجها إليه، فلما نظر إليها وسمعها وقعت في نفسه، وشغف بها، ولكنه لم يستطع البوح بما يشعر به خوفا من أبيه معاوية مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يكاتم أمرها إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمر إليه، فاستشار بعض من قدم عليه من أهل المدينة وعامة من يثق به في أمرها، وكيف الحيلة فيها، فقيل له: إن أمر عبد الله بن جعفر لا يرام، ومنزله من الخاصة ومن العامة ومنك ما قد علمت، وأنت لا تستحسن إكراهه، وهو لا يبيعها بشيء أبدا، وليس يغني في هذا إلا الحيلة.

فقال: انظروا لي رجلا عراقيا له أدب وظرف ومعرفة، فطلبوه فأتوا به، فلما دخل عليه رأى بيانا وحلاوة وفهما فقال له يزيد: إني دعوتك لأمر إن ظفرت به فهو حظك عند آخر الدهر، ويد أكافئك عليها إن شاء الله.

ثم أخبره بأمره فقال له: إن عبد الله بن جعفر لا يرام ما قبله إلا بالخديعة، ولن يقدر أحد على ما سألت، فأرجو أن أكونه، والقوة بالله، فأعني بالمال، قال: خذ من طُرف الشام وثياب مُضر، واشتري متاعا للتجارة من رقيق ودواب وغير ذلك، ثم اخرج إلى المدينة، وذهب العراقي ونزل بالقرب من عبد الله بن جعفر، واكترى منزلا بجانبه، ثم توسل إليه وقال: رجل من أهل العراق قدمت بتجارة فأحببت أن أكون في عز جوارك وكنفك إلى أن أبيع ما جئت به،

فبعث عبد الله بن جعفر إلى قهرمانه أن أكرم الرجل، ووسع عليه في منزله، فأنزله، فلما اطمأن العراقي سلم عليه وعرفه بنفسه، وهيأ له بغلة فارهة، وثيابا من ثياب العراق وألطافا، فبعث بها إليه، وكتب معها: يا سيدي، إني رجل تاجر ونعم الله عليّ سابغة، وقد بعثت إليك بشيء من طرف، وكذا من الثياب والعطر، وبعثت ببغلة خفيفة العنان، وطية الظهر، وأنا أسألك بقرابتك من رسول الله (ﷺ) إلا قبلت هديتي، ولا توحشني بردها، إني أدين لله تعالى بحبك وحب أهل بيتك، وإن أعظم أملي في سفرتي أن أستفيد الأنس بك، والتكرم بمواصلتك، فأمر عبد الله بقبض هديته وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مر بالعراقي في منزله فقام إليه وقبل يده، فرأى أدبا وظرفا، وفصاحة، فأعجب به وسر بنزوله عليه، فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بهدية، فقال عبد الله: جزى الله ضيفنا هذا خيرا، قد ملأنا شكرا وما نقدر على مكافأته، فإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله، ودعا عمارة في جواريه، فلما طاب لهما المجلس وسمع عمارة تعجب وجعل يزيد في عجبه، فلما رأى كذلك عبد الله سُر به إلى أن قال: هل رأيت مثل عمارة؟ قال: لا والله يا سيدي ما رأيت مثلها، وما تصلح إلا لك، وما ظننت أن تكون في الدنيا مثل هذه الجارية، حسن وجه وحسن عمل، قال عبد الله: فكم تساوي عندك؟ قال العراقي: مالها ثمن إلا الخلافة، فقال عبد الله: تقول هذا لتزين لي رأيي فيها، وتجلب سروري، قال له: يا سيدي والله إني لأحب سرورك وما قلت لك إلا الجد، وبعد فإني تاجر أجمع الدرهم على الدرهم طلبا للربح، ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها، فقال عبد الله: عشرة آلاف؟ ! قال: نعم ، ولم يكن في ذلك الزمان جارية تعرف بهذا الثمن، فقال له عبد الله: أنا أبيعها لك بعشرة آلاف، قال العراقي: قد اشتريتها، قال عبد الله: هي لك، قال: قد وجب البيع.

وانصرف العرقي، فلما أصبح عبد الله لم يشعر إلا بالمال قد وافى به، فقيل لعبد الله: قد بعث العراقي بعشرة آلاف دينار وقال: هذا ثمن عمارة، فردها عبد الله وكتب إليه إنما كنت أمزح معك، وإنما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها، فقال العراقي: جعلت فداك، إن الجد والهزل في البيع سواء، فقال له عبد الله: ويحك ما أعلم جارية تساوي ما بذلت، ولو كنت بايعها من أحد لآثرتك، ولكني كنت مازحا وما أبيعها بملك الدنيا لحرمتها بي وموضعها من قلبي، فقال العراقي: إن كنت مازحا فإني كنت جادا، وما اطلعت على ما في نفسك، وقد ملكت الجارية وبعثت إليك بثمنها وليس تحل لك، وما لي من أخذها بد، فمانعه أياما، فقال: ليست لي نية ولكني استحلفك عند قبر رسول الله (ﷺ) ومنبره. فلما رأى عبد الله الجد قال: بئس الضيف أنت، ما طرقنا طارق ولا نزل بنا نازل أعظم بلية منك، أتحلفني فيقول الناس: اضطهد عبد الله ضيفه وقهره فألجأه إلى أن استحلفه، أما والله ليعلمن الله عز وجل أني سأبليه في هذا الأمر الصبر وحسن العزاء، ثم أمر قهرمانه بقبض المال منه وتجهيز الجارية فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار وقال: هذا لها، ولك عوضا مما ألطفنا، والله المستعان، فقبض العراقي الجارية، وخرج بها، فلما برز من المدينة قال لها: يا عمارة، إني والله ما ملكتك قط ولا أنت لي، ولا مثلي يشتري جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت أقدم على ابن عم رسول الله (ﷺ) وأسلبه أحب الناس عنده لنفسه، ولكني دسيس من يزيد بن معاوية، وأنت له، وفي طلبك بعث بي، فاستتري مني، فإن داخلني الشيطان في أمرك أو تاقت نفسي إليك فامتنعي، ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقاه الناس بجنازة يزيد وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد، فأقام أياما ثم تلطف للدخول إليه فشرح له القصة، ويروى أنه لم يكن أحد من بني أمية يعادل معاوية بن يزيد في زمانه

نبلا ونسكا، فلما أخبره قال: هي لك وكل ما دفعه إليك من أمرها فهو لك، فارحل من يومك فلا أسمع بخبرك في شيء من بلاد الشام. فرحل العراقي ثم قال للجارية: إني قد قلت لك ما قلت حين خرجت بك من المدينة، فأخبرتك أنك ليزيد وقد صرت لي، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن جعفر، وإني قد رددتك عليه فاستتري مني، ثم خرج بها حتى قدم المدينة فنزل قريبا من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال له: هذا العراقي ضيفك الذي صنع ما صنع، وقد نزل قريبا منك لا حياه الله، فقال عبد الله: أنزلوا الرجل وأكرموه، فلما استقر بعث إلى عبد الله وقال له: جعلت فداك إن رأيت إن تأذن لي أذنة خفيفة لأشافهك بشيء فعلت، فأذن له، فلما دخل عليه قبل يده وقربه عبد الله ثم قص عليه القصة حتى إذا فرغ قال: والله وهبتها لك قبل أن أراها أو أضع يدي عليها فهي لك ومردودة عليك، وقد علم الله أني ما رأيت لها وجها إلا عندك، وبعث إليها فجاءت، وجاء بما جهزها به موفرا، فلما نظرت إلى عبد الله خرت مغشية عليها، وأهوى إليها عبد الله فضمها إليه، وخرج العراقي، وتصايح أهل الدار: عمارة عمارة، فجعل عبد الله يقول ودموعه تجري: أحلم هذا؟ أحق هذا؟ أصدق هذا؟ فقال العراقي: ردها عليك إيثارك الوفاء، وصبرك على الحق، وانقيادك له، فقال عبد الله: الحمد لله، اللهم إنك تعلم أني قد تصبرت عنها، وآثرت الوفاء، وأسلمت لأمرك فردها عليّ بمنك، فلك الحمد، ثم قال: يا أخانا العراقي، ما على الأرض أعظم منة منك، وسيجازيك الله تعالى، وأقام العراقي أياما وباع عبد الله غنما بثلاثة عشر ألف دينار، وقال لقهرمانه: احملها إليه وقل له: أعذر عبد الله واعلم أني لو وصلتك بكل ما أملك لرأيتك أهلا لأكثر منه، فرحل العراقي محمودا راضيا على ما فعل.

طمع الرجال، وكيد النساء

قال إسحاق بن إبراهيم: قال لي بن وهب الشاعر والله لأحدثك حديثا ما سمعه مني أحد قط، قلت: هاته.

قال: بينما أنا بسوق الكيل بمكة بعد أيام الموسم إذ أنا بامرأة من نساء مكة معها صبي يبكي وهي تسكته فيأبى أن يسكت، فسفرت وأخرجت من فمها كسرة درهم فدفعتها إلى الصبي فسكت ؛ فإذا وجه رقيق كأنه كوكب دري ؛ وإذا شكل رطب ولسان فصيح، فلما رأتني أحد النظر إليها قالت: اتبعني. فقلت: إن شريطتي الحلال، قالت: ارجع في حرامك، ومن يريدك على حرام؟ فخجلت وغلبتني نفسي على رأيي، فتبعتها فدخلت زقاق العطارين، فصعدت درجة وقالت: اصعد. فصعدت، فقالت: أنا مشغولة وزوجي رجل من بني مخزوم، وأنا امرأة من زُهرة، ولكن عندي فتاة حُره عليها وجه أحسن من القمر، في مثل خُلُق المُغني ابن سُريج ، وترنم معبد، وتيه ابن عائشة، أجمع لك هذا كله في بدن واحد، وبدينار واحد يومك وليلتك، فإذا قمت جعلت الدينار وظيفة وتزويجا صحيحا، قلت فذلك لك إن اجتمع لي ما ذكرت.

قال: فصفقت بيدها إلى جاريتها فاستجابت لها، قالت: قولي لفلانة: البسي عليك ثيابك وعجلي، وبحياتي لا تمسي طيبا ولا غُمرة (وهو ما تُطلى به العروس) ، فحسبنا بدلالك، وعطرك، قال: فإذا جارية أقبلت ما أحسب الشمس وقعت عليها كأنها من حور العين، فسلمت وقعدت كالخجلة، فقالت لها : إن هذا الذي ذكرته لك، وهو في هذه الهيئة التي ترين، قالت الجارية: حيّاه الله وقرّب داره، قال: ثم نظرت إليّ فغمزتني وقالت: أتدري ما شرطها؟ قلت:

لا. قالت: أقول لك بحضرتها ما أخالها تكرهه، هي والله أفتك من عمرو بن معد يكرب، وأشجع من ربيعة بن مكدم، ولست بواصل إليها حتى تسكر وتغلب على عقلها، فإذا بلغت تلك الحال ففيها مطمع. فقلت: ما أهون هذا وأسهله. قالت الجارية: وتركتِ شيئا أيضا. قالت: نعم والله، أعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها فتراك مجردا مقبلا ومدبرا. قلت: وهذا أيضا أفعله. قالت: هلم دينارك. فأخرجت دينارا فأعطيته إليها فصفقت تصفيقة أخرى فأجابتها امرأة، قالت: قولي لأبي الحسن وأبي الحسين: هلما الساعة. فقلت في نفسي: أبو الحسن وأبو الحسين هو علي بن أبي طالب، قال: فإذا شيخان خاضبان نبيلان قد أقبلا فصعدا، فقصت عليهما المرأة القصة، فخطب أحدهما وأجاب الآخر، وأقررت بالتزويج، وأقرت المرأة، فدعوا بالبركة، ثم نهضا فاستحييت أن أحمل المرأة شيئا من المؤونة، فأخرجت دينارا آخر فدفعته إليها وقلت: اجعلي هذا لطيبك. قالت: يا أخي، لست ممن يمس طيبا لرجل إنما أتطيب لنفسي إذا خلوت. قلت: فاجعلي هذا لغذائنا اليوم، قالت: أما هذا فنعم، فنهضت الجارية، وأمرت بإصلاح ما يُحتاج إليه، ثم عادت وتغدينا، وجاءت بدواة وقضيب وقعدت تجاهي ودعت بنبيذ فأعدته واندفعت تغني بصوت لم أسمع مثله قط، فإني ألفت القيان نحوا من ثلاثين سنة، فما سمعت مثل ترنمها قط، فكدت أجن سرورا وطربا، فجعلت أحاول أن تدنو مني فتأبى إلى أن غنت بشعر لم اعرفه وهو :

راحوا يصيدون الظباء وإنيلأرى تصيدها عليّ حراما

أعزِزْ عليّ بأن أروعَ شبيهها أو أن تذوق على يديّ حِماما

فقلت: جعلت فداك، من تغنى بهذا؟ قالت: اشترك فيه جماعة، هو لمعبد، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة، فلما جاء المغرب تغنت بصوت لم أفهمه للشقاء الذي كتب عليّ، فقالت :

كأنـي بالمجرَّد قد علتـه نعال القوم أو خشب السواري

قلت: جعلت فداك، ما أفهم هذا البيت، ولا أحسبه مما يتغنى به

قالت: أنا أول من تغنى به.

قلت: فإنما هو بيت لا صاحب له. قالت: معه آخر ليس هذا وقته، وهو آخر ما تغنى به. قال: فجعلت لا أنا زعها في شيء إجلالا لها، فلما أمسينا وصلينا المغرب وجاءت العشاء الآخرة وضعت القضيب، فقمت وصليت العشاء وما أدري كم صليت عجلة وشوقا، فلما سلمت قلت: تأذنين جعلت فداك في الدنو منك؟ قالت: تجرد. وأشارت على ثيابها كأنها تريد أن تتجرد، فكدت أن أشق ثيابي عجلة للخروج عنها، فتجردتُ وقمت بين يديها في خضوع وتعظيم لها.

قالت: امض إلى زاوية البيت، وأقبل وأدبر حتى أراك مقبلا ومدبرا.

قال: وإذا حصير في الغرفة عليه طريق إلى زاوية البيت، وإذا تحته نفق إلى السوق، فإذا أنا في السوق قائما متجردا بين الناس، وإذا الشيخان الشاهدان قد أعدا لي نعالهما وكمنا لي في ناحية، فلما هبطت عليهما بادرا إليّ فقطّعا نعالهما على قفاي، واستعانا بأهل السوق، فضُربت والله يا أبا محمد حتى نسيت اسمي، فبينما أنا أضرب بنعال وأيد شديدة، فإذا بصوت من فوق البيت يغني به وهو :

ولو علم المجرّد ما أردنالخاض لنا المجرّدُ بالصحاري

فقلت في نفسي: هذا والله وقت هذا البيت، فنجوت إلى رحلي وما فيَّ عظم صحيح، فلما انقضى حجنا وانصرفنا جعلت طريقي على ذلك الموضع فسألت عنها فقيل لي: إنها امرأة من آل أبي لهب. فقلت: لعنها الله ولعن الذي هي منه .

إسحاق الموصلي يَغير من زرياب

كان زرياب تلميذا لإسحاق الموصلي ببغداد، وحذق على يديه صناعة الموسيقى والغناء وكان زرياب حسن الصوت حتى أنه فاق أستاذه إسحاق، وإسحاق لا يشعر به إلى أن اقترح الرشيد عليه أن يأتيه بمغن غريب مجيد للصنعة، لم يره من قبل، فذكر له تلميذه هذا وقال: إنه مولى لكم، وسمعت له أصوات حسنة ونغمات تطرب لها النفس، وهو من اختراعي واستنباط فكري، وأظن أن يكون له شأن.

فقال الرشيد: هذا طلبي فأحضرنيه لعل حاجتي عنده. فأحضره، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق، وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء فقال: نعم أحسن ما يحسنه الناس وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك، ولا يدخر إلا لك، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك.

فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق، فلما أُدنِيَ إليه وقف عن تناوله وقال: لي عود نحته بيدي، وأرهفته بإحكامي، لا أرتضي غيره وهو بالباب، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه، فأمر بإدخاله إليه.

فلما تأمله الرشيد ـ وكان شبيها بالعود الذي دفعه إليه ـ قال: ما منعك أن تستعمل عود أستاذك؟ فقال: إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد من عودي! فقال له: ما أراهما إلا واحدا، فقال: صدقت يا مولاي، ولا يؤدى النظر غير ذلك، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس

خشبه، فهو يقع في وزنه في الثلث، ووصفه وصفا استبرعه الرشيد، وأمره بالغناء، فجس ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره هارون راح إليك الناس وابتكروا

فلما أتم طار الرشيد طربا، وقال لإسحاق: والله لولا أني أعلم من صدقك وتصديقه لك من أنك لم تسمعه من قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه ؛ فخذه إليك واعتن به إلى حين أفرغ له، فإن لي فيه نظرا .

فسُقِط في يد إسحاق، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره، فخلا بزرياب وقال له: يا علي، إن الحسد أقدم داء، والدنيا فتانة، والشركة في الصناعة عداوة، ولا حيلة في حسمها، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك، وقصدتُ منفعتك، فإذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنها بإدنائك من أمير المؤمنين، وعن قليل تسقط منزلتي وترتقي أنت فوقي، وهذا ما لا أصاحبك عليه، ولو أنك ولدي، ولولا رعيي لذمة تربيتك لأذهبت نفسك ويكون في ذلك ما يكون.

فتخير في أثنتين لا بد لك من أحداهما: إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبرا، بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة، وأجهزك لذلك بما أردت من مال وغيره، وإما أن تقيم على كرهي ورغمي مستهدفا إليّ فخذ الآن حذرك مني، فلست والله أبقي عليك، ولا أدعَ اغتيالك باذلا في ذلك بدني ومالي، فاقض قضاءك ! فخرج زرياب لوقته، وعلم على قدرته على ما قال، واختار الفرار، فأعانه إسحاق على ذلك سريعا وجهزه بما يلزم من السفر، ورحل عنه ومضى يبغي مغرب الشمس، واستراح قلب إسحاق منه.

وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمسا فيه، فأمر إسحاق بإحضاره فقال: ومن لي به يا أمير المؤمنين ! ذلك غلام مجنون، يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يعجب به من غنائه، فما يرى في الدنيا من يعدله، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين فقدر التقصير به، والتهوين بصناعته، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه، مستخفيا عني، وقد صنع الله تعالى ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به جنون يغشاه، وقد كان يفرط خبله فيفزع من رآه.

فسكن الرشيد إلى قول إسحاق وقال: على ما كان به، فقد فاتنا منه سرور.

ومضى زرياب إلى بلاد الأندلس، وعلم عبد الرحمن بن الحكم بخبره فكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة، وأمر من يتلقاه ببغال وآلات حسنة.

فدخل زرياب هو وأهله ليلا، وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه، وخلع عليه، ثم أجرى عليه راتبا وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها، ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار، فلما قضى له سؤاله، وأنجز موعده وعلم أنه قد أرضاه، وملك نفسه استدعاه، ولما سمع غناءه طرح كل غناء سواه، وأحبه حبا شديدا، وقدمه على جميع المغنين.

عمر بن أبي ربيعة يزوج العذري

حماد الراوية قال: أتيت مكة فجلست في حلقة منها عمر بن أبي ربيعة القرشي، وإذا يتذاكرون العذريين وعشقهم فقال عمر بن أبي ربيعة: أحدثكم عن بعض ذلك ،

كان لي خليل من عذرة يُكنى أبا مسهر التقيت به في موسم الحج فسمعته يقول:

يا رب كل غدوة وروحه من محرم يشكو الصبا ونوحه

أنت حسيب الخلق يوم الدوحة

فقلت له: وما يوم الدوحة؟ قال: سأخبرك إن شاء الله ثم أقبل عليّ وقال:

إني رجل ذو مال كثير، وإني خشيت على مالي فأتيت أخوالي كلبا، فأوسعوا لي عن صدر المجلس، وسقوني جُمة البئر (أي ما جم منها وارتفع)، وكنت منهم في خير أحوال، فركبت يوما فرسي، وعلقت معي شرابا أهداه لي بعض الكلبيين، فانطلقت حتى إذا كنت بين الحي ومرعى الغنم، فقلت: لو نزلت تحت هذه الشجرة ثم تروحت مبردا ! ففعلت فشددت فرسي بغصن من أغصانها، ثم جلست تحتها، فإذا بغبار قد سطع من ناحية الحي، ثم تبينت فإذا بفارس يطرد حمارا وحشيا وأنثاه، فلما قرب مني إذا عليه درع أصفر، وعمامة خزّ سوداء، فما لبث أن لحق الحمار الوحشي فطعنه فصرعه ثم طعن أنثاه وأقبل وهو يقول :

نطعنهم سُلكـي ومخـلوجـة كـرك لأمين علـى نـابـل

فقلت له: إنك قد تعبت وأتعبت، فلو نزلت، فثنى رجله فنزل ثم شد فرسه بغصن من أغصان الشجر، وأقبل حتى جلس معي، فجعل يحدثني حديثا ذكرت به قول الشاعر :

وإن حديثا منك لـو تبذلينـه جنى النحل في ألبان عـوذ مطافـل

فبينما هو كذلك ؛ إذ نكث بالسوط على ثنيتيه، فما ملكت نفسي أن قبضت على السوط فقلت: مه. قال: ولِمَ؟ قلت: إني أخاف أن تكسرهما، إنهما رقيقاتان عذبتان

قال: فرفع عقيرته وجعل يتغنى :

إذا قبَّـل الإنسان آخـر يشتهـي ثنايـاه لـم يأثـم وكان لـه أجــر

ثم قال لـي: ما الذي تُعلقه في سرجك؟ قلت: شراب أهداه لي بعض أهلك، فهل لك فيه؟ قال: نعم، فأتيته به فوضعه بيني وبينه فلما شرب منه شيئا نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهاة قد أضلت ولدها، ثم قمت لأصلح من أمر فرسي، فرجعت وقد حسر العمامة عن رأسه وإذا غلام كأن وجهه دينار هرقلي فقلت: سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك ! قال: كيف؟ قلت: ذلك لما راعني من نورك وبهرني من جمالك. قال: وما الذي يروعك من زرق العيون، ونبيش التراب، ثم لا يدري أينعم أم يبؤس؟ قلت: لا يصنع الله بك إلا خيراً. ثم قام على فرسه فبرقت لي بارقة من تحت الدرع فإذا ثدي كأنه حق عاج. قلت: نشدتك الله آمرأة؟ قال: إي والله امرأة، تكره العهر وتحب الغزل. قلت: وأنا والله كذلك. قال: فجلست والله تحدثني ما أنكر من أمرها، حتى مالت على (الدوحة) وقد أخذها بعض النعاس. فقال: فاستحسنت والله يا ابن أبي ربيعة الغدر وزين في عيني، ثم إن الله

عصمني منه، فما لبثت أن انتبهت مذعورة، فلاثت عمامتها برأسها وأخذت الرمح وجالت في متن فرسها فقلت: مضيتِ ولم تزوديني منك زادا. فأعطتني بنانها فحسست والله منها كزهر النبات اللين، ثم قلت: أين الموعد؟ قالت: إن لي إخوة شرساء وأبا غيورا، والله لإن أسُرُكَ أحبُ إليّ من أن أضرُك. ثم مضت فكان والله أخر العهد بها إلى يومي هذا، وهي التي بلغتني هذا المبلغ، وأحلتني هذا المحل.

قال عمر بن أبي ربيعة : فدخلتني له رقة فلما انقضى الموسم شددت على ناقتي وشد على ناقته، وحملت غلاما لي على بعير، وحملت عليه قبة حمراء ، وأخذت معي ألف دينار ثم خرجنا حتى أتينا بلاد كلب، فإذا الشيخ في نادي قومه، فسلمت عليه فقال: وعليك السلام، من أنت؟ فقلت: عمر بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي. قال: المعروف غير المنكور فما الذي جاء بك؟ قلت: جئت خاطبا. قال: أنت الكفء الكفي الذي لا يُرغب عن وصله، والرجل الذي لا يرد عن حاجته. قلت: إني لم آتك لنفسي في موضع الرغبة، ولكني أتيتكم لابن أختكم العذري. قال: والله إنه لكفء الحسب كريم النسب، غير أن بناتي لم يعرفن هذا الحي من قريش. قال: فعرف الجزع من ذلك في وجهي، فقال: أما إني أصنع بك ما لم أصنع لغيرك، أخيرها في نفسها فهي وما اختارت. فقلت: خيّرها. فأرسل إليها أن من الأمر كذا وكذا فري رأيك. فقالت: قد رددت الأمر إليك. قال: فحمدت الله وصليت على النبي (ﷺ) وقلت: قد زوجتها العذري أبا مسهر وأصدقتها هذه الألف دينار، وجعلت تكرمتها العبد والبعير والقبة، وكسوت الشيخ المُطرف فسر به، وسألته أن يبني بها من ليلته فأجابني إلى ذلك، فضربت القبة في وسط الحي، وهُديت إليه ليلا، وبت عند الشيخ في خير مبيت، فلما أصبحت غدوت فقمت بباب

القبة، فخرج إليّ وقد تبين الجذل في عينيه، فقلت: كيف كنت بعدي أبا مسهر؟ قال: أبدت لي كثيرا مما كانت اخفته يوم رأيتها. فقلت: أقم على أهلك بارك الله لك.

ثم انقطعت إلى أهلي وأنا أقول :

كفيت الفتى العذري ما كان نابه ومثلي لأثقال النوائب أحمل

أما استحسنت مني المكارم والعلا إذا صرّخت أني أقول وأفعل

ما أجمل أخلاق العرب، لا يرضون الغدر والعهر حتى ولو كانوا في الصحراء مع أجمل فتاة، ولا رقيب عليهم إلا الله سبحانه وتعالى، فما أحوجنا إلى مثل ذلك اليوم، وما أحوجنا إلى مثل تلك الفتاة الفارسة، وما أحوجنا إلى شهامة وكرم الشاعر عمر بن أبي ربيعة.

قصة زواج المأمون من بوران

يحكي إسحاق الموصلي عن كيفية زواج المأمون من بوران فقال :

بينما ذات يوم أنا عند المأمون وقد خلا وجهه، وطابت نفسه ؛ إذ قال لي: يا إسحاق، هذا يوم خلوة وطيب. فقلت طيب الله عيش أمير المؤمنين، وأدام سروره وفرحه. فقال: يا غلمان، اقفلوا علينا الباب، وأحضروا الشراب. قال: ثم أخذ بيدي وأدخلني في مجالس غير المجالس التي كنا فيها، وإذا قد نصبت الموائد، وأصلح ما كان يحتاج إليه الحال، فأكلنا وأخذنا في لذتنا وشربنا وأقبلت المغنيات من كل ناحية بضروب الغناء، وصنوف من اللهو فلم نزل على ذلك إلى آخر النهار، فلما غربت الشمس قال لي: يا إسحاق خير أيام الفتى أيام الطرب. قلت: هو والله ذاك يا أمير المؤمنين. قال: فإني فكرت في شيء، فهل لك فيه؟ قلت: يا سيدي أو أتأخر عن رأي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه. قال: لعلنا نُباكر الصبوح في غدوتنا هذه، وقد عزمت على دخلة إلى دار الحريم، فكن بمكانك ولا تذهب، فإني أوافيك عن قريب. قال: قلت السمع والطاعة يا أمير المؤمنين. ثم نهض إلى دار النساء فما عرفت له خبرا إلى أن ذهب من الليل عامته.

قال إسحاق: وكان المأمون من أشغف خلق الله بالنساء، وأشدهم ميلا إليهن، وعلمت أن النبيذ قد غلب عليه، وأنهن قد أنسينه أمري، فقلت في نفسي: هو أعزه الله في لذته وأنا ها هنا في غير شيء، وفي بقية، وعندي جارية صبية كنت قد اشتريتها، وكانت نفسي متطلعة إلى أفتضاضها، فنهضت مسرعا عند ذكرها فقال الخدم: على أي

شيء عزمت وإلى أين تريد؟ قلت: أريد الانصراف. قالوا: فإن طلبك أمير المؤمنين؟ قلت: إنه أدام الله سروره قد شغله الطرب ولذة ما هو فيه عن طلبه، وقد كان بيني وبينه موعد قد جاوز وقته، ولا وجه لجلوسي.

قال إسحاق: وأقبلت وحدي نحو البيت حتى صرت ببعض الطريق أحسست بحرقة البول، فعدلت إلى بعض الأزقة لئلا يجوز بي احد من العوام فيراني أبول على الطريق، فبلت حتى إذا قمت للتمسح ببعض الحيطان إذا أنا بشيء معلق من تلك الدور إلى الزقاق فما تمالكت أن تمسحت ثم دنوت إلى ذلك الشيء لأعرف ما هو، فإذا بصندوق كبير معلق بأربع آذان، وإذا هو ملبس ديباجا، وفيه أربعة حبال، فلما نظرت إليه وتبينته قلت: والله إن لهذا لسببا، وإن له لأمرا. فأقمت ساعة أفكر في أمره حتى إذا طال ذلك بي قلت: والله لأتجاسرن ولأجلسن فيه كائنا في ذلك ما كان. ثم لففت رأسي بردائي وجلست في جوف الصندوق، فلما أحس من كان على ظهر الحائط بثقله جذبوا الصندوق إليهم، حتى انتهوا إلى رأس الحائط، فإذا بأربع جواري وإذا هن يقلن: انزل بالرحب والسعة، أصديق أم جديد؟ فقلت: لا بل جديد.. فابتدرت إحداهن إلى طست فيه شمعة وأقبلت بين يدي حتى نزلت إلى دار نظيفة بها من الحسن والظرف والنظافة ما حرت له، ثم أدخلتني إلى مجالس مفروشة ومناص مرصوصة بصنوف من الفرش الذي لم أر مثله إلا في دار ملك أو خليفة، فجلست في أدنى مجلس من تلك المجالس، فما شعرت بعد ساعة إلا بضجة وجلبة وستور قد رفعت من ناحية من نواحي الدار، وإذا بوصائف يتساعين في أيدي بعضهن الشمع، وبعضهن المجامر يسجر فيها العود والند، وإذا بينهن فتاة كأنها تمثال عاج تتهادى بينهم

كالبدر الطالع فما تمالكت عند رؤيتها أن نهضت فقالت: مرحبا بك من زائر أتى وليست تلك عادته، وجلست ورفعت مجلسي عن الموضع الذي كنت فيه فقالت: كيف كان مجيئك وليس لي ولك علم فما السبب؟ قلت: انصرفت من عند بعض أخواتي وظننت أني على وقت، فخرجت في وقت ضّيق وأخذني البول، فأخذت إلى هذا الطريق، فعدلت على هذا الزقاق، فوجدت صندوقا معلقا فحملني النبيذ على أن جلست فيه، فإن كان خطأ فالنبيذ السبب، وإن كان صوابا فالله ألهمنيه. قالت: لا ضير إن شاء الله، وأرجو أن تحمد عواقب أمرك، فما صناعتك؟ قلت: بزّار. قالت: وأين مولدك؟ قلت: بغداد. قالت: ومن أي الناس أنت؟ قلت: من أفناهم وأوساطهم. قالت: حياك الله وقرب دارك، فهل رويت من الأشعار شيئا؟ قلت: شيئا يسيرا. قالت: فذاكرنا بشيء مما حفظت. قلت: جعلت فداك إن للداخل دهشة، وفيّ انقباض، ولكن تبتدئين بشيء من ذلك، فالشيء يأتي بالمذاكرة. قالت: لعمري لقد صدقت، فهل تحفظ لفلان قصيدته التي يقول فيها كذا وكذا؟ ثم أنشدتني لجماعة من الشعراء القدماء والمحدثين من أحسن أشعارهم وأجود أقاويلهم وأنا مستمع أنظر من أي أحوالها أعجب؟ من ضبطها أم من حسن لفظها أم من حسن أدبها أم من اقتدارها على النحو ومعرفة أوزان الشعر؟ ثم قالت: أرجو أن يكون ذهب عنك بعض ما كان من الحصر والانقباض والحشمة. فقلت: إن شاء الله، لقد كان ذلك. قالت: فإن رأيت أن تنشدنا من بعض ما تحفظ فافعل. قال: فاندفعت أنشد لجماعة من الشعراء فاستحسنت نشيدي، وأقبلت تسألني عن أشياء تمر في شعري كالمختبرة لي، وأنا أجيبها بما أعرف في ذلك، وهي مصغية إليّ ومستحسنة لما آتي به، حتى إذا أتيت على ما فيه مقنع قالت: والله ما قصرت، وما توهمت

فيك ما ألقيت، وما رأيت في أبناء التجار وأبناء السوق مثل ما معك، فكيف معرفتك بالأخبار وأيام الناس؟ قلت: قد نظرت في شيء من ذلك. فقالت: يا جارية أحضرينا ما عندك. فما غابت عنا شيئا حتى قدّمت إلينا مائدة لطيفة قدمت عليها غرائب وطرائف الطعام، وقالت: دونك، فتقدمت، فأقبلت أعتذر بعض الاعتذار وهي مع ذلك تحثني وتضع بين يدي، وإني لأعجب من ظرفها وعقلها وحسن أدبها، حتى رفعت المائدة، وفي وسط المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه، لم أره اجتمع لأحد إلا لولي عهد أو سلطان.

قال إسحاق: فتثاقلت عن الشرب لتكون هي التي تبتدئ. فقالت: مالي أراك متوقفا عن الشراب؟ قلت: انتظارا لك جعلت فداك. فسكبت قدحا فشربت ثم سكبت قدحا آخر فشربت، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة، فإن المذاكرة بالأخبار وذكر أيام الناس مما يطرب. قلت: لعمري أن هذا لمن أوقاته. فاندفعت فقلت: بلغني أنه كذا وكذا، وكان رجل من الملوك يقال له فلان بن فلان، وكان من قصته كذا وكذا، حتى مررت بعدة أخبار حسان من أخبار الملوك وما لا يتحدث به إلا عند ملك أو خليفة، فسرت بذلك سرورا شديدا ثم قالت: والله لقد حدثتني بأحاديث حسان، ولقد كثر تعجبي من أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هي من أحاديث الملوك، وما لا يتحدث به إلا عند ملك أو خليفة. فقلت لها: جعلت فداك، إنه كان جار لي ينادم بعض الملوك، وكان حسن المعرفة كثير الحفظ فكان ربما تعطل عن نوبته التي كان يذهب فيها إلى دار صاحبه لشغل يمنعه من ذلك أو لأمر يقطع، فأمضي إليه، وأعزم عليه وأصير به إلى منزلي، فربما أخبرني من هذه الأحاديث شيئا، إلى أن صرت من خاصة أخدانه وممن كان لا يفارقه ما سمعت مني فمنه أخذته،

وعنه استفدته. فقالت: يجب أن يكون هذا كذا. ولعمري لقد حفظت فأحسنت الحفظ، وما هذا إلا لقريحة جيدة وطبع كريم.

قال إسحاق: وأخذنا في شيء من الشراب والمذاكرة أبتدئ الحديث فإذا فرغت ابتدأت هي في آخر أحسن منه حتى قطعنا بذلك عامة الليل، والند والعود وفائق البخور في المجلس يجدد ويسجر، وأنا في حالة لو توهمها المأمون وتأملها لاستطار فرحا وسرورا. ثم قالت لي: يا أبا فلان - وكنت قد غيرت عليها اسمي وكنيتي - والله إني لأراك كاملا، وفي الرجال فاضلا، وإنك لوضئ الوجه مليح الشكل، بارع الأدب، وما كان بقى عليك إلا شيء واحد حتى تكون قد برعت وبرزت. فقلت: وما هو يا سيدتي؟ قالت: لو كنت تحرك بعض الملاهي أو تترنم ببعض الأشعار. فقلت: والله لقد اشتهيته، وطالما كلفت به، وحرصت عليه، فلم أرزقه، ولا وجدتني مما تعلق بشيء منه، وكلما تقدمت في طلبه كنت منه أبعد وعنه أذهب، لذلك تركته وأعرضت عنه، وإن في قلبي من ذلك لحرقة وحرارة، وما أكره أن أسمع في مجلسي هذا من جيده شيئا لتكمل ليلتي، ويطيب عيشي. قالت: كأنك قد عرّضت بنا. فقلت: لا والله، ما هو تعريض وما هو إلا تصريح، وقد بدأتِ بالفضل، وأنت حرية باستتمام ما بدأت به. فقالت: يا جارية، عود. فأحضرت العود فأخذته فما هو إلا أن جسته حتى ظننت أن الدار قد سارت وبمن فيها، واندفعت تغني بصوت ما ظننت أحدا يغني به، مع صحة أداء وجودة ضرب. فقلت: والله لقد أكمل الله فيك خلال الفضل، وحباك بالكمال الرائع، والعقل الوافر، والأخلاق المرضية، والأفعال السنية . فقالت: هل تعرف لمن هذا الصوت، ومن غنى به؟ فقلت: لا والله. قالت: الغناء لإسحاق والشعر لفلان، وكان من سببه كذا وكذا. فقلت: هذا والله أحسن من الغناء.

فلم تزل تلك حالها في كل صوت تغنيه حتى انشقاق الفجر أو قبله جاءت عجوز لها فقالت: أي بنية، إن الوقت قد حضر، فإذا شئت فانهضي.

قال: فلما سمعت مقالها نهضت فقالت: عزمت؟ قلت: أي والله. فقالت: مصاحبا، عليك بستر ما كنت فيه، فإن المجالس بالأمانة. فقلت: جُعلت فداك أو احتاج إلى وصية في ذلك؟ فودعتها وودعتني وقالت: يا جارية، بين يديه. فأتي بي باب في ناحية الدار، ففتح لي وخرجت منه إلى طريق مختصرة، وبادرت البيت فصليت الصبح ووضعت رأسي فما انتبهت إلا برسل الخليفة على الباب، فقمت وقد أسرج لي، فركبت إلى الدار، فسرت إليه فلما مثلت بين يدي المأمون قال لي: يا إسحاق، جفوناك ما كنا ضمناه لك، وتشاغلنا عنك. فقلت: يا سيدي شيء آثر عندي ولا أسّر إلى قلبي من سرور يدخل على أمير المؤمنين، فإذا كمل سروره وطاب عيشه، فعيشنا طيب وسرورنا بسروره متصل. ثم قال: ما كانت حالك؟ قلت: يا سيدي كنت قد اشتريت صبية من السوق وكنت معلق القلب بها فلما تشاغل أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عني وخلوت وقد كانت في بقية طالبتني نفسي بها، فمضيت مسرعا فأحضرتها وأحضرت نبيذا، فسقيتها وشربت معها وغلب عليّ السكر فقطعني عما أردت، وذهب بي النوم إلى أن أصبحت. فقال: ما أكثر ما يتهيأ على الناس من هذا، فهل لك في مثل ما كنا فيه أمس؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، وهل أحد يمتنع من ذلك؟ قال: فإذا شئت. فنهض ونهضت فصرنا إلى المجلس الذي كنا فيه بالأمس على مثل حالنا تلك وأفضل، حتى إذا كان في الوقت وثب قائما فقال: يا إسحاق لا تذهب فإني أجيئك، فإني عزمت على الصبحة، فما هو إلا أن توارى عني، وتأملت ما كنت فيه فإذا هو

شيء لا يصبر عنه إلا جاهل ولو بزوال نعمته. قال: فنهضت فقال لي الغلمان: الله الله، فإن البارحة قد أنكر علينا غيابك وطالبنا بك وقال: لِمَ تركتموه؟ ولا نحسبك إلا تحب الإيقاع بنا. فقلت: والله لا نال أحدكم بسببي مكروه أبدا، ولكن أبادر لحاجة سريعا ثم نأتي، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه إذا دخل أبطأ، وأنا موافيكم قبل خروجه إن شاء الله. قال: فنهضت، فما شعرت إلا وأنا في الزقاق، فوافيت الصندوق على ما كان عليه، فقعدت فيه وصعدت وصرت إلى الموضع الذي أعرف، فلم ألبث إلا هنيهة وإذا بها قد طلعت فقالت: ضيفنا ؟. قلت: إي والله. قالت: أو قد عاودت؟ قلت: نعم. ولا أظن إلا إني قد ثقلت. قالت: مادح نفسه يقرئك السلام. فقلت: هفوة فمنك الصفح. قالت: قد فعلنا فلا تعد. قلت: إن شاء الله. قال: ثم جلسنا وأخذنا فيما كنا فيه من المذاكرة والإنشاد وأحضرنا النبيذ، ولم نزل على تلك الحال وأفضل، وقد أنست وانبسطت بعض الانبساط وهي مع ذلك لا تزال تقول لي: أوه، لو كنت الآن على ما أنت عليه وأحكمت من تلك الصنعة شيئا، لقد تناهيت وبرعت. فقلت: والله لقد حرصت على ذلك وجهدت فيه فما رزقته ولا قدرت عليه. ثم قلت: يا جُعلت فداك، لا تحرمينا مما كان من فضلك البارحة، ثم أخذت في الأغاني وكلما مر صوت حسن طيب وجيد بالغ قالت: يا فتى أتدري لمن هذا؟ فأقول: لا. فتقول: لإسحاق. فأقول وإسحاق هكذا جعلت فداك في الحذق؟ فتقول: بخ، إسحاق تاريخ في الغناء بديع الصوت وعتيق في الغناء ! فأقول: سبحانك الله، لقد أُعطى إسحاق ما لم يُعطه أحد. فتقول: ولو سمعت هذا منه لكنت أشد استحسانا له وبه أشد كلفا. حتى إذا كان الوقت، وجاءت العجوز نهضت وودعتها، وبادرت بين يدي جارية ففتحت الباب فخرجت منه، وغادرت المنزل، فتوضئت

للصلاة وصليت الصبح ووضعت رأسي فنمت، فما انتبهت إلا برسل الخليفة يطلبونني، فقمت وقد أسرج لي وركبت إلى دار الخليفة، فما هو إلا أن مثلت بين يدي المأمون حتى قال: يا إسحاق أبيت إلا مكافأة لنا، ومعاملة بمثل ما استعملناه معك ! قلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما إلى ذلك ذهبت، ولا إليه قصدت، ولكنني ظننت أن يكون أمير المؤمنين قد تشاغل عني بلذته، وأغفل أمري وجائني الشيطان فأذكرني أمر الجارية فبادرت إلى البيت. قال: وكان من أمرك ماذا؟ قلت: قضيت الحاجة وفرغ الأمر. فقال: قد انقضى ما كان بقلبك منها، وواحدة بواحدة والبادي أظلم. فقلت: بل أنا يا أمير المؤمنين ألوم وأظلم، وإليك المعذرة. فقال: لا تثريب عليك، هل لك في مثل حالنا الأول؟ قلت: أي والله. قال: فانهض بنا، وقام وقمت حتى إذا صرنا إلى الموضع الذي كنا فيه أخذنا في لذتنا وشرابنا، حتى إذا كان في الوقت قال لي: يا إسحاق، ما عزمك؟ قلت: لا عزم لي يا أمير المؤمنين. قال: فعزمت عليك لتجلسن حتى أخرج إليك لنصبح، فإني عازم على الصبوح، وقد نغصت عليّ ذلك مذ يومين. قلت: فالليلة إن شاء الله. وطرحت الستارات ودخل إلى الحريم، فما هو إلا أن توارى عني حتى ضرب بي وقمت وقعدت، وجالت وساوسي ، وجعلت أفكر في مجلسي معها ومكانها ومحادثتها والنظر إليها، وفي الخروج عن طاعة المأمون، وما يلحقني في ذلك من سخطه وموجدته، فيسهل عليّ كل صعب إذا فكرت في أمرها . قال: فوثبت مبادرا ، فاجتمع عليّ جند الدار فقالوا لي: أين تريد؟ فقلت: الله الله، فإن لي قصة، وأنا معلق القلب ببعض من في منزلي، وأحتاج إلى مطالعتهم في بعض الأمر، فقالوا : ليس إلى تركك من سبيل. قال: فلم أزل أرفق بهذا، وأطلب إلى هذا، وأقبل رأس هذا، ووهبت خاتمي لواحد، وردائي لآخر حتى

تركوني، فلما خرجت عن جملتهم وأنا لا أصدق فلم أزل أعدو حتى وافيت الصندوق فجلست فيه، وصعدت السطح، وصرت إلى الموضع، وأقبلت على مثل حالتها تلك، فلما رأتني قالت: ضيفنا؟ قلت: نعم. قالت: جعلتها دار مقام؟ قلت: جعلت فداك حق الضيافة ثلاث، ثم إن رجعت بعدها فأنت في حل من دمي. قالت: والله لقد أتيت بحجة. قال: ثم جلسنا فأخذنا في مثل حالنا الأول من الشرب والإنشاد والمذاكرة والمحادثة والغناء حتى إذا علمت أن الوقت قد قارب فكرتُ في قضيتي، وعلمت أن المأمون لا يوافقني على هذا، وأني لا أتخلص منه إلا بأن أشرح له قصتي، وأكشف له عن حالي، وعلمت أني إن قلت له ذلك طالبني بمعرفة الموضع والمسير به إليه، مع ما كان غلب عليه من الميل إلى النساء. فقلت لها: أتأذنين في ذكر شيء خطر ببالي؟ قالت: قل ما بدا لك، قلت: جعلت فداك إني أراك ممن يقول بالغناء ويُعجب به وبالأدب، ولي ابن عم هو أحسن مني وجها، وأظرف قدا، وأكثر أدبا، وأغزر معرفة، وإنما أنا تلميذ من تلاميذه، وحسنة من حسناته، وهو أعرف الناس بغناء إسحاق وأحفظهم له. قالت: « طفيلي ويقترح » لم ترض أن أتيتنا ثلاثة أيام حتى احتجت أن تأتيني معك بآخر. فقلت لها: جُعلت فداك، ذكرته لتكوني أنت المحكمة، فإن أذنت وأردت ذلك، وإلا فلا إكراه، قالت: فإن كان ابن عمك هذا على ما ذكرت فما نكره أن نعرفه ونشاهده. فقلت: هو والله على أكثر مما وصفت. قالت: فإذا شئت. قلت: فالليلة. قالت: والليلة. ثم حضر الوقت فنهضت وصرت إلى البيت، فما وصلت حتى وافيت منزلي، وإذا برسل الخليفة وأصحاب الشرطة قد ركبوا إلى بابي، فلما بصروا بي سُحبت سحبا على حالتي تلك حتى انتهوا بي إلى الدار، فإذا المأمون جالس وسط الدار على كرسي، وإذا هو

مغتاظ. فقال: يا إسحاق، أخروجا عن الطاعة؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: فما قصتك وما الذي أظهر ما أرى من الانحراف، وكثرة الخلاف؟ فاصدقني حالك. قلت: إنه كانت لي قصة أحتاج فيه إلى خلوة. فأومأ إلى من كان واقفا بين يديه فتنحوا حتى إذا خلونا قلت: كان من خبري كيت وكيت، وفعلت وصنعت ورأيت كذا. فوالله ما فرغت من حديثها حتى قال: يا إسحاق، أتدري ما تقول؟ فقلت: إي والله إني أدري. فقال: ويحك، فكيف لي بمشاهدة ما شاهدت؟ قلت: ما إلى ذلك سبيل. قال :والله لا بد تلطُف لي وتوصلني إليها، فهذا ما لا صبر لعاقل عنه. قلت: إي والله، قد تفكرت في قصتي وفيما قدمت عليه من عصيانك، وعلمت أنه لا ينجيني إلا الصدق وكشف الحال، وعلمت أنك تطالبني به أشد المطالبة، فقدّمت إليها ذاكرا من ذلك، وقلت لها كيت وكيت، ووعدتها في أمرك بكذا وكذا. قال: قد والله أحسنت، ولولا ذلك لنلتُك بكل مكروه. قلت: فالحمد لله الذي سلم. قال: ثم نهض ونهضت حتى صرنا إلى مجلسنا وأخذنا في لذتنا وشربنا، وهو مع ذلك يقول: يا إسحاق، حدثني عنها، وصف لي حالها واشرح لي أمرها، فوالله ما قطعنا يومنا ذلك إلا بذكرها، وما وصلنا إلى آخر النهار إلا والمأمون لا يصدق من شدة تعلق قلبه بها، حتى إذا كان بعد فترة من الليل وهو يقول في كل ساعة ما جاء الوقت؟ وأنا أقول: بقي قليل، والقلق غالب عليه، حتى إذا جاء الوقت نهضنا فخرجنا من بعض أبواب القصر، ومعه غلام، وهو على حمار، وأنا على حمار، فلما صرنا بالقرب من منزلها نزلنا ثم قلنا للغلام: انصرف فإذا كان انشقاق الفجر فكن هاهنا بالحمارين. وأقبلنا نمشي متنكرين وأنا أقول: يجب أن تُظهر برِّي بحضرتها وإكرامي، وتطرح نخوة الخلافة، وتجُّبر الملك، وكن كأنك تبع لي،

وهو يقول: نعم، أو ترى أني أجهل وتحتاج إلى أن توصيني؟ قال لي: ويحك يا إسحاق فإن قالت لي: غنِ، فكيف أصنع ؟ قال: قلت: أنا أكفيك وأدفعها عن ذلك وأصدها برفق وحسن تصرف، ثم صرنا إلى الزقاق، فإذا بصندوقين معلقين بثمانية أحبل. فقعد في واحد وقعدت في آخر، ثم جذب الجواري وإذا نحن في السطح حتى انتهين

بنا إلى المجلس. قال: فأقبل المأمون يتأمل الفرش والدار والزي ويعجب بذلك إعجابا شديدا، وقعدت في موضعي الذي كنت أقعد فيه، وقعد المأمون دوني في المرتبة، ثم أقبلت وسلمت، فما تمالك أن نظر إليها فبهت من حسنها، فقالت: حيا الله ضيفنا بالسلام، والله ما أنصفت ابن عمك، ألا رفعت مجلسه؟ فقلت: ذلك إليك جُعلت فداك. فقالت: ارتفع فديتك، فانت جديد، وهذا قد صار من أهل البيت ولكل جديد لذة، فنهض المأمون حتى قعد في صدر المجلس، ثم أقبلت عليه تذاكره وتباشده وتمازحه، وهو آخذ معها في كل فن فسكّتها وأفحمها. قال : فالتفتت إليّ وقالت: وفيت بوعدك وصدقت في قولك ووجب شكرك على صنيعك. قال: ثم أحضرنا النبيذ وأخذنا في الشراب، وهي مع ذلك مقبلة عليه وهو مقبل عليها، ومسرورة به ومسرور بها. قال: فالتفتت إليّ فقالت: وابن عمك هذا من أبناء التجار؟ قلت لها: نعم فديتك، نحن لا نعرف إلا التجارة. قالت: وإنكما فيها لغريبان. ثم قالت: موعدك. فقلت: لعمري إنه ليجب ولكن حتى نسمع شيئا. قال: وأخذت العود وغنت صوتا فشربنا عليه رطلا، ثم غنت بصوت كان المأمون يقترحه عليّ، فشربنا عليه رطلا، قال: فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال وغلب عليه الفرح وتداخله السرور وارتاح وطرب، قال: يا إسحاق، فوالله لقد رأيته نظر إليّ نظرة الأسد إلى فريسته، فنهضت وقلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: غنني هذا

الصوت. فلما رأتني أخذت العود ووقفت بين يديه أغنيه علمت أنه الخليفة وأني إسحاق. فنهضتُ وقال: ها هنا وأومأ إلى كلّة مضروبة فدخلتها ثم فرغت من ذلك الصوت وشرب رطلا وقال لي: ويحك يا إسحاق، انظر هذه الدار من ربها؟ فخرجت فلقيت تلك العجوز فقلت لها: من صاحب المنزل؟ ومن مولاكم؟ قالت: الحسن بن سهل. قلت: ومن هذه منه؟ قالت: ابنته بوران. فرجعت وأعلمته فقال: عليّ به الساعة. قال: فقلت لها امضي فأحضريه وأعلميه أن أمير المؤمنين يطلبه. قال: فغابت عني هنيهة ثم جاءت وهو في إثرها فوقف بين يديه فقال: ألك بنت؟ قال نعم يا أمير المؤمنين. قال: أزوجتها؟ قال: لا والله. قال: وما اسمها؟ قال: بوران. قال: فإني أخطبها إليك. قال: هي يا أمير المؤمنين أمتُك، وأمرها إليك. قال: فإني قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألف دينار نحملها إليك في صبيحة ليلتنا هذه، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتها. قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ثم نهض وفتح لنا الباب وخرجنا، فلما صرنا إلى الدار قال: يا إسحاق، لا يقفنّ أحد على ما وقفت عليه، فإن المجالس بالأمانة قلت: يا أمير المؤمنين، ومثلي يحتاج إلى وصية بهذا الأمر ؟.

قال إسحاق: فما أصبحنا حتى أمر بحمل المال، ونقلت إليه من يومها، وكانت أحظى نسائه عنده وآثرهن لديه، وبقيتُ أستر هذا الحديث إلى أن مات المأمون، فما اجتمع لأحد ما اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام التي كنت أنصرف من مجلس أمير المؤمنين في خلافته إلى مجلسها، والله ما رأيت من الرجال في ملوكهم ولا خلفائهم ولا سوقهم أحدا يفي المأمون، ولا شاهدت من النساء امرأة كبوران تقاربها فهما وعقلا وحلاوة وشكلا، وأما معرفتها وأدبها فما أظن أن في الأرض امرأة كان يتهيأ لها أن تقف من العلوم من مثل ما وقفت

عليه. ولقد سألت بعض من كان يتولى خدمتها من عجائزها فقلت لها: وما حملها على ما أرى؟ فقالت: والله إنها لتفعل هذا منذ كذا سنة، ولقد عاشرت من الظرفاء والأدباء والملاح أكثر من أن يقع عليه إحصاء، وما جرى بينها وبين أحد مكروه ولا منكر، ولا لفظة قبيحة، ولم يكن مذهبها في ذلك إلا حب الأدب والمذاكرة لأهله، والمعاشرة لأهل المروءة والأقدار، وذوي النبل والأخطار لا لريبة تظهر، ولا لحالة تنكر.

قال: فوالله لقد تضاعف قدرها عندي، وعلمت شرف همتها وفضلها.

والقصة لا تحتاج إلى تعليق ففيها ما يتمناه كل رجل في نساء اليوم.

صاحبة الدينار

كان رجل من بني نوفل بن عبد مناف يدعى نُصيبا، وكان فقيرا في أول حياته ثم أنه أصاب مالا وأصبح ميسور الحال، وكان عنده أم محجن وكانت سوداء، فاشتاق إلى امرأة بيضاء، فتزوج سرا امرأةً بيضاء، ولما علمت أم محجن غضبت وغارت عليه فقال لها: والله يا أم محجن ما مثلي يغار عليه، إني شيخ كبير، وما مثلك يغار، إنك لعجوز كبيرة وما أحد أكرم علي منك ولا أوجب حقا، فتجاوزي هذا الأمر، ولا تكدريه علي، فرضيت وقرت، ثم قال لها بعد ذلك: هل لك أن أجمع إليك زوجتي الجديدة فهو أصلح لذات البين، ولم الشعث وأبعد للشماته؟ فقالت: نعم أفعل، وأعطاها دينارا وقال: إني أكره والله أن ترى بك خصاصة أو تكون هي أفضل منك، فاعملي لها إذا أصبحت عندك غداءً بهذا الدينار. ثم أتى زوجته الجديدة فقال لها: إني أردت أن أجمعك إلى أم محجن غدا وهي ستكرمك، وأكره أن تكون أفضل منك فخذي هذا الدينار فأهدي لها به إذا أصبحت عندها غداً لئلا ترى بك خصاصة ولا تذكري لها الدينار. ثم أتى صاحبا له يستنصحه فقال: إني أريد أن أجمع زوجتي الجديدة إلى أم محجن غداً ، فأتني مُسلّما فإني سأستجلسك للغداء، فإذا تغديت فسلني عن أحبهما إلي فإني سأنفر وأعظم ذلك، فإذا أبيت عليك أن لا أخبرك فاحلف علي، فلما كان الغد زارت زوجته الجديدة وأهدت لأم محجن هدية، ومر به صديقة فاستجلسه، فلما تغديا أقبل الرجل عليه فقال: يا أبا محجن، أحب أن تخبرني عن أحب زوجتيك إليك،

فقال: سبحان الله أتسألني عن هذا وهما يسمعان؟ ما سأل عن مثل هذا أحد من قبل. قال: فإني أقسم عليك لتخبرني، فوالله لا عذرتك، ولا أقبل إلا ذاك. قال: ما دمت قد أقسمت علي فإن أحبهما إليّ صاحبة الدينار، والله لا أزيد على هذا شيئا. فأصبحت كل واحدة منهما تضحك، ونفسها مسرورة ، وهي تظن أنه عناها بذلك القول.

عروة وعفراء

هلك حزام بن مالك وترك ابنه عروة صغيرا في حجر عمه، وكانت عفراء تربا لعروة أي (ولِدَتْ مع عروة)، ويلعبان معا ويكونان معا حتى تألف كل واحد منهما صاحبه إلفا شديدا، وكان عقال أبوها يقول لعروة لما يرى من إلفهما: أبشر فإن عفراء زوجتك إن شاء الله.

فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء، ولحق عروة بالرجال، فأتى عروة عمَّة له يقال لها: هند، وقال لها في بعض ما يقول: يا عمّة، إني لمكلمك، وإني منك لمستحي، ولكن لم أفعل حتى ضقت ذرعا بما أنا فيه.

فذهبت عمته إلى أخيها فقالت له: يا أخي، قد أتيتك في حاجة أحب أن تحسن بها، فإن الله يأجرك لصلة رحمك بي، فقال: قولي، فلن تسألي حاجة إلا رددتك بها، قالت: تُزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء، فقال: ما عنه مذهب، ولا هو دون رجل يُرغب فيه، ولا بنا عنه رغبة ؛ ولكنه ليس بذي مال، وليست عليه عجلة. فطابت نفس عروة، وسكن بعض السكون، وكانت أمها سيئة الرأي فيه تريد لأبنتها ذا مال ويكون أهلا لها.

فلما اكتملت سن عروة وبلغ أشده عرف أن رجلا من قومه ذا مال كثير وجاه حضر لخطبتها، فأتى عمه فقال: يا عم قد عرفت حقي وقرابتي، وإني ولدك ورُبيّت في حجرك، وبلغني أن رجلا خطب عفراء ؛ فإن أسعفته بطلبته قتلتني وسفكت دمي، فأنشدك الله ورحمي

وحقي ألا تقتلني، فرق قلب عمه له وقال: يا بني أنت معدم، وحالنا قريبة من حالك، ولست مخرجها إلى سواك، وأمها أبت أن تزوجها إلا بمهر عال.

فضرب في الأرض يبتغي الرزق ثم جاء إلى أمها فألطفها وتودد إليها، فأبت أن تجيبه إلا بما تحتكمه من المهر، وبعد أن يسوق نصفه إليها، فوعدها بذلك وعلم أنه لا تنفعه قرابة ولا غيرها إلا المال الذي يطلبونه، فعمل على قصد ابن عم له موسر، وكان مقيما بالري، فجاء إلى عمه وامرأته فأخبرهما بعزمه، فصوباه ووعداه ألا يحدثا حدثا حتى يعود.

وصار في ليلة رحيله إلى عفراء، فجلس عندها هو وجواري الحي يتحدثون حتى أصبحوا، ثم ودعها وودع الحي، وشد على راحلته، وصحبه في طريقه فتيان كانا يألفانه، وكانا في طول سفره ساهما بكلماته فلا يفهم، فِكْرُهُ في عفراء حتى أنه لا يرد القول مرارا على من يكلمه.

وسار إلى أن قدم على ابن عمه فلقيه، وعرفَّه حاله وما قدم له، فوصله وكساه وأعطاه مئة من الإبل، فانصرف بها إلى أهله.

وقد كان رجل من أهل الشام من أنساب بني أمية نزل في حي عفراء، فنحر ووهب وأطعم، وكان ذا مال، فرأى عفراء، وكان منزله قريبا من منزلهم، فأعجبته وخطبها إلى أبيها، فاعتذر إليه وقال: قد سميتها إلى ابن أخ لي يعدلها عندي، وما إليها لغيره سبيل، فقال له: إني أرغبك في المهر، قال: لا حاجة لي بذلك، فعدل إلى أمها، فوافق عندها قبولا لبذله ورغبت في ماله، فأجابته ووعدته، وجاءت إلى عقال أبيها وقالت: أي خير في عروة حتى تحبس أبنتي عليه وقد

جاءها الغني يطرق عليها بابها؟ والله ما تدري أعروة حيٌّ أم ميت؟ وهل ينقلب إليك بخير أم لا؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيرا حاضرا ورزقا سنيّا، فلم تزل به حتى قال لها: فإن عاد لي خاطبا أجبته.

فوجهت إليه: إن عُد خاطبا. فلما كان من الغد نحر جزرا عدة، وأطعم ووهب، وجمع الحي معه على طعامه وفيهم أبو عفراء، فلما طعموا أعاد القول في الخطبة، فأجابه وزوجه، وساق إليه المهر وحوّلت إليه عفراء، وقالت قبل أن يدخل بها :

يا عرو إن الحيَّ قد نقضواعهد الإله وحاولوا الغدرا

فلما كان الليل دخل بها زوجها، وأقام فيهم ثلاثا ثم ارتحل بها إلى الشام، وعمد أبوها إلى قبر عتيق فجدده وسواه، وسأل الحي كتمان أمرها.

وقدم عروة بعد أيام، فنعاها أبوها إليه، وذهب به على ذلك القبر، فمكث يختلف إليه أياما وهو مضني هالك، حتى جاءته جارية من جواري الحي فأخبرته الخبر، فتركهم وركب بعض إبله وأخذ معه زادا ونفقة، ورحل إلى الشام، فقدمها وسأل عن الرجل، فأخبر به ودُل عليه، فقصده وانتسب إليه في عدنان فأكرمه وأحسن ضيافته، فمكث أياما حتى أنِسوا به.

ثم قال لجارية لهم: هل لك في يد توليينها؟ قالت: نعم، قال: تدفعين خاتمي هذا إلى مولاتك، فقالت: سوءةً لك ! أما تستحي لهذا القول" فأمسك عنها ثم أعاد عليها، وقال لها: ويحك هي والله بنت عمي، وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس، فاطرحي هذا الخاتم في صحنها، فإن أنكرت عليك فقولي لها: اصطبح ضيفك قبلك ولعله سقط منه !

فرقت له الجارية وفعلت ما أمرها به، فلما شربت عفراء اللبن

رأت الخاتم فعرفته فشهقت ثم قالت للجارية: أصدقيني الخبر، فصدقتها، فلما جاء زوجها قالت له: أتدري من ضيفك هذا؟ قال: نعم ! فلان بن فلان (للنسب الذي انتسب له عروة) فقالت: كلا والله بل هو عروة بن حزام ابن عمي، وقد كتمك نفسه حياءً منك.

فبعث إليه فدعاه وعاتبه على كتمانه نفسه إياه وقال له: بالرحب والسعة، نشدتك الله والرحم ألا تبرح هذا المكان أبدا، وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان، وأوصى خادمة له بالاستماع عليهما وإعادة ما تسمعه منهما عليه.

فلما خلوا تشاكيا وجدا بعد الفراق، فطالت الشكوى وهو يبكي أحر بكاء، ثم أتته بشراب وسألته أن يشربه فقال: والله ما دخل في جوفي حرام قط، ولا ارتكبته منذ كنت، ولو استحللت حراما لكنت قد استحللته منك، فأنتي حظي من الدنيا، وقد ذهبت مني وذهبتُ بعدك، فما أعيش، وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن، وأنا استحي منه، والله لا أقيم بعد علمه مكاني، وإني عالم أني راحل إلى منيتي، فبكت وبكى وانصرف.

ثم جاء زوجها وأخبرته الجارية بما دار بينهما فقال: يا عفراء، امنعي ابن عمك من الخروج، فقالت: لا يمتنع هو والله أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ما جرى بينكما، فدعاه وقال له: يا أخي، أتق الله في نفسك فقد عرفت خبرك، وإنك إن رحلت تلفت، والله لا أمنعك من الاجتماع معها أبدا، ولئن شئت لأفارقنها، ولأنزلن عنها لك، فقال له: جزالك الله خيرا وأثنى عليه وقال: إنما كان الطمع إليها آفتي، والآن قد يئست وحملت نفسي على الصبر، فإن اليأس يُسلي، ولي أمور لابد من الرجوع إليها، فإن وجدت بي قوة على ذلك

وإلا عدت إليكم وزرتكم حتى يقضي الله من أمري ما يشاء، فزودوه وأكرموه وشيعوه فانصرف.

فلما رحل عنهم نُكِس بعد صلاحه وتماسكه، وأصابه غشيٌّ وخفقان فكان كلما أُغمي عليه ألقى على وجهه خمارا لعفراء زودته أياه فيفيق.

ولقيه في الطريق ابن مكحول عرّاف اليمامه فرآه وجلس عنده وسأله عما به وهل هو خبل أو جنون؟ فقال له عروة: ألك علم بالأوجاع؟ قال: نعم، فأنشأ يقول :

فما بي من خبل ولا بي جُنةولكن عمي يا أخي كذوب

أقول لعراف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطبيب

فيا كبدًا أمست رُفاتا كأنمايلذعها بالموقدات طبيب

عشية لا عفراء منك بعيدةفتسلو ولا عفراء منك قريب

فوالله لا أنساك ما هبت الصباوما عقّبتها في الرياح جنوب

وإني لتعروني لذكراك هزة لها بين جلدي والعظام دبيب

ثم توفى عروة وهو راجع بالشام. ولما بلغ موته عفراء قالت لزوجها: قد كان من خبر ابن عمي ما بلغك، ووالله ما عرفت منه قط إلا الحسن، وقد مات في وبسببي، ولا بد لي أن أندبه فأقيم مأتما عليه، قال: افعلي، فما زالت تندبه ثلاثا حتى توفيت في اليوم الرابع، وبلغ معاوية بن أبي سفيان خبرهما فقال: لو علمت بحال هذين الحرّين الكريمين لجمعت بينهما.

انظروا إلى حب هذين الكريمين الحرّين كما قال معاوية، فياله من حب عذري شريف عفيف كريم، فهل نسمع أو نرى مثل هذا الحب في عالم اليوم ؟

الزوجــة الوفيــة

جلس معاوية بن أبي سفيان في مجلس كان له بدمشق، وكان ذلك الموضع مفتح الجوانب يدخل منه النسيم، فبينما ينظر إلى بعض الجهات في يوم شديد الحر، وقد اشتد نفح الهجير، إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه وهو يتلظى بالنار من حر التراب، ويحجل في مشيه حافيا، فتأمله معاوية وقال لجلسائه: هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في هذه الساعة؟ فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين، فقال: والله لئن كان قاصدي سائلا لأعطينه أو مستجيرا لأجيرنه أو مظلوما لأنصرنه... يا غلام، قف بالباب فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه الدخول عليّ.

فخرج الغلام فوَافَى الأعرابي، وقال: ما تريد؟ قال: أمير المؤمنين. قال: ادخل، فدخل وسلم على معاوية، فقال له: ممن الرجل؟ قال: من تميم، قال: ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت؟ قال: جئتك مشتكيا وبك مستجيرا. قال: ممن؟ قال: من مروان بن الحكم، ثم أنشد هذه الأبيات:

معاوي يا ذا الفضـل والحلم والعقلوذا البر والإحسان والجود والبذل

أتيتك لما ضـاق في الأرض مذهبيوأنكـرت مما قـد أصبتُ به عقلي

ففـرّج كـَلاكَ الله عنـي فإننـيلقيت الـذي لم يلقـه أحـد قبلـي

وخذ لي - هداك الله - حقي من الذيرماني بسهم كان أيسره قتلي

وكنت أرجى عدله إن أتيته فأكثر ترداد مع الحبس والكبل

سباني سعدى وانبرى لخصومتي فهذا أمير المؤمنين، من العدل؟

فلما سمع معاوية إنشاده والنار تتوقد من فيه قال: مهلا يا أخا العرب، اذكر قصتك وأفصح عن أمرك.

قال: يا أمير المؤمنين، كانت لي زوجة وهي ابنة عمي، وكنت محبا لها وبها كلفا، وكنت بها قرير العين، طيب العيش، وكانت لي صرمة من الإبل (الصرمة من الإبل ما بين العشرين والثلاثين) أستعين بها على قيام حالي، وإصلاح أودي، فأصابتنا سنة ذات قحط شديد أذهبت الخف والظلف، وبقيت لا أملك شيئا، فلما قل ما بيدي، وذهب حالي ومالي بقيت مهانا ثقيلا على وجه الأرض، قد أبعدني من كان يشتهي القرب مني، وازورّ عني من كان يرغب في زيارتي ! فلما علم أبوها ما بى من سوء الحال وشر المال أخذها مني، وسألني الفراق وجحدني وطردني، وأغلظ عليّ، فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مستصرخا وبه راجيا لينصرني، فأحضر أباها وسأله عن حالي فقال: ما أعرفه قبل اليوم، فقلت: أصلح الله الأمير ! إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل.

فبعث إليها مروان وأحضرها مجلسه، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصما وعليّ منكرا ! وانتهرني وأظهر لي الغضب وبعث بي إلى السجن، فبقيت كأنما خررت من السماء في مكان سحيق !

ثم قال لأبيها: هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار وعشرة

ألاف درهم لك؟ وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابي، فرغّب أبوها في البذل وأجابه لذلك.

فلما كان من الغد بعث إلـيّ وأخرجني من السجن، وأوقفني بين يديه ونظر إلـيَّ كالأسد الغضبان وقال: يا أعرابي، طلق سعدى، فقلت: لا أقدر على هذا، فسلط عليّ جماعة من غلمانه فأخذوا يعذبونني بأنواع العذاب، فلم أجد بدا من ذلك ففعلت، ثم عاود بي إلى السجن فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها فتزوجها ودخل بها. وقد أتيتك مستجيرا وإليك ملتجئا ثم أنشد:

في القلب مني نـار والنار فيها شرار
والجسم منـي نحيل واللون فيه اصفرار
وفي فؤادي جمـر والجمر فيـه شرار
والعين تبكي بشجو فدمعهـا مـــدرار
والحب داء عسير فيـه الطبيب يحـار
حُمّلت منه عظيما فما عليـه اصطبار
فليس ليلـي ليـل ولا نهاري نهــار !

ثم اضطرب وخر مغشيا عليه، وأخذ يتلوى كالحية المقتولة، فلما سمع كلامه وإنشاده قال: تعدَّى فظلم مروان بن الحكم في حدود الدين، واجترأ على حُرم المسلمين، ثم قال: والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله قط، ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب إلى مروان بن الحكم: قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك، وانتهكت حُرمة من حرم المسلمين، وتعديت حدود الدين، وينبغي لمن كان واليا أن يغض بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذاته، وكتب في آخره:

ركبت أمـرا عظيما لستُ أعرفـهأستغفر الله من جور امرئ زاني

قد كنت تشبــه صوفيـا لــه كتُبٌمـن الفرائـض أو آيات فرقــان

حتى أتاني الفتى العـذري منتحبا يشكــو إلـيّ بحق غيــر بهتــان

إن أنت راجعتني فيمـا كتبت به لأجعلنــك لحمـا بيــن عقبــان

طلق سعاد وعجلهـــا مجهــزة مــع الكميت ومع نصر بن ذبيان

فما سمعت كما بُلّغت من عجب ولا فِعـالك حقـا فعـل إنســـان

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه، واستدعى الكميت ونصر بن ذبيان وكان يستنهضهما في قضاء الحوائج لأمانتهما ـ فأخذاه وسارا حتى قدما المدينة ودخلا على مروان وسلما إليه الكتاب، ففضه وقرأه ثم ارتعدت فرائصه وطلقها في الحال وبعث بها إلى أمير المؤمنين، وكتب إلى معاوية كتابا فيه :

حـوراء يقصر عنها الوصف إن وصفت أقـول ذلـك فــي سـر وإعـــلان

فلما قرأه قال: لقد أحسن في الطاعة، وأطنب في حسن الجارية.

ولما رأى معاوية الجارية رأى صورة لم ير مثلها في الحسن والقد والجمال ! وخاطبها فوجدها أفصح النساء بعذوبة ومنطق، ثم قال: عليَّ بالأعرابي، فأتي به وهو على غاية سوء الحال فقال: يا أعرابي ؛ هل لك عنها من سلوة وأعوضك ثلاث جوار مع كل جارية ألف دينار، وأقيم لك من بيت المال في كل سنة ما يكفيك ويعينك على صحبتهن ؟

فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شهق شهقة ظن معاوية أنه قد مات، ولما أفاق قال له: ما بالك؟ فقال: شر بال، وأسوأ حال، استجرت بعدلك من جور ابن الحكم فبمن أستجير من جورك ! ثم أنشد :

لا تجعلني والأمثال تضرب بـــي كالمستجير من الرمضاء بالنار

اردد سعاد علـى حيـران مكتئب يمسي ويصبح فـي هـم وتذكار

قـد شفـه قلـق ما مثلـه قلـق وأسعـر القلب مـن أي أسعـار

وكيف السلو وقـد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صبار !

ثم قـال: يا أمير المؤمنين ؛ لو أعطيتني ما حوته الخلافة ما اعتضته دون سُعدى. فقال معاوية: يا أعرابي ؛ إنك مقر أنك طلقتها، ومروان مقر أنه طلقها، ونحن نخيرها، فإن اختارت سواك زوجناه بها، وإن اختارتك رجعنا بها إليك.

قال: افعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ودعاها معاوية وقال لها: ما تقولين يا سعدى؟ أي أحب إليك؟ أمير المؤمنين في عزه وشرفه وسلطانه وقصوره وما تصيرين عنده، أو مروان بن الحكم في عسفه وجوره، أو هذا الأعرابي مع جوعه وفقره وسوء حاله؟ فأنشدت هذين البيتين :

هذا وإن كان في فقـر وإضرار أعزُ عندي من قومي ومن جاري !

وصاحب التاج أو مروان عامله وكل ذي درهـم عنـدي ودينـار

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين ؛ ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا لغدرات الأيام، وإن لي معه صحبة قديمة لا تنسى، ومحبة لا تبلى، وأنا أحق من صبر معه على الضراء، كما تنعمت معه في السراء.

فتعجب معاوية من عقلها ومروءتها وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وردها بعقد جديد، فأخذها الأعرابي وانصرف يقول :

خلّوا عن الطريق للأعرابي ألم تَرِقُّوا ويحكم، مما بى ؟!

ما أعظم الوفاء بين هذين الزوجين، وخاصة من هذه الزوجة

الكريمة الوفية التي عُرض عليها المال والجاه فرفضت كل ذلك، ولم ترض بغير زوجها بديلا رغم فقره، وقلة ماله، ولنا في ذلك عظة وعبرة.

الفصل الخامس

من نوادر الظرفاء

وهذه استراحة مع بعض النوادر المضحكة التي حدثت في قديم الزمان ممن يعرفون بنوادرهم، وظرفهم مثل أشعب، وأبودلامة وغيرهما.

من نوادر أشعب

قيل لأشعب: لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر، لكان أولى بك.

قال: قد فعلت. قالوا: فما حفظت من الحديث؟

قال: حدثني نافع عن أبي عمر عن النبي (ﷺ) «من كان فيه خصلتان كُتِب عند الله خالصا مخلصا »

قالوا: إن هذا حديث حسن، فما هاتان الخصلتان؟

قال: نسي نافع واحدة ونسيت أنا الأخرى.

- ضرب الحجاج أعرابيا سبعمائة صوت وهو يقول عند كل سوط: شكرا لك يا رب، فلقيه أشعب فقال: أتدري لما ضربك الحجاج سبعمائة صوت؟ قال: ما أدري. قال: لكثرة شكرك لله. يقول الله: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) الآية 7 من سورة إبراهيم فقال الأعرابي :

يا رب لا شكرا فلا تزدني أسأت في شكرك فاعف عني

باعد ثواب الشاكرين عني

- وطلب رجل من أشعب أن يسلفه مالا، ويؤخره فقال: هاتان حاجتان، فإذا قضيتُ لك إحداهما فقد أنصفت. قال: رضيت. قال: فأنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك.

من نوادر أبي الأسود الدؤلي

كان (أبو الأسود الدؤلي) معروفا ببخله. وقد مر عليه أعرابي ذات يوم وهو يتناول طعامه، فسلم عليه الأعرابي فرد أبو السود من دون أن يدعوه إلى الأكل، وقرر الأعرابي أن يصرف أبا الأسود عن الأكل فقال :

- إني قد مررت بأهلك.

قال أبو الأسود: كذلك كان طريقك.

قال الأعرابي: وامرأتك حبلى.

قال أبو السود: كذلك عهدي بها.

قال الأعرابي: وقد ولدت.

قال أبو الأسود: كان لا بد لها أن تلد.

قال الأعرابي: ولدت غلامين.

قال أبو الأسود: كذلك كانت أمها.

قال الأعرابي: مات أحدهما.

قال أبو الأسود: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين.

قال الأعرابي: ثم مات الآخر.

قال أبو الأسود: ما كان ليبقى بعد موت أخيه.

قال الأعرابي: وماتت الأم.

قال أبو الأسود: ماتت الأم حزنا على ولديها.

قال الأعرابي: ما أطيب طعامك !

قال أبو الأسود: لأجل ذلك أكلته وحدي، والله لا ذقته يا أعرابي !

من نوادر أبي دلامة

- خرج أبو دلامة مع المهدي في صيد لهم، فخرج لهم ظبي فرماه المهدي فأصابه، ورمى علي بن سليمان فأخطأه وأصاب الكلب، فضحك المهدي وقال لأبي دلامة: قل شعرا: فقال :

قد رمى المهدي ظبيا شك بالسهم فؤاده
وعلي بن سليمان رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل أمريء يأكل زاده

- دخل أبو دلامة على المهدي وعنده محمد بن الجهم وزيره، وكان المهدي يستثقله فقال له: أبا دلامة، والله لا تبرح مكانك حتى تهجو احد الثلاثة. فهم أبو دلامة بهجاء ابن الجهم، ثم خاف شره، فرأى أن هجاءه لنفسه أقل ضررا عليه، فقال :

ألا أبلغ لديك أبا دلامة فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لبس العمامة كان قردا وخنزيرا إذا وضع العمامة
وإن لزم العمامة كان فيهاكقرد ما تفارقه الدمامة

- دخل أبو دلامة على المهدي فأسمعه مديحا له فيه، فأعجبه وقال له: سل حاجتك، قال: كلب صيد أصطاد به، قال: قد أمرنا لك بكلب تصطاد به، قال: وغلام يقود الكلب، قال: وغلام يقود الكلب، قال: وخادم تطبخ لنا الصيد. قال: وخادم. قال: ودار نسكنها. قال: ودار تسكنها. قال: وجارية آوي إليها. قال: وجارية. قال: بقى الآن المعاش. قال: قد أقطعنا لك ألف جريب عامرة، وألف جريب غامرة،

قال: وما العامرة؟ قال: التي لا تعمر. قال: فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من فيافي بني أسد. قال: فإنا نجعلها عامرة كلها. قال: أفيأذن أمير المؤمنين في تقبيل يده؟ قال: أما هذه فدعها. قال: ما منعتني شيئا أيسر على أم عيالي فقدا منه.

الناسك والسمن

ورد في كتاب كليلة ودمنة أن ناسكا كان له سمن في جرة معلقة على سريره، ففكر يوما وهو مضطجع على السرير وبيده عكاز، فقال: أبيع الجرة بعشرة دراهم وأشتري بها خمسة أعنزة، فأولدهن في كل سنة مرتين، فيبلغ الناتج في عشر سنين مائتين، وأبيعهن فأبتاع بكل عشرة بقرة، ثم ينمو المال بيدي، فأبتاع العبيد والإماء ويولد لي ولد، فآخذ به في الأدب، فإن عصاني ضربته بهذه العصا، وأشار بالعصا فأصاب الجرة فانكسرت، وصب السمن على وجهه ورأسه.

حمار أبي العنبس يقول شعرا

كان أبو العنبس مشهورا بنوادره، وذا دعابة وطُرف، وحضر يوما مجلس الخليفة المتوكل فقال لأبي العنبس: أخبرني عن حمارك ووفاته وما كان من شعره في الرؤيا التي رأيتها، قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان عاقلا، ولم يكن له جريرة ولا زلة، فأصابه مرض على حين غفلة فمات منه، فرأيته فيما يرى النائم، فقلت له: يا حماري ألم أكن أبرد لك الماء، وأنق لك الشعير، وأحسن إليك بكل جهدي؟ فلم مت على غفلة؟ وما خبرك؟ قال: نعم، لما كان في اليوم الذي وقفت على فلان الصيدلاني تكلمه في كذا وكذا مرت بي أتان حسناء، فرأيتها فأخذت بمجامع قلبي، فعشقتها، واشتد وجدي بها، فمت كمدا متأسفا، فقلت له: يا حماري، فهل قلت في ذلك شعرا؟ قال: نعم، وأنشدني:

هام قلبي بأتان عند باب الصيدلاني
تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان
وبخدين أسيلين كلون الشنفران
فيها مت ولو عشت إذا كان هواني

قال: قلت: يا حماري، فما الشنفراني؟ فقال: هذا من غريب الحمير، فطرب المتوكل وأمر الملهين والمغنين أن يتغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار، وفرح في ذلك اليوم فرحا شديدا، وسر سرورا لم يُر مثله، وزاد في إكرام أبي العنبس وجائزته.

الأعرابي يضحك على ابن المدينة

قدم أعرابي من أهل البادية على رجل من أهل الحضر، قال فأنزلته ببيتي وكان عندي دجاج كثير، ولي امرأة وابنان وبنتان منها، قال: فقلت لامرأتي: أشوي لي دجاجة وقدميها لنا نتغذى بها، فلما حضر الغداء جلسنا جميعا أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي، قال: فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا: اقسمها بيننا، نريد بذلك أن نضحك منه، فقال الأعرابي: لا أحسن القسمة فإن رضيتم بقسمتي قسمت بينكم، قلنا: فإنا نرضى، قال: فأخذ رأس الدجاجة فقطعه ثم ناولنيه وقال: الرأس للرئيس، ثم قطع الجناحين وقال: الجناحان للابنين، ثم قطع الساقين وقال: والساقان للابنتين، ثم قطع العجز وقال: العجز للعجوز، ثم قال: والزور للزائر فأخذ الدجاجة بأسرها (والزور يقصد به وسط الصدر وما ارتفع منه إلى الكتفين).

فلما كان من الغد قلت لامرأتي: اشوي لنا خمس دجاجات، فلما حضر الغداء قلنا اقسم بيننا، قال: أظنكم حزنتم من قسمتي أمس، قلنا: لا لم نحزن فاقسم بيننا، فقال: شفعا أو وترا؟ قلنا: وترا. قال: نعم، أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة، ورمى لهما بدجاجة، ثم قال: وابناك ودجاجة ثلاثة ورمى الثانية، ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة، ثم قال: وأنا ودجاجتان ثلاثة، فأخذ الدجاجتين، فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه، فقال الأعرابي: ما تنظرون ! لعلكم كرهم قسمتي؟ الوتر ما تجيء إلا هكذا، قلنا: نريد أن تقسمها بيننا شفعا، قال: فقبض الدجاجات إليه ثم قال: أنت وابناك ودجاجة أربعة، ورمى

إليه بدجاجة، والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة ورمى إليهن بدجاجة، ثم قال: وأنا وثلاث دجاجات أربعة، وضم إليه ثلاث دجاجات، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: الحمد لله أنت فهمتنيها.

لا يعرف العصامي من العظامي

وُصف عند الحجاج رجل بالجهل، وكانت له إليه حاجة، فقال في نفسه: لأختبرنه ! ثم قال له حين دخل عليه: أعصامي أنت أم عظامي؟ فقال الرجل: أنا عصامي وعظامي، فقال الحجاج: هذا أفضل الناس، وقضى حاجته وزاده، ومكث عنده مدة، ثم باحثه فوجده أجهل الناس فقال له: تصدقني وإلا قتلتك، قال له: قل ما بدا لك وأصدقك ! قال: كيف أجبتني بما أحببت لما سألتك عما سألت ؟. قال له: والله لم أعلم: أعصامي خير أم عظامي ! فخشيت أن أقول أحدهما فأخطئ فقلت: أقول كليهما فإن ضرني أحدهما نفعني الآخر، فقال له الحجاج عند ذلك: المقادير تصير العيَّ خطيبا !.

قول بقول

قال الجاحظ: حدثني محمد بن يسير عن وال كان بفارس قال: بينما هو يوما في مجلس، وهو مشغول بحسابه وأمره وقد احتجب عن الناس ؛ إذ ظهر شاعر من بين يديه فأنشده شعرا مدحه فيه، ومجده، فلما فرغ قال: قد أحسنت، ثم أقبل على كاتبه فقال: أعطه عشرة آلاف درهم، ففرح الشاعر فرحا شديدا.

فلما رأى حاله قال: وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع. اجعلها عشرين ألف درهم. وكاد الشاعر يخرج من جلده فرحا ! فلما رأى فرحه قد تضاعف قال: وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألفا. فكاد الفرح يقتله. فلما رجعت إليه نفسه قال له: أنت - جعلت فداك - رجل كريم، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحا زدتني في الجائزة. وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له ! ثم دعا له وخرج.

قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهما، تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال: ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئا؟ قال: ألم تأمر بذلك؟ قال: يا أحمق إنما هذا رجل سرّنا بكلام وسررناه بكلام، هو حين زعم أني أحسن من القمر، وأشد من الأسد، وأن لساني أقطع من السيف، وأن أمري أنفذ من السنان، جعل في يدي من هذا شيئا أرجع به إلى شيء؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنه سرّنا حين كذب لنا. فنحن - أيضا - نسرّه بالقول، ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذبا فيكون كذبا بكذب، وقول بقول. فأما أن يكون كذب بصدق، وقول بفعل، فهذا هو الخسران الذي ما سمعت به.

لعنة حذاء أبي القاسم

كان في بغداد رجل اسمه أبوالقاسم الطنبوري، وكان له حذاء وهو يلبسه سبع سنين ، وكان كلما تقطع منه موضع جعل مكانه رقعة إلى أن صار في غاية الثقل، وصار الناس يضربون به المثل.

فاتفق أنه دخل يوما سوق الزجاج فقال له سمسار: يا أبا القاسم قد قدم إلينا اليوم تاجر من حلب ومعه كمية من الزجاج المذهب قد كسد، فاشتره منه، وأنا أبيعه لك بعد هذه المدة، فتكسب به المثل مثلين ! فمضى واشتراه بستين دينارا .

ثم إنه دخل إلى سوق العطارين فصادفه سمسار آخر وقال له « يا أبا القاسم. قد قدم إلينا اليوم من نصيبين تاجر ومعه ماء ورد، ولعجلة سفره يمكن أن تشتريه منه رخيصا، وأنا أبيعه لك فيما بعد، بأقرب مدة، فتكسب به المثل مثلين !

فمضى أبو القاسم واشتراه ـ أيضا ـ بستين دينارا أخرى، وملأ به الزجاج المذهب وحمله وجاء به فوضعه على رف من رفوف بيته في الصدر !

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يغتسل، فقال له بعض أصدقائه: يا أبا القاسم، أشتهي أن تغير حذائك هذا فإنه في غاية الشناعة ! وأنت ذو مال بحمد الله ! فقال له أبو القاسم: الحق معك فالسمع والطاعة.

ثم إنه خرج من الحمام ولبس ثيابه، فرأى بجانب حذائه حذاءً

آخر جديدا، فظن أن الرجل من كرمه اشتراه له، فلبسه ومضى إلى بيته.

وكان ذلك الحذاء الجديد للقاضي، وقد جاء به في ذلك اليوم إلى الحمام، ووضع حذاءه هناك ودخل يستحم !

فلما خرج فتش عن حذائه فلم يجده، فقال: أمَنْ لبس حذائي لم يترك عوضه شيئا؟ فلم يجدوا سوى حذاء أبي القاسم ! فعرفوه لأنه كان يضرب به المثل !

فأرسل القاضي خدمه ودخلوا بيته فوجدوا حذاء القاضي عنده، فأحضره القاضي، وضربه تأديبا له، وحبسه مدة وغرمه بعض المال وأطلقه !

فخرج أبو القاسم من الحبس، وأخذ حذاءه وهو غضبان عليه ومضى إلى دجلة فألقاه فيها، فغاص في الماء !

فأتى بعض الصيادين ورمى شبكته فطلع فيها ! فلما رآه الصياد عرفه، وظن أنه وقع منه في دجلة ! فحمله وأتى به بيت أبي القاسم، فلم يجده ! فنظر فرأى نافذة إلى صدر البيت، فرماه منها إلى البيت، فسقط على الرف الذي فيه الزجاج فوقع وانكسر الزجاج وتبدد ماء الورد !

فجاء أبوالقاسم ونظر إلى ذلك فعرف الأمر، فلطم وجهه، وصاح يبكي وقال: وافقراه ! أفقرني هذا الحذاء الملعون !

ثم إنه قام ليحفر له في الليل حفرة ويدفنه فيها، ويرتاح منه، فسمع الجيران حس الحفر، فظنوا أن أحدا ينقب عليهم، فرفعوا الأمر إلى الحاكم، فأرسل إليه وأحضره وقال له: كيف تستحل أن تنقب على جيرانك حائطهم؟ وحبسه ولم يطلقه حتى غرم بعض المال !

ثم خرج من السجن ومضى وهو غضبان من الحذاء، وحمله إلى

كنيف (أي مرحاض) الخان ورماه فيه، فسد قصبة الكنيف، ففاض وضجر الناس من الرائحة الكريهة ! وبحثوا عن السبب فوجدوا حذاءً فتأملوه فإذا هو حذاء أبي القاسم ! فحملوه إلى الوالي، وأخبروه بما وقع، فأحضره الوالي ووبخه وحبسه وقال له: عليك تصليح الكنيف ! فغرم جملة من المال، وأخذ منه الوالي مقدار ما غرم تأديبا له وأطلقه.

فخرج أبوالقاسم والحذاء معه وقال وهو مغتاظ منه: والله ما عدت أفارق هذا الحذاء !

ثم إنه غسله وجعله على سطح بيته حتى يجف، فرآه كلب فظنه بعض العظام فحمله وعبر به على سطح آخر فسقط من الكلب على رأس رجل، فآلمه وجرحه جرحا بليغا، فنظروا وفتشوا لمن الحذاء فعرفوا انه لأبي القاسم، فرفعوا الأمر إلى الحاكم، فألزمه بالعوض والقيام بلوازم المجروح مدة مرضه ! فنفد عند ذلك جميع ما كان له، ولم يبق عنده شيء !

ثم إن أبا القاسم أخذ الحذاء ومضى به إلى القاضي وقال له: أريد من مولانا القاضي أن يكتب بيني وبين هذا الحذاء مبارأة شرعية على أنه ليس مني ولست منه ! وأن كلا منا بريء من صاحبه، وأنه مهما يفعله هذا الحذاء لا أؤاخذ أنا به ! وأخبره بجميع ما جرى عليه منه !

فضحك القاضي منه ووصله ومضى !

فلا رجعت ولا رجع الحمار

قال الجاحظ: دخلت يوما مدينة، فوجدت فيها معلما في هيئة حسنة، فسلمت عليه، فرد على أحسن رد، ورحب بي فجلست عنده وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر فيه، ثم تفاتحنا في الفقه والنحو وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب، فقلت: سأختلف إليه وأزورُه.

وجئت يوما لزيارته، فإذا بالكُتّاب (أي موضع التعلم) مغلق ولم أجده، فسألت عنه فقيل: مات له ميت، فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء.

فذهبت إلى بيته، وطرقت الباب فخرجت إليّ جارية وقالت: ما تريد؟ قلت: سيدك. فدخلت وخرجت وقالت: باسم الله، فدخلت إليه، وإذا به جالس فقلت: عظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. كل نفس ذائقة الموت، فعليك بالصبر.

ثم قلت له: هذا الذي توفى ولدك؟ قال: لا. قلت: فوالدك؟ قال: لا. قلت: أخوك ؟. قال: لا. قلت: فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: فمن هو؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذه أولى العجائب. فقلت: سبحان الله ! النساء كثير وستجد غيرها. قال: أتظن أني رأيتها؟ قلت: وهذه الثانية؟ ثم قلت: وكيف عشقت ما لم تر؟ فقال: أعلم أني كنت جالسا في هذا المكان، وأنا أنظر من فتحة فيه إذ رأيت رجلا عليه برد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردي عليّ فؤادي أينما كان

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر، فعشقتها.

فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها، وأغلقت المكتب وجلست في الدار ! فقلت: يا هذا، إني كنت قد ألفت كتابا في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قد قوّيتَ عزمي على إبقائه، وأول ما أبدأ بك إن شاء الله

صاحب الخط الرديء

كان رجل فقيه خطه في غاية الرداءة، فكان الفقهاء يعيبونه بخطه ويقولون له: لا يكون خط أردأ من خطك !

فيضجر من عيبهم إياه فمر يوما بمجلد يباع فيه خط أردأ من خطه، فبالغ في ثمنه، فاشتراه بدينار وقيراط، وجاء به ليحتج عليهم إذا قرأوه. فلما حضر معهم أخذوا يذكرون قبح خطه فقال لهم: لقد وجدت أقبح من خطي، وبالغت في ثمنه حتى أتخلص من عيبكم.

فأخرجه فتصفحوه وإذا في آخره اسمه، وإنه كتبه في شبابه، فخجل من ذلك.

أراد المسكين التخلص من عيبه بحجة فرجعت الحجة عليه.

المصادر

- الأذكياء : لابن الجوزي
- الأغاني : لأبي فرج الأصفهاني
- البخلاء : للجاحظ
- البداية والنهاية : للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير
- البدر الطالع: للشوكاني
- الطغاة والطغيان في التاريخ: جواد صيداوي
- العقد الفريد : لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
- المستطرف في كل فن مستظرف : للأبشيهي
- المنتظم: لأبي الفرج ابن الجوزي
- النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي
- بحر الدموع: لابن الجوزي
- عيون الحكايات: لابن الجوززي
- مروج الذهب ومعادن الجوهر : للمسعودي
- من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا : إبراهيم محمود
- نفح الطيب للغصن الأندلسي الرطيب: لأحمد محمد المقري التلمساني
- وفيات الأعيان : لابن خلكان

في هذا الكتاب يجد القارئ صنوفا مختلفة من القصص القديمة التي حدثت عبر التاريخ، منها ما تروي بطولات الرجال وصبرهم وحكمتهم ودهائهم، ومنها ما يحكي عن العشق والغرام ودهاء النساء، ومنها ما يتناول شهامة العربي من نصرة المظلوم والثأر للشرف، بالإضافة إلى قصص أخرى تتحدث عن الإيثار، وكرامة الصدقة عن الفقراء والمساكين، ولم نغفل إضافة بعض القصص الطريفة، إلى غير ذلك من ألوان القصص التي سيجدها القارئ الكريم في هذا الكتاب الذي نتمنى أن يجد فيه المتعة والفائدة، سائلين الله أن نكون قد وفقنا إلى ما فيه الخير.

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE